بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (١)

قوله تعالى"يأيها الناس اتقوا ربكم" الآية ١

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [سورة الحج:١-٢].

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه، ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها، كما قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [سورة الزلزلة:١-٢]، وقال تعالى: {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [سورة الحاقة: ١٤-١٥]، وقال تعالى: {إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} [سورة الواقعة:٤-٥]، فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة، وقال ابن جرير عن علقمة في قوله: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} قال: قبل الساعة.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة في العُرصات بعد القيام من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث.

هذه السورة قال عنها بعض أهل العلم: إنها من عجائب القرآن، فيها الناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، وفيها السلمي والحربي، وفيها الليلي والنهاري، والسفري والحضري، وهذه كلها من الأنواع كما ذكرت في الكلام على رسالة السيوطي في أصول التفسير.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [سورة الحج:١].

وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [سورة النساء:١].

فـ "إنّ" تدل على التعليل، وكأن المعنى: لأن الله عليكم مراقب، يراقب الحركات والسكنات، وهكذا في هذه الآية: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [سورة الحج:١]، وهذا الذي يعرف عند الأصوليين بدلالة الإيماء والتنبيه، أي يقرن الحكم بوصف، لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً.

والمعنى اتقوه لأن زلزلة الساعة شيء عظيم؛ ففيها من الأهوال والأوجال والأمور العظيمة الهائلة ما يستدعي العمل، والتشمير في طاعة الله -تبارك وتعالى-، والانكفاف عن كل ما لا يليق، فإن العباد سيصيرون إلى مقام وأهوال وأحوال وأوجال لا يقادر قدرها، ويفضي ذلك بهم إلى خلود بلا انقطاع في نعيم دائم، أو في عذاب وجحيم دائم، ومهما وصف الواصفون فإن ذلك لا يفي بأهوال ذلك اليوم، وما يحصل فيه من الأوجال.

قوله - تبارك وتعالى -: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} من أهل العلم من يقول: إن هذه الزلزلة تكون قبل قيام الساعة؛ لأنه قريب منها، ويكون ذلك من قبيل إضافة الزلزلة إلى الفاعل، واحتجوا على هذا بحديث لا يصح، ولو صح لكان قاطعاً في الدلالة على المراد، والحديث فيه مجاهيل، بل فيه من هو مبهم، فلا يعتمد عليه في تفسير الآية، ولهذا ذهب أكثر أهل العلم إلى أن هذه الزلزلة تكون بعد قيام القيامة، وبعد قيام الناس من القبور، وهذا الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بقوله: فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة، وهذا نقل عن علقمة، وقال به غيره كالشعبي وإبراهيم النخعي وعبيد بن عمير وابن جريج من التابعين.

والقول الآخر -وهو الأرجح- أن هذه الزلزلة كائنة بعد البعث، ويكون المعنى {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ} من إضافة الشيء إلى الظرف الذي يقع فيه، والدليل على هذا الأحاديث التي ذكرها بعده، فإنها توضح المراد.

والآية محتملة كقوله -تبارك وتعالى-: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} [سورة الزلزلة:١-٥] هل هذا قبيل قيام الساعة، عند حصول التغيرات الهائلة، أو أن ذلك يحصل بعد البعث؟، فبنفخة الصعق يموت كل الأحياء، وبنفخة البعث يقوم كل الأموات، فهذه الزلزلة التي ذكرها الله في سورة الزلزلة، لكن ما ذكره الله -عز وجل- فيها في ثنايا السورة يدل على أن ذلك بعد البعث، فمتى تخرج الأرض أثقالها؟، ومعنى أثقالها ما فيها من الأموات، وما فيها من الكنوز، كل ذلك تخرجه.

قال بعض أهل العلم: إن الزلزلة هي زلزلة حسية، وأكثرهم يقولون: هي زلزلة معنوية وليست حسية، بمعنى الخوف، كما قال الله -عز وجل- في سورة الأحزاب يصف حال المؤمنين وما بلغ الحال بهم من شدة الخوف قال: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [سورة الأحزاب:١١]، وإلا فأصل الزلزلة كما تدل عليه حروفها المتكررة، فإن تكرر الحروف يدل على تكرر المعنى، مثل: الصلصلة، صوت مثل صوت الجرس فيه تردد، صلصلة، وهكذا حينما يقال: زلزلة حركة واضطراب سريع، يعني الحركة الواحدة ما تسمى زلزلة، لكن حينما تميد وتتحرك فإن هذا يقال له: الزلزلة، وأصله من زل عن الموضع، زل عن المكان، ولهذا يقال: زلت قدمه، تزلزلت قدمه معناها أن هذا تكرر أكثر من مرة.

فالزلزلة -والله تبارك وتعالى أعلم- زلزلة معنوية وتحصل بعد البعث وذلك بما يحصل وبما يرون، ولهذا قال الله -عز وجل-: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [سورة الحج:٢] فهذه الزلزلة، الخوف الشديد الذي يصيب الناس، وبعض أهل العلم عزا القول بأن الزلزلة تكون قبل الساعة وتكون من أمارتها إلى الجمهور، والآية تحتمل المعنيين.

والذين قالوا: إن الزلزلة قبل يوم القيامة استدلوا بأن القيامة ليس فيها حمل ولا إرضاع، والذين قالوا: إنها في القيامة بعد البعث قالوا: من الممكن أن المرأة التي ماتت وهي حامل تبعث وهي حامل، فتضع حملها من شدة الهول، والمرأة التي ترضع تذهل عن ولدها.

وأحسن من هذا قول من قال: إن هذا ليس بلازم، فلا يلزم أن يكون هناك حمل وإرضاع، لكن هو لتصوير شدة الخوف والأهوال التي تقع فيها ، وأنها من شدتها تضع الحوامل الحمل، والمرضع تذهل، كما قال الله -عز وجل-: {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} [سورة المزمل: ١٧-١٨]، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٢)

من قوله تعالى"يوم ترونها" الآية ٢ إلى قوله تعالى"عذاب السعير" الآية ٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وقال المؤلف -رحمه الله-: قال تعالى: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [سورة الحج:١]، قال بعضهم: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة في العُرصات، بعد القيامة من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث:

روى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- عن عمران بن حُصَين، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رفع بهاتين الآيتين صوته: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [سورة الحج:١-٢] فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما دنوا حوله قال: ((أتدرون أي يوم ذاك؟ يوم ينادى آدم، -عليه السلام-، فيناديه ربه -عز وجل-، فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلى النار فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة))، قال: فأُبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: ((أبشروا واعملوا، فوالذي نفس محمد بيده، إنكم لمع خَليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس))، قال: فسُرّي عنهم، ثم قال: ((اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو الرقمة في ذراع الدابة))[1]، وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما، وقال الترمذي: حسن صحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الحديث يدل على أن هذه الزلزلة كائنة بعد البعث، وهذا اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ومن قال به أيضاً من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وقوله في هذا الحديث: ((فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي)) يعني: الدواب بمعنى أقبلوا عليه وأسرعوا إليه ليسمعوا ما سيقول، ثم قال: "**فأُبلس أصحابه**" الإبلاس هو أن يسكت الإنسان لغلبه الحزن والغم يعني كأنهم اكتئبوا "**فأبلس أصحابه**"

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الحج، برقم (٣١٦٩)، وأحمد في المسند، برقم (١٩٩٠١)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، إلا أن الحسن -وهو البصري- لم يسمع من عمران، لكنه قد توبع.

سكون مع غم يعني أغمهم ذلك وأحزنهم ذلك، "**فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة**" الضواحك في الإنسان أربع، قيل لها ذلك باعتبار أنه إذا ضحك ظهرت وبدت، بمعنى أنهم اكتئبوا ظهر عليهم الحزن لم يضحكوا لم يظهر عليهم سرور حين سمعوا هذا ((**من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار**)) يعني الذي ينجو واحد، فقال لهم -صلى الله عليه وسلم-: ((**إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج**)) وهما قبيلتان، وكذلك أن هذا بعث النار من بني آدم أولهم إلى آخرهم، أضف إلى ذلك من هلك من بني آدم ومن بني إبليس من بعد آدم -صلى الله عليه وسلم- إلى قيام الساعة الله -عز وجل- يقول: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [سورة الأنعام:١١٦]، {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [سورة الأعراف:١٧]، {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ} [سورة سبأ:٢٠]، فأكثر الناس من أتباع إبليس، ثم قال لهم -صلى الله عليه وسلم-: ((**فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو الرقمة في ذراع الدابة**))، الرقمة: هنة ناتئة في ذراع الدابة من الداخل، هنة ناتئة شيء صغير بارز يوجد من الداخل فهي شيء يسير صغير ((**أنتم في الناس مثل هذه الرقمة في ذراع الدابة**)).

قال -رحمه الله-: طريق أخرى لهذا الحديث روى الترمذي عن عمران بن حُصَيْن، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "لما نزلت: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ...} إلى قوله: {وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}، قال: نزلت عليه هذه، وهو في سفر، فقال: ((أتدرون أي يوم ذلك؟))، فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ((ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة))، فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قاربوا وسَدِّدوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية))، قال: ((فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا كُمِّلت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرَّقمة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير))، ثم قال: ((إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة))، فكبروا ثم قال: ((إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة))، فكبروا، ثم قال: ((إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة))، فكبروا، ثم قال: ولا أدري أقال الثلثين أم لا."[٢]

وكذا رواه الإمام أحمد، ثم قال الترمذي أيضا: هذا حديث حسن صحيح.

وروى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي سعيد قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف -أراه قال- تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}))، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من يأجوج ومأجوج

---

٢ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الحج، برقم (٣١٦٨)، والحاكم في المستدرك، برقم (٨٦٩٧)، وقال: هذا حديث صحيح بهذه الزيادة و لم يخرجاه، وأحمد في المسند، برقم (١٩٩٠١)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، واللفظ للترمذي.

تسعمائة وتسعة وتسعون، ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة))، فكبرنا، ثم قال: ((ثلث أهل الجنة))، فكبرنا، ثم قال: ((شطر أهل الجنة)) فكبرنا[٣].

وقد رواه البخاري أيضا في غير هذا الموضع، ومسلم، والنسائي في تفسيره.

هذا من التفسير النبوي الذي لا يجوز العدول عنه بحال من الأحوال؛ لأن تفسير القرآن بالسنة على نوعين:

النوع الأول: يفسر القرآن بالسنة، وذلك بحديث لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية ويكون ذلك مما يدخله الاجتهاد، واجتهاد المقصر -بمعنى المفسر-: قد يجتهد في الربط بين الآية مع الحديث ولكن المفسر قد يخطئ باعتبار أن الحديث أصلاً لا تعلق له بالآية، لكن المفسر فهم أن هذا الحديث مفسر لهذه الآية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يتعرض للآية في الحديث فهذا يدخله الاجتهاد، يصيب ويخطئ.

النوع الثاني: من تفسير القرآن بالسنة هو ما ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية، فهذا صح إسناده فلا يجوز العدول عنه بحال من الأحوال، كما في هذه الروايات النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((**فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وقرأ الآية {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}** [سورة الحج:٢])) فقوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}** [سورة الحج:١] يحتمل أنها الأهوال التي تكون في التغيرات التي تحصل قبل قيام الساعة، ويحتمل أن يكون ذلك بعد البعث من القبور، والآية تحتمل المعنيين، وبكل احتمال قال طائفة من أهل العلم، لكن هذا الحديث يدل دلالة واضحة على أن ذلك يكون بعد البعث **{يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا}** يكون هذا بعد القيام من القبور، وليس لأحد أن يعترض على هذا بأن يقول: هناك لا حمل ولا إرضاع، فيقال: قد يوجد حمل، تُبعث حاملاً، وقد يكون ذلك لتصوير الشدة لكن لو قال قائل: إن أهوال الساعة هو ما يحصل عند وقوعها قبل البعث من القبور، وما يحصل بعد البعث وأن هذا الحديث يذكر ما يكون بعد البعث، فهذا القول قد لا يكون معارضاً لهذا التفسير النبوي، وحتى آية الزلزلة **{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا}** [سورة الزلزلة:١-٢]، لا يكون إلا بعد النفخة الثانية، تخرج الأرض أثقالها بعد النفخة الثانية، تخرج ما في بطونها من الدفائن والكنوز وما أشبه ذلك، وهكذا **{يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}** [سورة الزلزلة:٤-٥] يعني أمرها بذلك، وهذا لا يكون إلا بعد النفخة الثانية.

وقال -رحمه الله-: والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جدا، لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} أي: أمر كبير، وخطب جليل، وطارق مفظع، وحادث هائل، وكائن عجيب.

ولهذا عبر عنها بـــ "شيء عظيم"، كأنه أمر تعجز الألفاظ عن التعبير عنه وعن وصفه، شيء عظيم فأبهمه، شيء فظيع فلم يذكر نوعاً من أنواع الفظاعة، وإنما عبر بهذه العبارة التي يدخل تحتها كل ما يمكن أن يتصوره الذهن، والعقول قاصرة عن إدراك كنهه، وتصور أهوالها شيء لا يخطر على البال.

---

٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحج، برقم (٤٤٦٤).

وقال -رحمه الله-: والزلزال: هو ما يحصل للنفوس من الفزع، والرعب كما قال تعالى: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا} [سورة الأحزاب:١١].

أصل الزلزلة من الحركة المتكررة، حركة شديدة واهتزاز، وهذه الزلزلة زلزلة معنوية بمعنى ما يحصل من الأهوال والأوجال، فيكون عند ذلك الرعب الشديد والخوف الذي ينقطع منه نياط القلب.

وقال -رحمه الله-: ثم قال تعالى: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا}: هذا من باب ضمير الشأن.

الرؤية في قوله: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا} الظاهر أنها رؤية بصرية، وأن الضمير في قوله: {تَرَوْنَهَا} يرجع إلى الزلزلة، وليس معناها ترون الساعة، والساعة وقت تحصل به أهوال وأوجال وتغيرات علوية وسفلية، لكن المقصود {تَرَوْنَهَا} أي ترون الزلزلة، ومعلوم أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ} وأقرب مذكور زلزلة، والزلزلة مضاف، والساعة مضاف إليه، والمضاف هو المحدث عنه ولا يصح رجوع الضمير إلى مضاف إليه، وإنما يرجع إلى المحدث عنه {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}، والمحدث عنه الزلزلة {زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ} تقول: كتاب زيد جميل، فالكتاب المضاف هو المحدث عنه {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}، {يَوْمَ تَرَوْنَهَا} أي ترون الزلزلة.

وقال -رحمه الله-: ثم قال تعالى: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا}: هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مفسرًا له: {تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ}.

الذهول هو الذهاب عن الشيء مع دهشة، تقول: أذهله الموقف، فذهب عما هو بصدده واشتغل عنه بغيره.

وقال رحمه الله: أي: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدهش عنه في حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: {كُلُّ مُرْضِعَةٍ}، ولم يقل: "مرضع" وقال: {عَمَّا أَرْضَعَتْ} أي: عن رضيعها قبل فطامه.

أي فتشتغل بهول ما ترى عن أحب الناس إليها والتي هي أشفق الناس عليه قال {كُلُّ مُرْضِعَةٍ} ولم يقل: مرضع عما أرضعت، وهناك قاعدة من قواعد التفسير تقول: إن الأوصاف المختصة بالإناث مثل المرضع والحائض والطالق ونحو ذلك إذا أريد بها النسبة جردت من التاء، وإذا أريد بها الفعل لحقتها التاء، هي أصلاً وصف مختص بالإناث، يعني ما يلتبس أن يقال الله يريد به مذكر مثلاً، فالرجل لا يكون مرضعاً وإنما هذا وصف يختص بالإناث، الإرضاع {تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ} فإذا أريد به النسبة فإنه يتجرد من التاء، تقول: فلانة مرضع، يعني من شأنها الإرضاع، فمرضع يعني عندها ولد ترضعه، لكن إذا قلت: فلانة مرضعة فالمعنى أنها تباشر الإرضاع قد ألقمت ولدها الثدي، وهكذا حينما يقال: طالقة بمعنى إيقاع الطلاق عليها، وإذا قيل: فلانة طالق يعني قد طلقت من زوجها، امرأة حائض لو صح الحديث: ((لا يقبل الله صلاة الحائض إلا بخمار))[٤]، ومعنى حائض المرأة البالغة، يكون من شأنها الحيض، حائض، لكن إذا كان الحيض قد نزل عليها يقال حائضة، وامرأة طامث يعني يأتيها الحيض، وطامثة يعني الآن ينزل عليها الدم، هي في فترة

---

٤ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب المرأة تصلي بغير خمار، برقم (٦٤١)، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب إذا حاضت الجارية لم تصل إلا بخمار، برقم (٦٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٧٤٧).

الحيض، فمرضعة يعني تباشر الإرضاع لحقتها التاء، والمرأة وهي ترضع ولدها تكون في أعظم صورة من العطف، والحنان، والإشفاق، والرأفة والحنو، فإذا جلست المرأة قبل أن تلقم ولدها الثدي يبدأ الحليب يسيل، وبمجرد أن تضعه في حجرها تبدأ مشاعر غير عادية تحصل لجميع خلايا الجسم، ويبدأ الحليب يسيل فإذا ألقمته الثدي ضمته إلى صدرها، لا تسأل عما يخالجها وعما يفيض منها لا تستطيع هي أن تعبر عنه، ولربما ودت أن تعطيه قلبها ليرضعه، فهذا يصور لك شدة الهول الذي ليس هناك تصوير أبلغ من هذا، فتترك هذا الصبي وتقوم مندهشة في حالة من الذهول، وتعرض عنه؛ لشدة فظاعة أهوال القيامة، وهذا من بلاغة القرآن ودقة التعبير فيه، فعبر بالمرضعة، والشاعر يقول:

كمرضعةٍ أولادَ أخرى وضيّعتْ ** بني بطنِها هذا الضلالُ عن القصدِ

ترضع أولاد الناس وتباشر إرضاعهم، وتضيع أولادها..

امرئ القيس له بيت يقول:

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ *** فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ

"حبلى قد طرقتُ"، يقول: لستِ أول واحدة، غيرك من هو أشغل منك –الحامل- فجرى بها، والمرضع قال:

ومُرْضِعٍ فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ

كانوا يربطون على الصغار التمائم، مرضع: يعني من شأنها الإرضاع، فجلس يجامعها ولا يريدها أن ترضع الآن.

وقال -رحمه الله-: وقوله: {وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا} أي: قبل تمامه لشدة الهول، {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى}.

قراءة حمزة والكسائي: {وترى الناس سكرى وما هم بسكرى}.

وقال -رحمه الله-: وقرئ: "سَكْرَى" أي: من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سُكارى، {وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}.

يعني أن الإنسان أحياناً يصيبه فزع شديد يكون مثل السكران، ولربما تكلم بأشياء وتسأله عنها بعد مدة فيقول: لم أشعر بشيء، وهذا يحصل للناس من الأهوال العظيمة، تحصل أمور مفجعة -نسأل الله العافية-، وإذا حصل أمر هائل كأن يحدث زلزال أو حريق أو غيره يخرج الناس من العمارات بما عليهم من ثياب، أو أحياناً بدون ثياب، لا يشعر بنفسه، يقول: خرجت ولم أشعر بهذا، حتى إن بعض الناس لا يعرف أين يتجه من شدة الهول، وبعض من يصاب بحادث قد تنكسر رجله لكنه يقوم ويقع وينزف ولا يعرف إلا بعد مدة في المستشفى، فهذا في أوقات الأهوال، نسأل الله العافية.

وقال -رحمه الله-: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [سورة الحج:٣-٤].

يقول تعالى ذامًا لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضا عما أنزل الله على أنبيائه، متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل البدع الضُّلال، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رءوس

الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، أي: علم صحيح، {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ}، قال مجاهد: يعني الشيطان، يعني: كتب عليه كتابة قدرية {أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ} أي: اتبعه وقلده، {فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} أي: يضله في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق.

وقد قال السدي، عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث. وكذلك قال ابن جريج.

قوله {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} هذا يشمل -كما ذكر الحافظ ابن كثير- الذين يجادلون في الوحدانية، والنبوة، والوحي وما إلى ذلك، ويشمل أيضاً أهل البدع، الذين يجادلون بالباطل، فبدعوتهم وضلالتهم كل هؤلاء يدخلون في هذا المعنى، فكل من جادل بغير علم فهو داخل في هذه الآية، ومفهوم المخالفة أن من جادل بعلم فإنه ليس بمذموم؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة النحل:١٢٥]، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة العنكبوت:٤٦]، يقول: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي: علم صحيح، {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} مريد هنا بمعنى المارد، والمريد والمارد يعني العاتي، فكل عاتٍ فهو مارد: {مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ} [سورة الصافات:٧]، وفي رمضان أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن المَردة من الشياطين تصفد[٥]، والمردة يعني الكبار، الرؤساء، العتاة منهم، وقال مجاهد في قوله: {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} يعني الشيطان كُتب عليه كتابة، أي قُدر أن من تولاه فالنتيجة هي الإضلال، فالشيطان لا يهديه إلى الخير ولا يدعوه إلى هدى، وأنه من تولاه أي اتبعه وقلده، {فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} استعمل الهدى في الدلالة على الضلال، وهذا معنى صحيح وهو مستعمل في القرآن، والله -عز وجل- يقول: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [سورة الصافات:٢٣]، فهو يستعمل في الخير والشر {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} [سورة القصص:٤١]، فالهداية والدعاء وما أشبه ذلك، استعملوا في هذا وهذا {كُتِبَ عَلَيْهِ}، قال: {فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} أي يضله في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، والسعير فعيل بمعنى مفعول، يعني المسعَّر، النار تتوقد وتتسعر وتتلهب وهو الحار المؤلم المقلق المزعج، قال: **عن أبي مالك نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وكذلك قال ابن جريج**، وهذا يحتاج إلى دليلٍ صحيح أنها نزلت فيه، ومثل هذه المراسيل لا يحتج بها ولكن هذه الآية تشمل كل ما كان بهذه الصفة، ولا يختص ذلك بالنضر بن الحارث، والله تعالى أعلم .

---

٥ - رواه النسائي، كتاب الصيام، باب ذكر الاختلاف على معمر فيه، برقم (٢١٠٦)، وأحمد في المسند، برقم (٧٩١٧)، وقال محققوه: إسناده ضعيف جدا، هشام بن أبي هشام -وهو هشام بن زياد القرشي أبو المقدام- متفق على ضعفه، ومحمد بن محمد بن الأسود-وهو ابن بنت سعد بن أبي وقاص- مجهول الحال، لم يرو عنه غير هشام هذا وعبد الله بن عون، وذكره ابن حبان في "الثقات"، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٣)

من قوله تعالى"يأيها الناس" الآية ٥إلى قوله تعالى"من في القبور" الآية ٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وبعد.

قال المؤلف -رحمه الله-: لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ} [سورة الحج:٥] أي: في شك {مِنَ الْبَعْثِ} وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ} أي: أصل بَرْئِه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم -عليه السلام- {ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ} الريب هو الشك، وهذا تفسير له بما يقرب من معناه، وإلا فإن الريب هو شك مع قلق، كما قال الله -عز وجل-: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [سورة البقرة:٢].

والسلف -رضي الله تعالى عنهم- يفسرون الشيء بما يقرب من معناه؛ ولهذا يقولون مثلاً: إن الإشفاق هو الخوف، مع أن الإشفاق هو الخوف مع العلم بالمخوف منه، والرأفة هي الرحمة، مع أن الرأفة هي رحمة رقيقة أخص من مطلق الرحمة، فالريب شك مع قلق يساور النفس.

وقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ} هي الماء المهين، قيل لها: نطفة؛ لقلتها، كما أنه يقال للقطرة من الماء: نطفة؛ لقلتها، والله أعلم.

قال -رحمه الله-: {ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ} ذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله.

{مِنْ عَلَقَةٍ} يعني: قطعة من الدم جامدة؛ ولأنها تعلق بجدار الرحم يقال لها: علقة، فهذا كله يبين الله -عز وجل- فيه كمال قدرته وعظمته، فهو الذي خلق الإنسان من هذا الخلق الضعيف من نطفة، ثم من علقة، وجعله بهذه الهيئة، وهو قادر على إعادته ثانياً، وقادر على البعث والنشور.

قال -رحمه الله-: فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط.

قيل لها: مضغة؛ لأنها بقدر ما يمضغ، تكون صغيرة، ثم بعد ذلك يبدأ التشكيل فهو أربعون يوماً نطفة، ثم أربعون علقة، فهذه ثمانون ثم بعد ذلك يكون مضغة، ولا يتشكل الجنين ولا يتصور قبل الثمانين، وإنما يكون

ذلك بعد الواحد والثمانين حينما يكون مضغة يبدأ بعد ذلك -على تفاوت- التخطيط والتشكيل، ولهذا إذا أسقطت المرأة قبل الواحد والثمانين فإنه ليس بنفاس، تصوم وتصلي، وإذا أسقطت بعد الواحد والثمانين نظر هل هذا الذي سقط منها بصورة إنسان له يد، ورأس، ورجل ونحو ذلك، فهذه يكون لها حكم النفاس، فإن خرج الدم قبل سقوطه مع آلام الولادة أو الإجهاض فهذا نفاس، وإن خرج الدم من غير آلام فليس بنفاس إذا كان بعد التشكيل وليس بعد نفخ الروح، بعد التشكيل والتخليق، وهذا لا يكون إلا بعد واحد وثمانين يوماً، وهكذا الإسقاط إذا تسببت في إسقاطه كأن تتعمد حمل شيء ثقيل من أجل أن يسقط أو تقفز من مكان مرتفع ونحو هذا، فإن خرج منها ما هو بصورة إنسان فعليها الدية، وهي عُشر دية الأم، ولا ترث منها شيء إنما تكون لأبيه، وإذا كان الذي سقط منها ليس بصورة إنسان فإن كان فيه بداية تخطيط فيكون له حكم النفاس والدية، وإن لم يكن في صورة التخطيط أصلاً لكن القوابل ذوات الخبرة يعرفن أن هذا ابتداء خلق إنسان من خلال الخبرة فهذا فيه خلاف بين أهل العلم: فمنهم من يقول: ليس فيه حكم، ومنهم من يقول: فيه الدية، وفيه أيضاً حكم النفساء، وأما إذا لم يظهر فيه شيء ولم يعرف القوابل ذلك إنما هي مجرد قطعة لحم فلا يتعلق بها حكم.

قال -رحمه الله-: ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: {ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} أي: كما تشاهدونها.

كلام ابن كثير -رحمه الله- يفسر المخلّقة بالمصورة في صورة إنسان سواءً سقطت قبل التمام، يعني قبل حين الولادة أو بقيت حتى يولد الإنسان، وقيل: {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} هي التي ليس عليها تصوير ولا تشكيل، وهو أيضاً ما اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله.

وقال -رحمه الله-: {لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق.

السقط مخلوق وغير مخلوق يعني هذا الذي تسقطه المرأة إما أن تكون المضغة هذه عليها صورة إنسان أو ليس عليها صورة إنسان، لكن ليس هذا محل اتفاق في التفسير، فمن أهل العلم من يقول: المخلقة هي المكتملة التي نفخت فيها الروح، وخرج إلى الدنيا، أي وُلد، وغير المخلقة هو ما سقط قبل ذلك، هذا ذهب إليه طائفة من أهل السلف ومن بعدهم، ما ولد بتمامه فهو مخلقة وما ولد قبل تمامه فغير مخلقة، وهذا يختلف عن القول الذي قبله، والقول الذي قبله لا يرتبط بالولادة ولا بنفخ الروح، إنما يكون باعتبار ما في هذه النطفة من تشكيل وتصوير وتخليق، والقول الثاني: أن ما سقط قبل تمامه فهو غير مخلقة، والمقصود بما سقط قبل تمامه يعني ما لا يعيش معه الجنين، كمن سقط لأربعة أشهر ونحو هذا، لكن لو أنها ولدت لسبعة أشهر فعاش الجنين لا إشكال في هذا، فهذه مخلقة، وبعض أهل العلم ذهب إلى غير هذا وقال: هذا كله في من وُلد، لكن هؤلاء على نوعين {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ}، مخلقة يعني تامة الخلق كاملة الأعضاء، يعني: ليس فيها إعاقات ولا تشوهات ولا نقص، وغير المخلقة قالوا: هي التي فيها عاهة ونقص بمعنى أنه خلق من غير

يد أو بيد واحدة، أو رجل واحدة، أو يد صغيرة أو نحو ذلك، قالوا: هذه غير مخلقة، وهذا الذي اختاره الشيخ محمد أمين الشنقيطي -رحمه الله- وحجته في ذلك هي أن مأخذ هذا القول من هذه المضغة التي وصفها الله -عز وجل- وخاطبنا {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ}، فيقول: هذه المضغة يخاطبنا الله بما أوجدنا منه، فلا يمكن أن يكون بما سقط قبل تمامه فنحن لم نوجد منه ولم نخلق منه، فيقول: هي التي وجد منها الناس، لكن إما أن يكون وجودهم وخلقهم تاماً، وإما أن يكون ناقصاً، فهذا مأخذ القول، لكنه لا يخلو من الإشكال، وذلك لإمكانية أن يقال -والله تعالى أعلم-: إن الله -عز وجل- ذكر الخلق من تراب، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، هذه الأشياء هي الأطوار التي يمر بها الإنسان، وأصل خلق الإنسان من تراب، والذي خلق من تراب هو آدم -صلى الله عليه وسلم- ولا حاجة للتكلف كما يقول بعضهم بأن أصل هذه النطفة خلاصة الغذاء، ولهذا إذا خرجت من الإنسان يجد إجهاداً وتعباً، وإذا كثر ذلك منه فإن ذلك يسلب عافيته، ولربما خرجت دماً عبيطاً، ويقولون: الغذاء أصله من النباتات والأشياء، وغير ذلك فلا حاجة إلى هذا التكلف، أصل خلق الإنسان من تراب بل بالماء فصار طيناً، فترك فصار حَمَأً، ثم بعد ذلك جف فصار صلصالاً كالفخار، فإذا ضربته كان له صوت، {صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [سورة الرحمن:١٤]، ثم بعد ذلك صار خلق الذرية من نطفة ثم من علقة وليس من تراب وإنما الأصل من التراب، والله -عز وجل- يذكر أطوار الخلق فأصله من نطفة فهذه النطف هي أصل الخلق، منها ما تمجه في الأرحام ويسقط وهو نطفة، ومنها ما يسقط وهو علقة، ومنها ما يسقط وهو مضغة، ومنها ما يسقط بعد أن تنفخ فيه الروح وقبل تمامه، ومنها ما يبقي حتى الولادة {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} فالله -عز وجل- يتحدث عن أصل خلق الإنسان، وليس الحديث عمن وُجدوا ومروا بهذه الأطوار جميعاً، أو أنهم مروا ببعضها فيقال: كيف يخاطبنا الله -عز وجل- بأنه خلقنا {مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ}، فنحن خلقنا من هذه الأطوار، والذي خلق من تراب هو آدم -صلى الله عليه وسلم- فقط، أما نحن فمن نطفة ثم علقة ثم مضغة وهذه المضغة لها حالتان -بخلاف العلقة والنطفة- مخلقة وغير مخلقة، ولهذا فرّق فيها وفصّل لكنها أصل خلق الإنسان، وهذا يمكن أن يستشكل على ما ذكره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن الله -تبارك وتعالى- يذكر في هذه الآية أطوار الخلق من حيث هي، وما يكون من حال هذه النطفة من تمام وعدمه، فتكون مخلقة بمعنى عليها صورة التخليق، أو غير مخلقة ليس عليها صورة التخليق، هكذا يبدو والعلم عند الله -عز وجل-، لا أن المقصود أنها ناقصة الخلقة، ومعنى التخليق التصوير والتشكيل، {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} [سورة المائدة:١١٠]، فتخلق بمعنى تشكل، يعني مشكّلة بغض النظر عن هذا التشكيل هل هو ناقص أو كامل، هذا جانب آخر يجاب به عن كلام الشنقيطي -رحمه الله-، فالذي خرج من بطن أمه وله يد واحدة أو رجل واحدة، أو ليس له أرجل أصلاً هذه مخلقة، وصورة إنسان يصدق عليها هذا الوصف أنها مخلقة، لكن غير المخلقة لم يتحقق فيها هذا الوصف أصلاً، فالوصف بالتخليق، ولم يقل ناقصة وكاملة، وإنما قال: {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ}، فما كان عليه تصوير وتخطيط وتشكيل فهذه مخلقة، وما كان قبل ذلك فهي غير مخلقة -والله تعالى أعلم-، وما ذكره ابن جرير وابن كثير أظنه أقرب في تفسير الآية، والخلاف فيها معروف ومشهور.

وقال -رحمه الله-: فإذا مضى عليها أربعون يوما، وهي مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكا فنفخ فيها الروح، وسواها كما يشاء الله -عز وجل-، من حسَن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد.

هذا ما يعرفه الملَك عند تمام الأربعة الأشهر -مائة وعشرين يوماً-، شقي أوسعيد، ذكر أو أنثى رزقه كل هذه الأشياء تكتب، والأطباء لا يعرفون هل هو ذكر أو أنثى حينما يكون نطفة أو علقة، ولو عملوا ما عملوا، ولا يعرفون الجنين وهو في بطن أمه هل هو ذكر أو أنثى إلا بعدما يعرف الملَك، فبعد ذلك لم يكن من الخمس التي اختص الله بعلمها {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} [سورة لقمان:٣٤]، فـ"ما" في قوله: {مَا فِي الْأَرْحَامِ} للعموم ذكر أو أنثى، شقي أو سعيد أجله عمله كل هذه الأشياء يعلمها الله - عز وجل -، والملك يطلعه الله -تبارك وتعالى- عند تمام الأربعة الأشهر على هذه الأشياء التي لا يمكن أن يطلع عليها الطب قبل النفخ في الروح، والطب كذلك لا يمكن أن يعرف هل هذا شقي أو سعيد أو رزق هذا الإنسان ما مقداره ونحو ذلك من الأمور المختصة بالله -جل جلاله.

وقال -رحمه الله-: كما ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود –رضي الله عنه- قال: حدثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق-: ((إن خلْق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مُضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وعمله وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح))[1].

وقوله: {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} أي: ضعيفاً في بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً.

قوله: {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} أي: أطفالاً، وقوله {طِفْلًا} اسم جنس، واسم الجنس قد يعبر به عن الجمع وهو بصيغة المفرد يعبر به عن الجمع، وذلك كثير في القرآن، والسياق هو الذي يبين المراد {نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} مع التنكير منكراً منفرداً أي: أطفال، {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [سورة الفرقان:٧٤] يعني: أئمة، وكذلك في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} [سورة القمر:٥٤] يعني: أنهاراً كما قال الله -عز وجل-: {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [سورة آل عمران:١٣٦]، هو بمعنى الجمع، وهكذا {فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا} [سورة النساء:٤] يعني أنفساً وهكذا، {وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [سورة النساء:٦٩]، يعني: رفقاء، وهذا كله من قبيل اللفظ المفرد المُنكر الذي أريد به الجمع؛ لأنه اسم جنس، وهذا كثير في كلام العرب ومنه قول الشاعر:

وكان بنو فزارةَ شرَّ عمٍّ *** وكنتُ لهم كشرٍّ بني الأخينا

---

١ - روي في الصحيحين بلفظ: "أربعين يوما" البخاري كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٣٦)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، برقم (٢٦٤٣)، وفي رواية لمسلم: "أربعين ليلة" بنفس الرقم.

شر عمٍّ: شر أعمام، عمّ مفرد منكر.

وهكذا في قوله:

ما بالُ قومٍ صديقٍ ثم ليس لهم *** دينٌ وليس لهم عقلٌ إذا ائتُمنوا

صديق يعني أصدقاء، وأيضا:

نَصبنَ الهوى ثم ارتمينَ قلوبَنا *** بأعيُنِ أعداءٍ وهنّ صديقُ

يعني أصدقاء، وهكذا:

لعمري لئن كنتم على النأي والنَّوى *** بكم مثلُ ما بي إنكم لصديقُ

يعني أصدقاء، وهكذا:

يا عاذلاتي لا تزدنَ ملامتي *** إنّ العواذلَ لسنَ لي بأميرِ

يعني بأمراء.

وهكذا إذا جاء مع المفرد معرفاً بـــ "ال" مثل: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} [سورة النور:٣١] يعني الأطفال، {أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا} [سورة الفرقان:٧٥]، يعني الغرف في الجنة، كما قال الله -عز وجل-: {غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ} [سورة الزمر:٢٠]، غرفة وهي بمعنى الجمع، وهكذا أيضاً بالإضافة إلى الضمير كما في قوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} [سورة النور:٦١]، أي: أصدقائكم، و{لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ} [سورة الممتحنة:١]، "عدوي" مفرد مضاف، و"عدوكم" أيضاً مفرد مضاف، يعني: أعدائي وأعداءكم وهكذا، ومنه قوله:

بها جِيفُ الحَسْرى فأما عظامُها *** فبيضٌ وأما جلدُها فصليبُ

جلدها: يعني جلودها.

وقال - رحمه الله-: ويلطف به، ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: {ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ} أي: يتكامل القُوَى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر.

قوله: {لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ} بلوغ الأشد يعني بلوغ المنتهى، أو بلوغ القوة في الجسم والعقل، والعلماء -رحمهم الله- بعضهم يقول: بلوغ الأشد يكون بعد الثامنة عشرة، وبعضهم يقول: إذا بلغ إحدى وعشرين سنة، وبعضهم يقول خمساً وعشرين سنة، وبعضهم يقول: إذا بلغ الأربعين، لأن الله -عز وجل- يقول: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} [سورة الأحقاف:١٥]، وبعضهم يقول: إذا بلغ الخمسين، ويذكرون بيتاً من الشعر:

أخو خمسينَ مُجتَمِعٌ أشُدِّي *** ونجّذَني مُداورةُ الشئونِ

والأقرب -والله أعلم- أن كل هذا يصدق عليه بلوغ الأشد، فإذا بلغ الإنسان القوة في البدن وفي العقل والتدبير فهذا بلوغ الأشد، وهذا يتفاوت فيكون منتهاه اكتمال القوة البدنية، وقوة العقل والنظر في الأربعين، ويبقى الإنسان متماسكاً ربما حتى إلى الخمسين، ثم بعد ذلك يبدأ الضعف في البدن، ثم بعد ذلك الضعف حتى في العقل حتى يصير إلى أرذل العمر، فيذهب عنه ما كان يعلمه، وهذا الإنسان مهما بلغ من القوة البدنية أو القوة العقلية وأنه لا يتغير فقوة الحفظ تكون قبل ذلك في الصغر، وقوة الإدراك والفهم تكون عند اكتمال العقل في الأربعين أو نحو ذلك، ولذلك العلماء يحبون ألا يؤلف الإنسان إلا بعد الأربعين، ويبدأ بعد ذلك

بضعف البدن، ثم بضعف العقل، وأحد المشايخ يقول عن أبيه: كان يكاد يحفظ المحلّى عن ظهر قلب، وما نسأله عن شيء إلا ويقول: افتح صفحة كذا وانظر السطر الفلاني، وفي آخر عمره صار إذا أراد أن يقوم من سريره ليذهب إلى مكان ينسى لماذا قام.

وقال -رحمه الله-: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى}، أي: في حال شبابه وقواه.

وقوله: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى} هنا قال: **أي: في حال شبابه وقواه**، فكأن ابن كثير -رحمه الله- أراد {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى} يعني: قبل أن يرد إلى أرذل العمر، وهذا يبدو -والله أعلم- هو الأقرب إلى ظاهر القرآن، ولكن أكثر المفسرين يقولون: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى} يعني من قبل بلوغ الأشد، {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى}، {وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا} [سورة النحل:٧٠].

قال -رحمه الله-: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ}، وهو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف وضعف الفكر؛ ولهذا قال: {لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [سورة الروم:٥٤].

الله -عز وجل- يذكر كثيراً في القرآن أطوار هذا الخلق {كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ} [سورة المعارج:٣٩]، من النطفة هذا الخلق الضعيف، {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} [سورة نوح:١٣-١٤]، فهذه هي الأطوار التي فصلها الله -عز وجل- هنا: {خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ} [سورة الزمر:٦]، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا} [سورة المؤمنون:١٢-١٤]، إلى غير ذلك من الآيات التي يذكر الله -عز وجل- فيها هذه الأطوار، وما ذكره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وهو في الصحيح قال: "إن من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر"[٢]، من قرأ القرآن يعني حفظ القرآن، لم يرد إلى أرذل العمر بمعنى أنه لا يذهب عقله في حال الهرم، وهذا مشاهد، ولا يعرف عن أحدٍ من الصحابة -رضي الله عنهم- أنه وصل إلى هذه المرحلة.

---

٢ - رواه الحاكم في المستدرك، في كتاب التفسير، تفسير سورة التين برقم (٣٩٥٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (٢٧٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٤٣٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٤)

من قوله تعالى"ومن الناس" الآية ٨ إلى قوله تعالى"ليس بظلم للعبيد" الآية ١٠

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة، وأتم التسليم، أما بعد:

فقال المؤلف -رحمه الله-: **وقوله:** {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً} [سورة الحج (٥)] **هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي القحْلَة التي لا نبت فيها ولا شيء.**

وقال قتادة: غبراء متهشمة، وقال السدي: ميتة.

{فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [سورة الحج(٥)] أي: فإذا أنزل الله عليها المطر {اهْتَزَّتْ} أي: تحركت وحييت بعد موتها، {وَرَبَتْ} أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: {وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [الحج: ٥] أي: حسن المنظر، طيب الريح.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً} [سورة الحج (٥)] الرؤية هنا بصرية، والأقوال التي ذكرها في معنى (هامدة) أقوال متقاربة ترجع إلى شيء واحد، سواء قيل: إنها قاحلة، أو متهشمة، أو ميتة، فهذا كله معناه يرجع إلى شيء واحد، أي: لا نبات فيها، والتي لا نبات فيها يقال لها: قاحلة ومُمحِلة، وأرض قفر، وما أشبه ذلك.

{فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ} [سورة الحج(٥)] اهتزت يعني: تحركت، وهذه الحركة تكون بالنبات، فإذا تحرك النبات في داخلها وفي باطنها، وتوجه مسمار النبات ليخرق ما فوقه ليصعد ويبدو، فهذا يحصل معه انتفاخ وارتفاع في الأرض؛ لما يوجد من جذور النباتات، أو أصول النباتات التي تحركت في داخلها، فترتفع الأرض بهذا الاعتبار.

(وربت) بمعنى ارتفعت، وفي القراءة الآخرى (ربأت) بمعنى: زادت، ومنه الرابية وهي الأرض المرتفعة، ومن أهل العلم من يقول: إن المقصود بقوله: (ربت) يعني ارتفعت بالنبات، وليس معناه انتفخت، وإنما المقصود ظهر عليها نبت فصارت الأرض مرتفعة به، يعني بعدما كانت الأرض تربة متساوية، أو طينة يابسة أو نحو ذلك صار فوقها النبات بقدر شبر أو ذراع أو أكثر من ذلك.

فـ(ربت) يعني زادت بالنبات، فواضح الفرق، ففي القول الأول: أن نفس الأرض تنتفخ بما تحرك في داخلها من أصول النباتات، ويكون ذلك زيادة فيها (اهتزت وربت).

وعلى كل حال هذا زيادة فيها، يعني ما يتحرك في داخلها من مبتدأ النبات قبل أن يظهر وقبل أن يصعد، وبعد أن يصعد كل هذا زيادة على أصلها، فيحصل بذلك هذا المعنى (ربت).

{وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [الحج: ٥] والزوج يعني الصنف، يقول: أي: حسن المنظر طيب الريح: هذا معنى بهيج، وهذا كقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى} [فصلت: ٣٩].

فالله -تبارك وتعالى- يستدل بذلك، أو يوجه أنظارهم إلى هذا المعنى، أو هذا الأمر الذي يشاهدونه، ويتكرر من إحياء الأرض الميتة، يستدل به على قدرته على إحياء الموتى، فالأرض ليس فيها نباتات، وليس فيها حياة، فإذا نزل المطر تحولت إلى شيء آخر، فيوجد فيها الزروع والثمار والأشجار، فترعى منها الحيوانات، وتسمع أصوات الطير، ويتحول المكان إلى شيء مبهج، ويخرج الناس للنظر إليه، والتمتع برؤيته، فهذا كله دليل على قدرته -سبحانه وتعالى-.

قال -رحمه الله-:

وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} [الحج: ٦] أي: **الخالق المدبر، الفعال لما يشاء،** {وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى} أي: **كما أحيا الأرض الميتة، وأنبت منها هذه الأنواع** {إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [**فصلت: ٣٩**] **فـ**{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢].

على كل حال هذا أحد الأدلة في القرآن على قدرته سبحانه على البعث، والدليل الذي قبله في الأطوار، وهكذا ما ذكره الله -عز وجل- من بدء الخلق في مواضع أخرى، مثل: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧] وقوله: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [الأنبياء: ١٠٤] {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الإسراء: ٥١] وهكذا في كثير من الآيات: {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} [ق: ١٥].

وقوله تعالى: {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا} [سورة الحـــج (٧)] أي: **كائنة لا شك فيها ولا مرية** {وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [سورة الحـــج (٧)] أي: **يعيدهم بعدما صاروا في قبورهم رمماً، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى:** {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} **[يس: ٧٨ - ٨٠] والآيات في هذا كثيرة.**

كقوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً} [فصلت: ٣٩] الآية التي ذكرتها آنفاً، وقوله كذلك: {وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} [الروم: ١٩] وهكذا في قوله في سورة (ق): {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق: ١١].

وقال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [الحج: ٨ - ١٠].

لما ذكر تعالى حال الضُّلال الجهال المقلّدين في قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ} [سورة الحج (٣)] ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفر والبدع، فقال: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [سورة الحج (٨)].

هذا جواب على سؤال وهو أن الله -عز وجل- قال في أول السورة: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: ٣] وهنا قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} [الحج: ٨] فهل هذا تكرار؟ هل هذا نفس الأول أو أن الله -عز وجل- ذكر في الموضع الأول صنفاً من الناس؟ وذكر في الموضع الثاني الصنف الآخر؟

كلام ابن كثير -رحمه الله- ومشى عليه جماعة من أهل العلم، وهو اختيار ابن القيم: أن الآية الأولى تتحدث عن الجهال المقلدين؛ ولهذا قال الله -عز وجل- فيها: {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: ٣] شياطين الإنس وشياطين الجن، فيقلدهم في الضلال والانحراف والكفر بالله -تبارك وتعالى.

والآية الثانية في المتبوعين في القادة والسادة الكبراء، ومن يتبعهم الناس ويقلدونهم؛ ولهذا لم يذكر هنا: {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: ٣] وإنما قال: {بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} [الحج: ٨] وذكر كِبْره فقال: {ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] قالوا: هذا مضل، هذا من الدعاة، فهذا وجه كلام ابن كثير -رحمه الله- في الفرق بين الموضعين.

ففي الأول لم يقل: {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: ٣] وثانياً: ذكر من صفته الكبر والعلو والتعاظم، فقال: {ثَانِيَ عِطْفِهِ} ثم قال: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] قالوا: هؤلاء دعاة الضلال، وهم من يتبعهم الناس.

ومن أهل العلم من يقول: الموضع الأول والموضع الثاني في موصوف واحد، ولكنه ذكر هنا بعض أوصاف هذا الصنف من الناس، وفي الموضع الآخر ذكر أوصافاً أخرى.

{يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: ٣]، فكل من لم يتبع الوحي فهو متبع للهوى والشيطان، والله -عز وجل- يقول: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} [الأنعام:١٢١] فيتبع وحي الشيطان، ويجادل في الله -عز وجل-، يجادل في وحدانيته وفي صفاته وفي أسمائه، وفي دينه، وفي وحيه بغير علم.

وهنا ذكر من أوصافه: {وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} [الحج: ٨] فالعلم هنا يحمل على العلم من حيث هو، ليس عنده علم، وإنما يجادل بالهوى والتخرص والجهل، والهدى يحمل على معناه المعروف، وهو الإرشاد، و(الكتاب المنير) يحمل على الوحي المنزل وهو القرآن، ومعنى (المنير): النيّر بما فيه من الحجج الواضحات، والبراهين الساطعات.

على كل حال بعض أهل العلم يقول: كرر صفته للزيادة هنا، وبعضهم يقول: كررها للتأكيد على ذم هذا الصنف من الناس وعيبهم، والتشنيع عليهم، مبالغة في الذم.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} [سورة الحج (٨)] أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى.

وقوله: {ثَانِيَ عِطْفِهِ} قال ابن عباس وغيره: مستكبرًا عن الحق إذا دعي إليه، وقال مجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم: {ثَانِيَ عِطْفِهِ} أي: لاوي عنقه، وهي رقبته، يعني: يعرض عما يدعى إليه من الحق ويثني رقبته استكبارًا، كقوله تعالى: {وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [الذاريات: ٣٨ ، ٣٩]، وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} [النساء: ٦١] وقال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} [المنافقون: ٥] وقال لقمان لابنه: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} [لقمان: ١٨] أي: تميله عنهم استكبارًا عليهم، وقال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا} [لقمان: ٧] الآية.

قوله -تبارك وتعالى-: {ثَانِيَ عِطْفِهِ} تفسير ابن عباس قال: مستكبر، وهذا قال به جماعة من أهل العلم، وذلك تفسير على المعنى، والقول الآخر: وهو قول من قال -كمجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم-: أي لاوي عنقه وهي رقبته، هذا تفسير على اللفظ، فهذان قولان، فمن أهل العلم من فسره بالاستكبار {ثَانِيَ عِطْفِهِ} أي مستكبر، ومنهم من فسره على اللفظ {ثَانِيَ عِطْفِهِ} يلوي رقبته، والعِطف هو جانب الإنسان من رأسه إلى خاصرته هذا كله عِطف، يقال: فلان ينظر في عِطفيه هذا هو العِطف، لكن الذي عبر به قال: لاوي رقبته مثلاً، عبر عن العطف ببعض معناه، وإلا فالأصل أن العطف هو هذا جميعاً، لكن الذي يُلوي عادةً هو الرقبة، فمن لوى رقبته يكون قد لوى عطفه، واضح؟

ولهذا جاءت الآيات الأخرى كما ذكر هنا: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} [لقمان: ١٨] فهذا يدل على الاستكبار، لووا رءوسهم هذا في عبد الله بن أبيّ؛ لما رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوة المصطلق، لما تكلم عبد الله بن أبيّ وقال: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كلبَك يأكلْك، وقال: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨] فلما قيل له وطلب منه أن يأتي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ليستغفر له لوى رأسه استكباراً، فهذا يفعله المتكبر، وهكذا المتكبر على الناس، فإنه ينظر إليهم بصفحة عنقه، لا ينظر إليهم بوجهه ويقابلهم فيه، تكبراً {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} [لقمان: ١٨] أي: لا تلوي أو لا تصرف عنهم وجهك تكبراً عليهم، فهذا كله يرجع إلى هذه الأفعال التي يفعلها الإنسان ببدنه، وهي ناشئة بسبب الكبر والتعاظم والتعالي على الناس؛ ولذلك من فسره بأنه الكِبْر فإنه فسره بالمعنى؛ لأن هذا التصرف معناه الكبر؛ لكن لو لوى الإنسان عطفه أو رأسه لأمر آخر فهذا لا يدخل في هذا.

{ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] أي: متكبر عن الحق لا ينقاد له، ولذلك فإن هذين القولين لا نحتاج معهما إلى الترجيح لما بينهما من الملازمة، فليُّ العنق هذا التصرف والفعل ناشئ عن الكبر، فمن فسره بالكبر فقد فسره بمعناه، فلا نحتاج إلى الترجيح، هذا حق وهذا حق، والله تعالى أعلم.

وقوله: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] إما أن يكون المراد بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الدنيء لنجعله ممن يضل عن سبيل الله.

لاحظ الآن الفرق بين المعنيين على هذه القراءة: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] قال: إما أن يكون المراد بها المعاندين، بمعنى: {ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] يعني أنه هو يريد الضلال، ويقصد

الضلال هذا المعاند {ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج: ٩] فيكون ذلك منه من أجل الإضلال عن سبيل الله، فتكون اللام واضحة وصريحة أنها للتعليل يفعل ذلك لا يريد الحق، ولا يقبل الحق، ولا ينقاد له، ولا يعترف به ليضل غيره عن سبيل الله.

يعني صياغة العبارة الموجودة هنا ليست العبارة التي صاغها هناك، ليست بعينها موجودة.

على كل حال إما أن يكون هذا الإنسان يفعل ذلك قصداً ويتكبر عن الحق {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة الحـــج(٩)] يريد الضلال فتكون اللام للتعليل، وإما أن ذلك يقع منه استكباراً على الحق، ولكن هذا الفعل لا يقصد به الإضلال، ولكن الله -عز وجل- قد جعل ذلك سبباً لإضلاله عن سبيل الله، فتكون اللام لام العاقبة بهذا الاعتبار، مثل: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [القصص: ٨] يعني هل التقطوه من أجل أن يكون عدواً لهم وحزناً؟ لا، هم التقطوه من أجل أن يكون ولداً بارًّا، لكن التقاطهم هذا له نتج عنه أن يكون سبب شقائهم وهلاكهم الذي حصل على يده، فهذه تسمى لام العاقبة.

تقول: فلان صحب فلاناً ليهلكه، هل صحبه ليهلكه؟ لا، لكن لتكون العاقبة الإهلاك، هذا تسمى لام العاقبة، مع أن من أهل العلم من لا يعتبر هذا، يقول: أيضاً حتى هذه هي لام التعليل، لكن هي تعلل، إما أن ذلك كتبه الله -عز وجل- عليه، وجعل ذلك سبباً في هذا، فهي لام التعليل، يعني بمعنى أنه قد يقصد هذا فهو يلوي عنقه {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة الحـــج(٩)] فاللام لام تعليل، وإما أنه لا يقصد هذا الإضلال، ولكن الله -عز وجل- جعل من شأن صنيعه هذا -ما كتب عليه من الكفر، وما شابه ذلك- سبباً وعلة للإضلال {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} كما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: {لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [الحج: ٥] اللام هذه (لكي لا يعلم) لام العاقبة، لكن من لا يقول بهذا يقول: هي لام التعليل؛ لأن الله -عز وجل- أجراه في هذه الأطوار حتى يصل إلى هذا المستوى لأجل ألا يعلم من بعد علم شيئاً.

على كل حال فهنا {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} ابن كثير -رحمه الله- أشار إلى قولين: الأول: وهو المستكبر يفعل ذلك ليضل لا يريد أن يؤمن في نفسه، ولا يريد للآخرين أن يؤمنوا، ويريد أن تكون سبيلاً معوجة، والمعنى الثاني: لا، هو يتكبر على قبول الحق لكن كتب الله -عز وجل- عليه ذلك، يعني عدم قبول الحق والاستكبار والكفر؛ ليكون ذلك سبباً ليضل، لتكون العاقبة -عاقبة هذا الصنيع- هي الإضلال عن سبيل الله، اتضح الفرق بين المعنيين؟

في قراءة أخرى: {لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} يَضِل يعني في نفسه، ويُضل يعني غيره، فهذه واضحة، فاللام للعاقبة {لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} بمعنى أنه إذا لوى عنقه، واستكبر عن الحق، وانصرف عنه فالنتيجة ما هي؟ الضلال.

{لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وهذا قراءة ابن كثير وأبي عمرو من السبعة، وعلى هذه القراءة {لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} من قال: إن هذه في الدعاة، واحتج بهذه الجزئية {لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} فعلى هذه القراءة لا يكون له فيها مستمسك.

ثم قال تعالى: {لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} [الحج: ٩] وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقّاه الله المذلة في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر هَمّه ومبلغ علمه.

فالله -عز وجل- جازاه بعكس ما قصده، فهو يترفع عن الحق لا يريد أن يكون تابعاً لغيره في الحق، ويريد أن يكون مقدماً ورأساً وإماماً في الضلال -نسأل الله العافية-، ماذا كانت النتيجة؟ {لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} [الحج: ٩] الخزي يعني: العار والفضيحة والمذلة والهوان، هذا الخزي، فحصل له عكس مقصوده، بدلاً من أن يشرف بالحق والاتّباع صار كما نقول: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد: ١] هل هناك خزي أكثر من هذا؟ {لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} [الحج: ٩] لكن أين أبو لهب من العباس أو من حمزة -رضي الله تعالى عنهما-؟ أو من عمر أو من أبي بكر -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-؟ هؤلاء رضوا باتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- فحصل لهم الشرف والرفعة في الدنيا والآخرة، وأما هذا الذي تكبر فـ{لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} [الحج: ٩] وما ينتظره في الآخرة فهو أعظم.

وراجعوا كلام المعلمي -رحمه الله- في كتاب التنكيل لما تكلم عن أسباب الإعراض عن الحق، ومداخل الهوى في ذلك، وذكر أن منهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة، وذكر صنفاً آخر: من يكون له أتباع ويكون من رءوس الباطل، ويأتيه من الأموال والخدمة وما إلى ذلك، فإذا عُرض عليه الحق أبى واستكبر؛ لأن هذه الرئاسة ستذهب، وهذه الأموال ستذهب، وهذا التعظيم وهذه القيادة والريادة ستذهب، ثم بعد ذلك يصير تابعاً لغيره.

ثم بعد ذلك أيضاً يحصل له في نفسه ما يحصل؛ لأن معنى ذلك أن هذا المجد الذي أقامه كله على باطل، وهو وهم زائف، فهو لا يريد هذا، كذلك إنّ ما كان يدعو إليه طول المدة الماضية ويقرره كان باطلاً، وهكذا ما عليه قومه وعشيرته وجماعته كان باطلاً، فيبدأ من الصفر، من جديد، ثم هذا الذي قد جاء بالحق ربما يتعاظم ويرى أنه أعظم منه، وأكبر منه، وأجلّ منه، ثم بعد ذلك يعترف له بالحق وينقاد، فتأبى عليه نفسه ويستكبر.

قوله تعالى: {وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ} [سورة الحج (٩-١٠)] أي: **يقال له هذا تقريعًا وتوبيخاً**

{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ} [الحج: ١٠] أضاف العمل إلى اليد مع أن أعمال الكفار أعظمها ما هو؟ الكفر وهو متعلق بالقلب، وكذلك ما يحصل منهم باللسان من الكفر والمعاصي، وهكذا في سائر الجوارح، فأضافه إلى اليد على طريقة العرب فإنهم يضيفون مقارفات الإنسان إلى يده، يقال: هذا ما جنته يداك، إنسان خسر في تجارة، إنسان لم ينجح في امتحان، إنسان فشل في جانب من جوانب الحياة، وقع في مصيبة، وقع في مشكلة يقال: هذا ما جنته يداك، قد يكون لم يجنه بيده، وإنما وقع له ذلك بسبب الكسل، أو وقع له ذلك بسبب لسانه، هذا ما جنته يداك (يداكَ أوْكَتا وفُوكَ نَفَخ) فهم يضيفون أعمال الإنسان إلى اليد {كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشورى: ٣٠] (ما قدمت أيديكم) لأن أكثر مزاولات الإنسان إنما تكون بيده.

{وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [سورة الحج (١٠)] **كقوله تعالى**: {خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ} [**الدخان**: ٤٧ - ٥٠].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [الحج: ١٠] ظلّام: صيغة مبالغة، يعني كثير الظلم، ونفي المبالغة لا ينفي أصل الصفة (فعل) فهل معنى ذلك أنه -سبحانه وتعالى وتقدس- يقع منه شيء من الظلم القليل؟ الجواب: لا، فمثل هذا يجيب عنه العلماء بأجوبة، فبعضهم يقول: المبالغة بناء على كثرة العباد، فالعباد كثير، فلو وقعت مظلمة لكل واحد فقط -لو صار- فهذا كثير، وبعضهم يقول: إن الكامل من كل وجه لو وقع منه أدنى ظلم فهو كبير، كما قيل:

كَفُوفَةِ الظُّفرِ تَخفَى مِن حقارتِها *** ومثلُها في سوادِ العينِ مشهورُ

كفُوفةِ الظُّفرِ لو وجدت في سواد العين ما تَخفى، يتأذى بها الإنسان غاية الأذية.

وخطأُ الجاهلِ المغمورِ مغمورٌ *** وخطأُ العالمِ المشهورِ مشهورٌ

ولذلك تجد الناس يدققون في أخطاء الناس من أهل الفضل والدين والعلم وكذا، يقعون على الزلة، ولربما ما هو بخطأ، ربما يقول: رأيته يصلي ولم يرفع يده حذو منكبه، أو لم يضع مثلاً يده كما ينبغي اليمنى على اليسرى، أو نحو ذلك في أصبعه، وأشياء يسيرة لربما ينظر إليها الناس ويعدونها من العيوب أو من الأخطاء أو من التقصير، لكن ما ينظرون إلى عيوب الجاهل المغمور الذي لربما كله عيوب، فالمرآة النظيفة المرآة الصقيلة يظهر فيها أدنى شيء، والثوب النظيف الأبيض يظهر فيه أدنى شيء، أما الثوب الذي كله زيوت وشحوم وكله ملوث ما يظهر فيه شيء، ما تقول له: نزلت عليك نقطة حبر، ثوب أصحاب الحِرف أو أصحاب الورش كله أسود، لو نزلت عليه نقطة حبر ماذا يسوي؟

فالحاصل أن من أهل العلم من أجاب بهذا الجواب، أدنى ظلم من الكامل يعتبر كثيراً.

وبعضهم يقول: هذا لقبح الظلم وشناعته، قال الله -عز وجل-: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦].

على كل حال الآيات في نفي الظلم عن الله -عز وجل- كثيرة {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا} [يونس: ٤٤] فـ "شيئاً" نكرة في سياق النفي فتعم كل ظلم صغير وكبير، وتوضح هذا المعنى الذي قد يستشكله بعضهم باعتبار مفهوم المخالفة مع استعمال صيغة المبالغة: {لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [آل عمران: ١٨٢] واضح وجه السؤال والجواب عنه؟ والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٥)

من قوله تعالى"ومن الناس" الآية١١ إلى قوله تعالى"إن الله على كل شئ شهيد" الآية١٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما {عَلَى حَرْفٍ}: على شك، وقال غيرهم: على طرف، ومنه حرف الجبل أي طرفه، أي دخل في الدين على طرف فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر، وروى البخاري عن ابن عباس قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ}: قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء.

قال العوفي عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قدم المدينة وهي أرض وبيئة، فإن صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسناً، وولدت امرأته غلاماً رضي به واطمأن إليه، وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً، {وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ} -والفتنة البلاء- أي: وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبتَ منذ كنت على دينك هذا إلا شراً، وذلك الفتنة وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية، وقال مجاهد في قوله: {انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ}: أي ارتد كافراً.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ} قال: يعني على شك، هذا نقله عن مجاهد وقتادة، وقال غيرهم: على طرف، ومنه حرف الجبل أي: طرفه. وهذه المعاني التي ذكرها غير متنافية -والله تعالى أعلم-، فمن فسر الحرف بأنه الطرف فقد فسره بالأصل والمعنى في اللغة؛ فإن حرف الشيء هو طرفه، وحرف الجبل يعني طرفه، وحرف البناء، وحرف الخبز، ونحو ذلك أي: طرفه، ومن فسره بالشك فقد رجع إلى هذا المعنى؛ لأن الذي يعبد الله -عز وجل- على شيء من التضعضع والريبة والشك، فإنه غير مستقر كالذي يكون على طرف الجبل مثلاً، فإنه لا يكون مستقراً كالذي يكون على الأرض مثلاً، فهذا وجه الارتباط بين أصل المعنى في كلام العرب، وبين تفسير من فسره بالشك، فإن هذا كله يرجع إلى معنى واحد بهذا الاعتبار، فقولك: إنسان غير مستقر وغير واثق معناه: أنه على شك، فهو بحسب ما يعرض له، متضعضع إن جاءت الأمور على ما يكره حركت عنده دواعي القلق والشك والريبة، فصار متلجلجاً متردداً، وعلى كل حال فهذه المعاني التي ذكرت غير متنافية، {يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ} يعني هذا بخلاف حال أهل اليقين فإن أهل اليقين إذا جاءتهم الشدائد والمصاعب والمصائب فإن ذلك يزيد من رسوخهم كما قال الله -عز وجل- في قصة الأحزاب لما ذكر الموقفَين -موقفَ المنافقين وموقفَ أهل الإيمان- قال في موقف أهل الإيمان: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا

إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [سورة الأحزاب: (٢٢)] المقصود -على أرجح أقوال المفسرين والله تعالى أعلم بقولهم-: بـــ{هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} الإشارة إلى البلاء الذي يعقبه النصر والتمكين؛ لأن الله -تبارك وتعالى- قال: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء} [سورة البقرة: (٢١٤)] إلى غير ذلك من الآيات، فوعَدَ بالبلاء {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} [سورة آل عمران: (١٨٦)] فلما رأوا الأحزابَ قد أحاطوا بالمدينة تذكروا هذا الوعد فقالوا {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} فهو الابتلاء الذي يعقبه التمكين، ولا يكون التمكين إلا بعد الابتلاء {وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} بينما تجد أهل النفاق لما رأوا الأحزاب ماذا قالوا؟ قالوا: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [سورة الأحزاب: (١٢)] فشتان ما بين هذا وهذا، وعلى كل حال هذه الآية فيها عبرة عظيمة؛ فهي تبين أحوال الناس ومراتبهم، وبها يعرف الإيمان الثابت الراسخ، وبها يعرف الإيمان الضعيف الهش، وهذه الآية تدل المسلم على أمر: وهو أن البلاء لابد أن يحصل كما سبق في الآيات التي أشرت إليها، ولكن ينبغي للمؤمن أن يطلب من الله العافية؛ فإن العافية لا يعدلها شيء، والنصوص دلت على أن الإنسان لا يطلب البلاء، بل يطلب من ربه العافية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا تتمنوا لقاء العدو))[١] وهناك نماذج وأمثلة في هذا المعنى في القرآن وغيره، والله -عز وجل- قال عن أولائك الذين طلبوا أحب الأعمال إلى الله -عز وجل- فلما أخبروا أنه الجهاد تثاقلت نفوسهم، فأنزل الله -عز وجل- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [سورة الصف: (٢-٣)] وأولائك الذين طلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله في سورة البقرة {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} [سورة البقرة: (٢٤٦)] فهذه فيها عبرة، فتساقطوا ولم يبق إلا القلة، ولذا فالإنسان لا يطلب البلاء بل يسأل ربه العافية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول ((لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه)) قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: ((يتعرض من البلاء لما لا يطيق))[٢] فلا يدخل الإنسان في أمور من حسبة ونحوها، ثم بعد ذلك لا يطيق فيبتلى وينكسر، وقد يفتضح، فيطلب من ربه العافية، ولا يدخل إلا في الأمور التي يطيقها {{لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [سورة البقرة: (٢٨٦)] فرحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

وقوله: {خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ} [سورة الحج: (١١)] أي: فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة، ولهذا قال تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [سورة الحج: (١١)] أي: هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة.

المبين: يعني البيّن الواضح الذي لا خفاء فيه.

---

[١] - رواه البخاري: برقم: (٦٨١٠) كتاب التمني -باب كراهية تمني لقاء العدو، ومسلم برقم: (٤٦٤٠) كتاب الجهـــاد والـــسير –باب كراهية تمني لقاء العدو.

[٢] - رواه الترمذي: (٢٢٥٤) كتاب الفتن –باب: (٦٧) وصححه الألباني.

وقوله تعالى: {يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ} [سورة الحج: (١٢)] أي من الأصنام والأنداد يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها وهي لا تنفعه ولا تضره {ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ}.

كما قال الله -عز وجل-: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} [سورة يونس: (١٨)] وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ} [سورة الشعراء: (٧٢-٧٣)] فهذه من حيث هي لا تملك ضراً ولا نفعاً، والكفار الذين قالوا لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وخوفوه من آلهتهم أن تصيبه بشيء، فرد عليهم وقال: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة الأنعام: (٨١)] فهذه من حيث هي لا تضر ولا تنفع، والآية الأخرى قال: {لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ} [سورة الحج: (١٣)] فهي تضر عابديها باعتبارٍ آخر: أنها توردهم المهالك، فيدخلون بسبب ذلك النار، هذا وجه الضرر من حيث هي فهي جمادات لا تنفع ولا تضر.

في الأولى: {مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ} باعتبار أن هذا العابد لماذا يعبدها؟ رغبةً ورهبةً ورجاء النفع، ومن أجل دفع الضر عنه يعتقد أن هذه الأصنام لو ما عبدها يمكن أن تهلكه، تخسر تجارته يمكن أن تقع عليه كارثة، يموت أولاده... فهي لا تضر ولا تنفع بل عبادتها تورث الضرر وذلك أن من عبدها دخل معها النار ووكِل إليها وخذل في الوقت الذي يكون أحوج ما يكون فيه إلى ألطاف الله -عز وجل- ورحماته، وفي قصة عكرمة في إسلامه -رضي الله تعالى عنه- لما ركب البحر وماج بهم البحر فقال قائد السفينة: إنه لا ينجيكم من هذه الكروب إلا الله، نهاهم أن يدعوا آلهتهم، فقال: إذا كان لا ينجي من ظلمات البحر إلا الله فإنه لا ينجي أيضاً... القصة معروفة.

قوله تعالى: {يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ} [سورة الحج: (١٣)] أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن.

وقوله: {لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} قال مجاهد: يعني الوثن، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى، يعني وليا وناصراً، ولبئس العشير: وهو المخالط والمعاشر.

على كل حال في هذه الآية قوله {يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ} الله -عز وجل- قال {يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ} بعض العلماء يقول: هذه في الأصنام؛ من يعبد الأصنام فهي لا تضره ولا تنفعه، والثانية: {لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ} هذه في المعبودات مثل فرعون الذي كان يقول {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات: (٢٤)] فلربما يقدسونه ويتقربون إليه ويعبدونه من أجل تحصيل بعض المنافع ودفع المخاوف، فالله -عز وجل- يخبر أن هؤلاء أقرب في الضر إليه من النفع، هكذا ذكر بعض أهل العلم في الفرق بين الآيتين، ويمكن أن يقال غير هذا، أما قوله -تبارك وتعالى-: {ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} فيعني البعيد عن الحق، وبعضهم كابن جرير أو غيره يفسره بالطويل، أي ضلال طويل لا نهاية له.

قال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [سورة الحج: (١٤)] لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات فأورثهم ذلك سكنى

الدرجات العاليات في روضات الجنات، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولائك وهدى هؤلاء قال: {إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}.

مأخذ من قال بأن الآية الأولى: {يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ} في غير العقلاء -في الأصنام-، قال: إنه جاء بـــ"ما" التي تكون لغير العاقل، كالجمادات.

والثانية: {يَدْعُو لَمَن} و"من" تستعمل للعاقل، فهذا مأخذ هذا القول، ثم قال: { يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} قال مجاهد يعني الوثن، يعني بئس هذا المخالط الذي دعاه من دون الله مولى: يعني ولياً ونصيراً {وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} يعني المخالط، هذا تفسير جيد وقريب لهذه الآية، والله تعالى أعلم، وبعض أهل العلم كابن جرير يقول: {لَبِئْسَ الْمَوْلَى} المولى: ابن العم، ويطلق على الناصر؛ لأن الإنسان يستنصر ببني عمه {وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} يعني المعاشر والمخالط، فابن جرير لا يحمل المولى والعشير على الوثن، فعنده {لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} يعني هذا العابد، لبئس ابن العم والمعاشر من يفعل هذا الفعل؛ يعبد غير الله -عز وجل- من الأصنام والأوثان التي لا تضره ولا تنفعه، فهو ذم للعابدين، هذا قول ابن جرير، والقول الأول: أنها ذم لهذه المعبودات، وأظن أن حملها على المعبودات كأنه أقرب إلى ظاهر القرآن، وهذا الذي قال به مجاهد، وقال به جماعة من المتأخرين، وممن اختار هذا القول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله.

{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...} الكلام فيها واضح، فهو سبحانه لما ذكر حال الكفار ذكر ما يقابله -على طريقة القرآن: الترغيب والترهيب- فذكر الأبرار ومنازلهم، {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا..} تجري من تحت قصورها وأشجارها.

قال سبحانه: {مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ * وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ} [سورة الحج: (١٥-١٦)]

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا والآخرة، {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ} أي بحبل {إِلَى السَّمَاءِ} أي سماء بيته {ثُمّ لْيَقْطَعْ} يقول: ثم ليختنق به، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم، فالمعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [سورة غافر: (٥١)]**، ولهذا قال: {فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} قال السدي: يعني من شأن محمد -صلى الله عليه وسلم-. وقال عطاء الخرساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ؟.**

قوله -تبارك وتعالى-: {مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ} النصر هنا فسره أكثر أهل العلم على ظاهره، وهذا الذي نقله عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن لن ينصر الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا والآخرة {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ} السبب: كل ما يتوصل به إلى الشيء يقال له سبب، ولهذا يقال: الحبل سبب؛ لأنه يتوصل به إلى الماء في البئر، ولا يصل الإنسان إليها بيده، وإنما يضع الدلاء بالحبال ويصل بها إلى الماء فيقال لها: سبب، والطرق الموصلة إلى السماء يقال لها أسباب، وفرعون حينما أمر

وزيره ببناء الصرح قال: {لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى} [سورة غافر: (٣٦-٣٧)] فالسبب يطلق على كل ما يتوصل به إلى غيره.

{فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ} والسماء تطلق على مطلق العلو، فكل ما علاك فهو سماء، فهذا السقف يقال له: سماء، والسحاب يقال له: سماء، والارتفاع عموماً يقال له: سماء، والسقف المعروف {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا} [سورة الأنبياء: (٣٢)] يقال له: سماء، وقول ابن عباس يعني أنه السقف فيربط حبلا في السقف ويشنق نفسه، من كان يظن أن الله لا ينصر نبيه -صلى الله عليه وسلم- فلينتحر، هذا اختصار المعنى: يشنق نفسه، فإن الله ناصر نبيه، وهذا قد لا يجد شفاءً إلا في الخلاص من هذه الحياة.

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافياً *** وحسْبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا

ومن أهل العلم من قال: إن السماء هي السماء المعروفة، وفسر النصر بالنصر المعروف فالمعنى: من كان يظن أن الله لا ينصر نبيه -صلى الله عليه وسلم- فليتوصل إلى أسباب السماوات ليقطع النصر من مصدره، من فوقه من السماء.

فكأنه أحاله إلى أمرٍ مستحيل، يعني لا أن يقتل نفسه ويشنق نفسه وينتحر، لا، إنما يصل إلى مصدر النصر ويقطعه.

والمعنى الآخر الذي مشى عليه ابن جرير، وهو أنه فسر النصر بالرزق، وجاء بشواهد من كلام العرب، وهذا معنى صحيح، النصر قد يطلق على الرزق، لكن هل هذا هو المعنى المتبادر؟ الجواب: لا، ولهذا فإن القرآن في الأصل يفسر بالمعنى المتبادر الظاهر دون المعنى قليل الاستعمال، وهذه قضية دائماً يقررها ابن جرير -رحمه الله-، فإذا أجريناها على هذا فُسِّر النصر بالنصر المعروف وليس بالرزق.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: من كان يظن أن الله لا يرزق نبيه -صلى الله عليه وسلم- ومن معه من أهل الإيمان، وتعجل رزق الله -عز وجل- أو استبطأه فليربط حبلاً في سقف بيته ويشنق نفسه، وينظر هل فعله هذا سيغير من قدر الله شيئا؟.

وأرجح هذه المعاني -والله أعلم- أن النصر يحمل على ظاهره، وأن السماء المقصود بها السقف، والله أعلم.

قوله: {ثُمَّ لْيَقْطَعْ} يقطع ماذا؟ يقطع مجاري النفس؛ فإن الإنسان إذا خنق نفسه سُدت مجاري النفس فيموت، إضافة إلى قطع مجاري الدم بعد الدماغ.

وقوله: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ} أي القرآن {آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} أي واضحات في لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس، {وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ} أي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك {لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} أما هو فلحكمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [سورة الحج: (١٧)].

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم من اليهود والصابئين -وقد قدمنا في سورة البقرة التعريف بهم واختلاف الناس فيهم- والنصارى والمجوس والذين أشركوا فعبدوا مع الله

غيره، فإنه تعالى: {يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ} ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم وما تُكنّ ضمائرهم.

في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ} هذه الآية في الفصل بين هذه الطوائف، والصابئون: العلماء اختلفوا فيهم كثيراً فمنهم من قال: هم طائفة من النصارى؛ لأن الله -عز وجل- في بعض المواضع -من غير ذكر المجوس- وعَدَ المؤمن منهم بالجنة، وبعضهم قال: هم ناس على الفطرة، لم يكونوا من أهل الإشراك، ومنهم من قال: هم طائفة معروفة تسمى بالصابئين يعبدون الكواكب وهم الذين حصلت المناظرة بينهم وبين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، ولا تزال توجد طائفة إلى اليوم في العراق يقال لهم: الصابئة، فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن كلمة الصابئين تطلق على أقوام شتى، فتطلق على أناس على الفطرة يقال لهم هذا، وتطلق على من يعبدون الكواكب، ولربما أطلقت على طائفة من النصارى، والعرب كانوا يقولون لمن دخل في الإسلام: صبأ، لماذا يقولون: صبأ؟ ريما يكون ذلك باعتبار أنه عبد الله وحده، وكانوا يعرفون قوماً يقال لهم: الصابئة، يعبدون الله وحده، قد يكون ذكره بعض أهل العلم.

وعلى كل حال هذه الآية في الحكم بين الطوائف، وذكر معهم المجوس، لهذا لم يعِد بالجنة، وهذا الحكم بعض أهل العلم يقول: هو الفصل بينهم؛ ليعرف المحق من المبطل، وبعضهم يرى أن هذا الحكم هو بإدخال هؤلاء الجنة -يعني أهل الإيمان- وإدخال الكفار باختلاف طوائفهم النار، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وفي هذه الآية قدم ذكر الصابئين على النصارى، وفي آية البقرة قدم النصارى على الصابئين، فمن أهل العلم من يقول: إن هؤلاء أهل الكتاب -يعني النصارى- فقدمهم هناك، وهنا قدمهم باعتبار الصابئين أسبق من الناحية التاريخية، -والله تعالى أعلم-، والتقديم والتأخير لا يكون على قاعدة مطردة في القرآن، فأحياناً بحسب تسلسل التاريخ وأحياناً بحسب الأفضل، قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [سورة النساء: (١٦٣)] وقال: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} [سورة الأحزاب: (٧)] فذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أولاً، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٦)

من قوله تعالى"ألم تر أن الله" الآية١٨ إلى قوله تعالى"وذوقوا عذاب الحريق" الآية ٢٢

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

قال –تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [سورة الحـــج: (١٨)].

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} وقال ههنا: {أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأرْضِ} أي من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ} [سورة الإسراء: (٤٤)] وقوله: {وَالشّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنّجُومُ} إنما ذكر هذه على التنصيص، لأنها قد عُبدت من دون الله فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ} [سورة فصلت: (٣٧)] الآية، وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتدري أين تذهب هذه الشمس؟)) قلت: الله ورسوله أعلم. قال: ((فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر، فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت))[١].

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما- قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إني رأيتُني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، قال ابن عباس: فقرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: سجدة ثم سجد، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة[٢]. رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

وقوله: {وَالدّوَآبّ} أي: الحيوانات كلها، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر، فرب مركوبة خير وأكثر ذكراً لله تعالى من راكبها[٣].

---

[١] - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان (٢٧٠٠/٦)، برقم: (٦٩٨٨)، ومسلم، كتاب الإيمـــان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٣٨/١)، برقم: (١٥٩).

[٢] - رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما يقول في سجود القرآن (٤٨٩/٥)، بـــرقم: (٣٤٢٤)، وحسنه الألباني.

[٣] - رواه الإمام أحمد (٤٤٠/٣)، برقم: (١٥٦٨٤)، وإسناده ضعيف.

وقوله: {وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ} أي: يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك {وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ} أي: ممن امتنع وأبى واستكبر.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ} [سورة الحج: (١٨)] هذا الاستفهام استفهام تقريري ومعناه: ألم تعلم؟، وهذا السجود من أهل العلم من يفسره بمعناه اللغوي، ومعنى السجود في لغة العرب: الخضوع، بمعنى أن كل شيء يخضع لعظمة ربه وخالقه -جل جلاله.

ومن أهل العلم من يفسر ذلك بسجود الظلال وهو الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- ويمكن لمن قال بهذا القول أن يحتج بقوله -تبارك وتعالى-: {يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ} [سورة النحل: (٤٨)].

ومن أهل العلم من يقول وهو ظاهر كلام ابن كثير -رحمه الله- أن السجود يفسر بمعناه الشرعي، وأصل السجود في الشرع هو وضع الجبهة على الأرض، وقد يطلق على الانحناء والركوع، كما قال الله -عز وجل- {ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا} [سورة النساء: (١٥٤)] وليس معنى هذه الآية أنهم يدخلون وجباههم على الأرض، وإنما يدخل بهيئة الركوع تقديساً وتعظيماً وشكراً لله -تبارك وتعالى-، وهذا تفسير {يَسْجُدُ}.

والإنسان المؤمن يسجد طوعاً وغير المؤمن يسجد كرهاً بمعنى أنه خاضع لله -عز وجل- يدبره ويصرفه كيف شاء، وبعضهم يفسر ذلك بسجود المنافق، لكن هذا التفسير لا يكفي؛ لأن غير المنافقين من الكفار لا يسجدون، وكذلك أيضاً سجود الظلال فغير الآدميين يسجدون لله -تبارك وتعالى- سجود اختيار لكن هذا السجود كل شيء بحسبه، وقد قال -تبارك وتعالى-: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [سورة الجمعة: (١)].

وتعرفون ما جاء في تسبيح الطعام[٤]، وقد جاء عن جابر بن سمرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن))[٥].

وتعرفون حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم تركه إلى المنبر فحن كحنين العشار إلى ولدها[٦].

والله -عز وجل- قال: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} [سورة سبأ: (١٠)] يعني مع داود -صلى الله عليه وسلم- أي: رددي معه ورجعي معه، والطير والهدهد كلّم سليمان وأخبره عمن يعبد الشمس من دون الله، قال: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ}

---

[٤] - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (١٩٤/٤)، برقم: (٣٥٧٩)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا (٢١٨٠/٤)، برقم: (٢٨٣٥).

[٥] - رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (١٧٨٢/٤)، برقم: (٢٢٧٧).

[٦] - رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر (٣١١/١)، برقم: (٨٧٦).

[سورة النمل: (٢٥)] فهذه الأشياء التي تدرك إدراكاً يليق بها فيحمل السجود على معناه الشرعي؛ لأن الأصل أن الألفاظ الشرعية تحمل على المعاني الشرعية، فإن لم يوجد فالمعنى العرفي، فإن لم فاللغوي، فلا

نبدأ به في التفسير.

فنؤمن بقول النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((أتدري أين تذهب الشمس؟))، ثم أخبر أنها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأمر.

وليس لأحد أن يقول بأن الشمس تغيب عن قوم وتطلع على آخرين، أو متى تذهب؟ فلا نعارض الوحي بعقولنا، فالوحي هو المتبوع وهو المقدم.

وما عجز عن إدراكه عقل الإنسان فإنه يقول آمنا به، ويسلم لله -عز وجل-، وهذا الذي جاء في حديث ابن عباس -رضي الله عنه- لما رأى في المنام شجرة تسجد وتقول: "اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود" وهذه رؤيا حق.

وهكذا الدواب تسجد لله -تبارك وتعالى- والحديث الذي ذكره هنا: رب مركوبة خير وأكثر ذكراً لله تعالى من راكبها، وهذا القدر في الحديث لا يصح، وهو من رواية ابن لهيعة وفيه كلام، والله أعلم.

قوله: **{وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}** [سورة الحج: (١٨)]، وهذه الآية تدل على أن من حُرم السجود والصلاة، فإن الله –تبارك وتعالى– قد أهانه، ولا يمكن أن تحصل له الكرامة، فمن أراد الذل والهوان والمهانة فليترك السجود لله -عز وجل.

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار))[٧] رواه مسلم.

هذا الحديث يدل على فضل السجود عند قراءة السجدة، ومن المعلوم أن السجود عند قراءة السجدة ليس بواجب كما هو معروف، ولكن له فضل ومزية فإن استطاع الإنسان ألا يتركه فهو خير له، والشيطان يتحسر حينما يراه يسجد.

وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر –رضي الله عنه- قال: قلت يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: ((نعم، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما))[٨] ورواه أبو داود والترمذي

---

[٧] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (١/ ٨٧) برقم: (٨١).

[٨] - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب السجود، وكم سجدة في القرآن (٢/ ٥٨)، برقم: (١٤٠٢)، ورواه الترمذي، أبواب السفر، باب ما جاء في السجدة في الحج (٢/ ٤٧٠)، برقم: (٥٧٨)، وأحمد (٤/ ١٥١)، برقم: (١٧٤٠٢)، واللفظ لأحمد، وضعفه الألباني.

على كل حال هذا الحديث لا يصح، فيه ضعف، وقد وردت بعض الروايات عن الصحابة –رضوان الله عليهم– تدل على أن سورة الحج فضلت بسجدتين[٩]، بمعنى أن السجدتين في سورة الحج ثابتة، دون أن يقيد ذلك بأن من لم يسجد فلا يقرأهما، فلا يصح بهذا شيء، بل للإنسان أن يقرأ ولو لم يسجد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- سجد وترك.

وقد قال أبو داود في المراسيل عن خالد بن معدان -رحمه الله- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((فضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين)) ثم قال أبو داود: وقد أسند هذا، يعني من غير هذا الوجه ولا يصح[١٠].

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي عن أبي الجهم أن عمر سجد سجدتين في الحج وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجدتين.

وروى أبو داود وابن ماجه عن عمرو بن العاص أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان، فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً[١١].

لا يخلو هذا الحديث من ضعف، وعدد السجدات في القرآن فيه خلاف بين أهل العلم.

قوله: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [سورة الحـــج: (١٩-٢٢)].

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر: أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ} نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر[١٢]. لفظ البخاري عند تفسيرها.

ثم روى البخاري عن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ} قال: هم الذين بارزوا يوم بدر عليٌّ، وحمزة، وعبيدة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة[١٣]. انفرد به البخاري.

قوله -تبارك وتعالى-: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ}، ذكر الله -تبارك وتعالى- في الآيات السابقة الذين يجادلون في الله بغير علم، وذكر الطوائف الذين آمنوا، والذين هادوا، والصابئين، والنصارى،

---

٩ - السنن الكبرى (٢/ ٣١٧)، برقم: (٣٥٤٨).

١٠ - المراسيل لأبي داود (٧٢/١)، برقم: (٧٨).

١١ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب السجود، وكم سجدة في القرآن (٢/ ٥٨)، برقم: (١٤٠١)، وابن ماجـــه، كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب عدد سجود القرآن (٣٣٥/١)، برقم: (١٠٥٧)، وضعفه الألباني.

١٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحج (١٧٦٨/٤)، برقم: (٤٤٦٦).

١٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحج (١٧٦٩/٤)، برقم: (٤٤٦٧).

والمجوس، وذكر أهل الإيمان، وأهل الكفر، ثم قال: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ} وذكر من يسجد، ومن لا يسجد فقوله: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ} هذا يمكن أن يرتبط في المعنى مع ما قبله، يعني فريق أهل الإيمان، وأهل الكفر {اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ} اختصموا في وحدانيته -سبحانه وتعالى-، وطاعته، وعبادته، فأهل الإيمان عبدوا ربهم -تبارك وتعالى- ووحدوه، وأهل الكفر عبدوا غيره وجعلوا له الأنداد والنظراء.

وما جاء في هذه الآية من الآثار أنها نزلت في حمزة وصاحبيه، وهكذا قول علي -رضي الله عنه- فهذه العبارة ليست من العبارات الصريحة في سبب النزول، ولو كان هذا من قبيل الصريح في سبب النزول فإن العبرة بعموم اللفظ والمعنى لا بخصوص السبب، فالآية تشمل الفريقين عموماً، أهل الإيمان وأهل الكفر في كل زمان ومكان.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث، وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية: هم المؤمنون والكافرون.

وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون. يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله -عز وجل-، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن.

هذا الأسلوب في الجمع بين الأقوال في الترجيح هي مزية هذا التفسير، ولذلك يتميز تفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير وأضواء البيان، وكلام ابن القيم، وكلام شيخ الإسلام في التفسير بالتحقيق وحسن النظر في الروايات، والجمع بين الأقوال والتأصيل والتقعيد.

ولهذا قال {فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ}، أي: فصلت لهم مقطعات من النار، قال سعيد بن جبير: من نحاس، وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي.

يقول الله -تبارك وتعالى-: {لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [سورة الزمر: (١٦)]، {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [سورة الأعراف: (٤١)]، والمهاد مثل الفراش، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب))[١٤]، والقطران معروف شديد الاشتعال.

{يُصَبّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ}، أي: إذا صب على رءوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة.

وروى ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان))[١٥] ورواه الترمذي وقال حسن صحيح.

---

[١٤] - رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب التشديد فى النياح (٤٥/٣)، برقم: (٢٢٠٣).

[١٥] - رواه الترمذي، صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (٧٠٥/٤)، برقم: (٢٥٨٢)، وضعفه الألباني.

هذا الحديث فيه ضعف، والله -تبارك وتعالى- أخبر أن هذا الذي يصب على رءوسهم يصهر به ما في بطونهم والجلود، وصهر ما في البطون واضح، أما الجلود فبعض أهل العلم يقول: يصهر به ما في بطونهم ويقدر للجلود فعلاً آخر، فيقول: ويحرق الجلود، أو ويحرق به الجلود، أو نحو ذلك، فحذف الفعل واكتفي بفعل لأحدهم، والآخر مقدر مثل قولهم:

علفتُها تبنًا وماءً باردًا، يعني: علفتُها تبناً وسقيتُها ماءً باردًا.

فالجلود لا تصهر، بل تحرق، ومن أهل العلم من يقول: لا حاجة لهذا فإن النار تصهر البطون والجلود، ونار جهنم قد زادت على هذه النار بسبعين جزءاً فلماذا لا تصهر الجلود؟، وهذا هو الأولى أن يقال حملاً للقرآن على ظاهره؛ لأن الأصل عدم التقدير، ومهما استطعنا أن نبقي اللفظ على حاله، وأن يحمل على وجه صحيح من غير الحاجة إلى دعوة تقدير فهذا هو الأصل.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، ثم روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن السري قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكرّهه، قال: فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: {يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ}.

مثل هذه الروايات لا تثبت، ولا تصح، ومثل هذا لا يقال من جهة الراوي، لكنه يحتاج إلى إسناد يعتمد عليه.

قال ابن عباس في قوله: {وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ} قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله فيَدعُون بالثبور.

يدعون بالثبور: يقولون واثبوراه {لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا} [سورة الفرقان: (١٤)]، وقوله: {وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ} قطعة من الحديد مثل المحجن معكوفة الطرف تضرب بها رءوس أهل النار، والعياذ بالله.

وقوله: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا} [سورة الحـــج: (٢٢)].

قوله: {مِنْ غَمٍّ} يعني: بسبب غم أو لأجل الغم، {أُعِيدُوا فِيهَا} يضربون بهذه المقامع، يعني: لا يُتركون يحترقون في النار فقط، بل يضربون بالمقامع، ويسحبون على الوجوه في النار، وقد قال -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} [سورة القمر: (٤٨)]، ويصب عليهم من الحميم، ويأكلون الزقوم، -نسأل الله العافية-، وأمور هائلة، لو كان يلقي في النار فقط لكان هذا كافياً.

وإذا تأملت لو انطفأت الكهرباء ساعة، وهم في حر لذابوا، وفي سنة من السنوات قبل خمسين سنة في الحج مات خلائق بسبب الشمس والحر، حتى إن بعض الناس صار يذهب يبحث عن مكان يجلس فيه يأتيه هواء، ويصعدون الجبال فلما نزلوا وجدوا الموتى أعداداً كبيرة جداً على قلة الناس في ذلك الوقت في الحج، فكيف لو احترقوا أو نحو ذلك، ولو نظرت إلى المستشفيات -نسأل الله العافية- ودخلت قسم الحريق فتجد شيئاً هائلاً، الأطباء يقولون: فعلت به النار هذا الفعل، ثوانٍ فقط، فكيف بنار جهنم، يبقى فيها لا يموت فيها ولا يحيا، نسأل الله العافية، أعاذنا الله وإياكم وجميع المسلمين.

قال الأعمش عن أبي ظبيان عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا} [سورة الحـــج: (٢٢)].

وقوله: {وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ} كقوله: {وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ} [سورة السجدة: (٢٠)] ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً.

يقال لهم: {وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ} وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ}. والله أعلم، وصلى الله على نبيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٧)

من قوله تعالى"كلما أرادوا" الآية٢٢ إلى قوله تعالى"عذاب أليم" الآية٢٥

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

قال المفسر رحمه الله تعالى: **لما أخبر تعالى عن حال أهل النار -عياذًا بالله من حالهم- وما هم فيه من العذاب والنَّكال والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة -نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة- فقال: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}** [سورة الحج: (٢٣)] **أي: تتخرَّق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاءوا وأين أرادوا، {يُحَلَّوْنَ فِيهَا} من الحلية، {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا} أي: في أيديهم، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث المتفق عليه: ((تبلغ الحِلْيَة من المؤمن حيث يبلغ الوُضُوء))**[١].

وقوله: {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ}: في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسُنْدُسه، كما قال: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} [سورة الإنسان: (٢١-٢٢)]، **وفي الصحيح: ((لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة))**[٢].

قال عبد الله بن الزبير: من لم يلبس الحرير في الآخرة، لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ}.

وقوله: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} كقوله: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ } [سورة إبراهيم: (٢٣)].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فما ذكره الله -عز وجل- هنا من نعيم أهل الجنة هذا على طريقة القرآن بذكر ما يحصل به الخوف والرجاء، فقوله -تبارك وتعالى-: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا} التقدير: ويحلون لؤلؤاً، وعلى القراءة الثانية، وهي أيضاً قراءة متواترة بالجر {بأساور من ذهب ولؤلؤ} يكون اللؤلؤ عائداً على المجرور معطوفاً عليه وهو الذهب، فيكون المعنى -والله تعالى أعلم- أن هذا الذهب مرصع باللؤلؤ، وعلى قراءة

---

[١] - رواه مسلم برقم: (٦٠٩) كتاب الطهارة –باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء.

[٢] - رواه البخاري برقم: (٥١١٠) كتاب الأطعمة –باب الأكل في إناء مفضض، ومسلم برقم: (٥٥٣١) كتاب اللباس والزينة - باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء.

النصب: {ولؤلؤاً} أي: ويحلون لؤلؤاً، فيحتمل أن تكون الحلية من اللؤلؤ، يعني حلية من ذهب وحلية من لؤلؤ، بمعنى أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ، مع أنه جرت العادة في الدنيا فيما هو معروف أن الأساور في الدنيا لا تكون من اللؤلؤ، وإنما اللؤلؤ يرصع بالذهب مثلاً، ولكن نعيم الجنة يختلف عن نعيم الدنيا، فيمكن أن يحلى هؤلاء بأساور من اللؤلؤ الخالص وأساور من الذهب الخالص، مع أن الاحتمال أيضاً قائم بأن المراد {ولؤلؤاً} أي: ويحلون لؤلؤا، فلا يلزم من ذلك أن السوار برمته من اللؤلؤ، وإنما هو من الذهب رصع باللؤلؤ، وعلى كل حال نعيم الجنة لا يقاس بنعيم الدنيا وما فيها من البهرج والزينة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} ما ذكره من قول ابن الزبير -رضي الله تعالى عنه- وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة)) قال: من لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة، يعني أن ابن الزبير -رضي الله عنهما- فهم من قوله: ((لم يلبسه في الآخرة)) أنه لم يدخل الجنة؛ لأن الحرير لباس أهل الجنة، ولكن هذا أيضاً غير قاطع؛ فالحديث قد يفهم منه هذا المعنى، وقد يفهم منه غير ذلك، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن من مات وهو يشرب الخمر ولم يتب أنه لن يشرب من خمر الجنة[٣]، فهل معنى ذلك أنه لا يدخل الجنة؟ وأنه يخلد في النار؟ لا، وإنما يُحرم من هذا اللون من النعيم في الجنة، وبعض أهل العلم كابن القيم -وقد يفهم هذا من بعض كلام شيخ الإسلام في بعض المواضع- يرى أن النعيم في الجنة ينقص بحسب حال الإنسان في الدنيا، وابن القيم لا يتقيد بما ورد في الأحاديث من أن من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، أو من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، يعني إن لم يتب، بل يرى أن من تعاطى شيئاً من هذه المحرمات في الدنيا عموماً فإن ذلك يكون نقصاً في نعيمه في الجنة، فيُحرم من نظيره، ولكن هذا الكلام لا دليل عليه، ومثل هذه القضايا لا يجري فيها القياس، يبقى سؤال إذا وقفنا عند الأشياء التي ورد فيها النص كالخمر، والحرير إذا قلنا بأن الحديث يحتمل معنى آخر وهو أنه يُحرم من حرير الجنة، وليس معنى ذلك أنه لا يدخل الجنة، فمن مات وهو يلبس الحرير ولم يتب هل يخلد في النار؟ لا، فهذا الفهم الذي ذكره ابن الزبير -رضي الله عنه- من أنه لا يدخل الجنة لأن هذا هو لباس أهل الجنة يمكن أن يقال: إنه يُحرم هذا النوع من النعيم، ولقائل أن يقول: إن هذا من نصوص الوعيد فيجرى على ظاهره؛ ليحصل الردع والزجر، ولا يتعرض له بتأويل، ومن أهل العلم من يؤول ذلك بأن هذا إن كان مستحلاً؛ فالمستحل يكفر، ولا حاجة إلى هذا لأن الحديث ليس فيه ذكر هذا القيد، فيبقى -والله تعالى أعلم- أن يقال: إن هذا من نصوص الوعيد، ولكن في مجالس العلم يحتاج الناس أن يفهموا هذا؛ من أجل أن لا يبنوا على ذلك لوازم فاسدة، كأن يقال -مثلاً-: الذي يلبس الحرير في الدنيا ويموت على هذا يخلد في النار، فهذا لا يجوز، وكذا أن يقال: الذي يموت وهو يشرب الخمر ولم يتب فإنه يخلد في النار؛ لأنه لا يشرب من خمر الجنة، لا، بل يقال: إن ذلك يكون نقصاً في نعيم الجنة بإزاء هذه المقارفة.

---

[٣] - في مسلم برقم: (٥٣٣٦) عن ابن عمر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب لم يشربها في الآخرة)) كتاب الأشربة -باب بيان أن كل مسكر خمر، وأن كل خمر حرام.

هنا يرد سؤال هو أن نعيم الجنة نعيم عظيم وكامل فإذا كان لا يشرب من خمر الجنة فإنه يكون ناقص النعيم، والجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين فكيف هذا؟ فيقال: كما أنه قطعاً أخبرنا الله -عز وجل- عن تفاوت نعيم أهل الجنة ودرجاتهم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن هذا وأن الجنة درجات، وأن أصحاب الدرجات العالية يترآآهم أهل الجنة، كما يتراءى الكوكب الغابر في الأفق، ولا يكون ذلك نقصاً في نعيم من كان في مرتبة أدنى؛ لأنه يرى أنه ما أُعطي أحدٌ أفضل مما أعطي، فالجنة ليس فيها تنغيص، فيكون ما عنده من اللذات والنعيم والحبرة وما أشبه ذلك بحيث لا يحصل له شعور بنقص الراحة والسرور والنعيم في الجنة. هذا الجواب، والله تعالى أعلم.

أما مذهب عمر -رضي الله تعالى عنه- فهو يرى أن من توسع في المباحات يدخل في عموم قوله تعالى: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا} [سورة الأحقاف: (٢٠)] وأن ذلك يكون على حساب حظه من الآخرة، فينقص نعيمه في الآخرة، ومرتبته بحسب ما حصل له من التوسع في اللذات، حتى الكلام في اللذات المباحة، فهذا مذهب عمر -رضي الله عنه-، ومذهب عامة أهل العلم أن الإنسان إذا شكر النعمة وأدى حق الله -عز وجل- فيها فإن ذلك لا يكون نقصاً في حقه، فالصحابة -رضي الله تعالى عنهم- كصهيب الرومي، وغيره كما ورد في الآثار حينما يتذكرون من مات من إخوانهم، ولم يحصِّل ما حصَّلوا ولم تفتح عليهم الدنيا كانوا يخافون أن تكون حسناتهم قد عجلت لهم في الدنيا، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر عن المجاهد في سبيل الله أنه إما أن يقتل في سبيل الله فيكون أجره وافيا على الله، وإما أن يرجع بما يرجع من أجر أو غنيمة، فهذا الأجر الذي يرجع به هل هو مثل الأجر الذي يحصل لذاك الذي قتل ولم يرجع، ويكون هؤلاء كما جاء في بعض الأحاديث أنهم قد تعجلوا شطر ثوابهم أو أجرهم أو جزائهم، فأهل العلم يتكلمون عن هذا..

وقوله: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} [سورة الحج: (٢٤)] **كقوله تعالى:** {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ} [سورة إبراهيم: (٢٣)] **وقوله:** {وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [سورة الرعد (٢٣-٢٤)] **وقوله:** {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [سورة الواقعة: (٢٥-٢٦)] **فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، وقوله:** {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} [سورة الفرقان: (٧٥)] **لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به يقال لهم:** {ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ} [سورة آل عمران: (١٨١)].

قوله تعالى: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} هذه الآيات التي أوردها على نوعين منها ما يدل على أن ذلك السلام يصدر منهم، ومنها ما يدل على أن ذلك يصدر من غيرهم، أو أنهم لا يسمعون إلا التسليم -مثلاً-، ولهذا قال هنا بعد قوله -تبارك وتعالى-: {وَالْمَلاَئِكَةُ} قال {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} هذا الذي يسمعونه، قال فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، وجه هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} أنه بمعنى هدوا إليه فلا يصدر منهم إلا الطيب من القول، ومن هذا القول الطيب الذي يصدر منهم السلامُ، وفي الآية التي ذكرها هنا {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا} يعني ما يوجب الإثم {إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} قيلاً: يعني قولاً، {سَلَامًا سَلَامًا}،

{وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ}: هدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الطيب من القول فيكون صادراً منهم، وهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه ذلك من غيرهم، هكذا أراد ابن كثير -رحمه الله-، وعلى كل حال الطيب من القول يشمل السلام، ويشمل كل طيب من القول، فالجنة ليس فيها سخط، ولا أذى، ولا شتم، ولا ما يعاب، ولا ما ينكر، فالقول الطيب يدخل فيه شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا الذي فسر به ابن جرير -رحمه الله- {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ}، ويدخل فيه السلام كما دل عليه القرآن، وهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، ويدخل فيه كل قول طيب، فكل أهل الجنة يتكلمون، في الدنيا يصدر من الناس ما يعاب فيشين، ويصدر ما يقبح سواء كان ذلك من قبيل الشرك ودعاء غير الله -عز وجل- أو كان ذلك من الأمور المحرمة -بدع وأهواء مما يتكلم به الناس- أو كان ذلك من قبيل الغيبة، والنميمة، أو كان ذلك من قبيل الشتم والسب أو الفحش أو نحو ذلك، والجنة ليس فيها فحش، وليس فيها معصية، وليس فيها ما يقبح، ولا ما يزعج الأسماع، وإنما لا يسمع الإنسان فيها إلا الكلام الطيب، وهذا من أعظم النعيم لأن الإنسان لاشك أنه يتأثر بما يسمع، فإذا سمع الكلام السيئ وجالس أناساً يتكلمون بما لا يليق ولا يحفظون ألسنتهم، ويصدر منهم من السب والأذى والوقيعة، وألسنتهم حداد فإن القلوب والأسماع تتأثر بهذا، ومن ثَمَّ يتكدر القلب ويتنغص، ولذلك فإن الذين يحضرون المجالس التي يسمعون فيها التثريب، يثرب عليهم مثلاً، والتعنيف أو يسمعون ما يكرهون من شتم وانتقاص وعيب سواء كان هذا ولدك أو غيره إذا كان يسمع هذا التثريب لا يحب هذا المجلس، ولا يحب الحضور فيه، وهكذا أصحاب الفطر السليمة إذا حضروا في المجالس التي يُتكلم فيها في أعراض الناس ويسمعون فيها الكلام المحرم فإنه لا تطيق قلوبهم هذا بحال من الأحوال، وقل مثل ذلك حينما يسمع الإنسان أو يبتلى في مكان عام أو في سوق أو في طائرة أو في مجمع من مجامع الناس ابتلي فسمع الناس يتحدثون تحيتهم شتم، وعباراتهم لا يتحفظون بها، قذف وعبارات سيئة جداً، قوية جارحة تجرح جروحاً عميقة وهم لا يتحفظون بهذا الكلام، بل يرسلونه على عواهنه، والإنسان لا يمكن أن يحتمل هذا فهو كلام مؤذٍ جداً، والجنة ليس فيها هذا، لا يسمع إلا الكلام الطيب، ولذلك جرِّبْ هذا، وانظر إلى أناس لا تسمع منهم إلا طيب الكلام، الكلام اللطيف، الكلام الحسن تجد أن هذا من النعيم، ولا تمل تلك المجالس، وكذلك ما ذكره الله -عز وجل- من نعيم أهل الجنة بأنه {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ} [سورة الأعراف: (٤٣)] فوجود الغل في نفس الإنسان يكدر عليه نعيمه ولذته وراحته وسروره، بل لا ينام الإنسان الذي يحمل الغل في قلبه، إذا امتُلئ القلب بالغل ذهبت السعادة وتنغصت على الإنسان المعيشة، والإنسان إذا وقع بينه وبين أحد خصومة كيف تكون حاله وحياته، إلا إذا كان إنساناً ملوث العرض ملطخاً، في كل مكان كدمات فهذا أسأل الله العافية (ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ) فهذه من الأمور الخفية التي لا يتفطن لها الكثير من الناس مما ذكر الله -عز وجل- من نعيم أهل الجنة: السماع وذهاب الغل من نفوسهم، أليس النعيم هو في أمور حسية مادية يتعاطاها الإنسان من نكاح وأكل وشرب وقصور يسكنها، لا، فهناك أشياء قد تُذهب هذه اللذة كلها ولذلك يجد الإنسان أعلى لذات الدنيا ربما هي لذة النكاح، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول (حبب إلي من الدنيا النساء والطيب)[٤]

---

[٤] - رواه النسائي برقم: (٣٩٣٩) وقال الألباني حسن صحيح.

ومعروف في أحوال الناس أن الرجل قد يسمع من هذه المرأة التي يعاشرها كلمة واحدة تتحول بسببها اللذة إلى تنغيص فيزهد فيها ولا يستطيع أن يعاشر، فكلمة تجرح مشاعره، والناس يذكرون مثل هذا، قد يذكره بعضُ مَن أكثرَ من الجواري، ومن الزوجات وهكذا أيضاً لربما كان الإنسان يأكل ولكنه إذا غلبه الغم أو امتَلأ قلبه بالغل لا يجد طعما للطعام.

وقوله: {وَهُدُوَاْ إِلَىَ صِرَاطِ الْحَمِيدِ} أي: إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأتعم به وأسداه إليهم كما جاء في الحديث الصحيح ((إنهم يُلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النّفَس))[٥] وقد قال بعض المفسرين في قوله: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} أي: القرآن، وقيل: لا إله إلا الله، وقيل: الأذكار المشروعة {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} أي: الطريق المستقيم في الدنيا، وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم.

القول بأن {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} يعني القرآن أو نحو هذا أو الأذكار المشروعة!! الجنة ليس فيها لا قراءة قرآن ولا أذكار إنما يلهمون التسبيح والتهليل كما يلهمون النفَس، فالجنة ليس فيها تكاليف، ولكن هؤلاء العلماء قصدوا بذلك -والله أعلم- أن هذا في الدنيا {هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} كما ذكر الله -عز وجل- هذا النعيم لأهل الجنة أنهم {هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} في الدنيا، مع أن ظاهر السياق أن هذا من نعيمهم في الجنة، {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} ولكن كأن من فسره بأن هذا في الدنيا {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} إذا قيل: لا إله إلا الله أو نحو ذلك، أن هذا كان في الدنيا وكان سبباً لهذا النعيم، وهكذا {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} أيُّ هدايةٍ تكون في الآخرة؟ مع أن الله -عز وجل- قال عن الشهداء: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} [سورة محمد: (٤-٥)] وقد قتلوا فكيف يهديهم؟ ولهذا يقال: الهدايات منها ما هو موجود في الدنيا، ومنها ما يوجد في الآخرة، فالهدايات التي توجد بعد الموت كثيرة، يُهدى الإنسان عند سؤال الملكين في القبر إلى الجواب إذا سئل عن المسائل الثلاث، وكذلك العبد أيضاً يحتاج إلى هداية حينما يقوم من قبره فيتوجه إلى محشره، فالله -عز وجل- وصف خروج الناس من قبورهم {كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} [سورة المعارج: (٤٣)] ويحتاج أيضاً إلى هداية حينما يحاسبه الله -عز وجل- فيلهم العبد الحجة، ويسدد، لم فعلت كذا؟ أو يقال له: فعلتَ كذا، رأيت شيئاً يجب عليك أن تغيره، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن العبد إذا ألهم الحجة، قال: ربي..، فالشاهد أنه يلهم الجواب الصحيح الذي يحصل له به الخلاص والنجاة، ثم إن الإنسان أيضاً يحتاج إلى هداية أخرى بعد ذلك إلى الصراط، ويحتاج إلى هداية على الصراط، ويحتاج إلى هداية أخرى إلى باب الجنة، ويحتاج إلى هداية إلى منزله في الجنة، ولهذا قال الله -عز وجل- {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} والله -عز وجل- يقول: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ} [سورة يونس: (٩)] وابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه والله أعلم**، يعني {هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} في الدنيا لما يكون سبباً لهذا النعيم، وكذلك أيضاً في الجنة،

---

[٥] - رواه مسلم برقم: (٧٣٣١) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها –باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا.

وظاهر السياق في الجنة {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} الصراط هو الطريق الواسع {صِرَاطِ الْحَمِيدِ} أي: صراط الله -عز وجل- {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} أي إلى طريق الله -تبارك وتعالى- فقد تكون الآية تشمل هذا الذي ذكره السلف جميعاً، والله أعلم.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }. [سورة الحج: (٢٥)].

يقول تعالى منكرًا على الكفار في صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه: {وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [سورة الأنفال: (٣٤)].

وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية، كما قال في سورة البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ} [سورة البقرة: (٢١٧)]، **وقال: هاهنا: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} أي: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي: ويصدون عن المسجد الحرام مَن أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وهذا التركيب في هذه الآية كقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}** [سورة الرعد: (٢٨)] **أي: ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.**

قوله -تبارك وتعالى- {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} هذا كما قال الله -عز وجل-: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [سورة الفتح: (٢٥)] كما وقع عام الحديبية، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ} [سورة المائدة: (٢)] فهذا كان معروفاً عنهم صد أهل الإيمان عن المسجد الحرام، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا من أن هذه الآية دليل على أن الآية مدنية باعتبار أن الآيات تدل على هذا، فهذا الصد عن المسجد الحرام إنما كان بعد الهجرة إلى المدينة، وسبق الكلام على أن هذه السورة فيها ما هو مكي، وما هو مدني، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} قبله: كفروا: هذا فعل ماضٍ، ويصدون: فعل مضارع، فعطف المضارع على الماضي، فيحتمل أن يكون المراد بهذا الفعل المضارع {ويصدون} معنى المضي، يعني وصدوا، وتبقى النكتة البلاغية، لم عبر بمضارع في شيء قد مضى؟ وهنا يمكن أن يقال: إنه يعبر بالمضارع عن الماضي لتصوير ما وقع كأنك تشاهده، {قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ} [سورة البقرة: (٩١)] وما قال: فلم قتلتم؟ والقتل وقع من زمن، من أجدادهم، وأمثلة هذا كثيرة في القرآن، وإذا نظرت إلى كثير الخطابات التي خاطب الله -تبارك وتعالى- بها اليهود تجدها من هذا القبيل، تارة يكون ذلك للتشنيع، وتارة لبيان العظمة ولمعانٍ بلاغية، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [سورة الحج: (٦٣)] قال: تصبح، ولم يقل: فأصبحت، تصبح، كأنك تشاهد عملية النبات وهي تحصل، والإنبات خروج الزرع من الأرض، وهكذا، ويمكن أن يقال هذا هنا -والله أعلم- {ويصدون} وكما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [سورة النساء: (١٦٧)] فعبر بالماضي {كفروا وصدوا} فعطف الماضي

على الماضي، وهنا في هذه الآية قال: {ويصدون عن سبيل الله} وعلى كل حال هم حينما نزلت هذه الآيات كان الصد مستمرا منهم، ولهذا يمكن أن يقال: إنه عبر بالمضارع لإفادة الاستمرار، فهذا أمرٌ مستمر، والصد متكرر جارٍ غير متوقف فعبر به، وبعض أهل العلم يقول: الواو زائدة، وعليه تكون الجملة الفعلية: {ويصدون} خبر إن، فالتقدير: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} {يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} لكن هذا وإن قال به جماعة من أهل العلم إلا أن الأصل عدم الزيادة، ولاشك أن هذا أولى، ويمكن أن تحمل الآية على معنى واضح بلا تكلف من غير الدعوى بالزيادة، ولكن يبقى السؤال: أين خبر إنّ إذا قلنا: الواو غير زائدة؟ {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} تكون هذه صفة لهم، فأين خبر إنّ؟

بعضهم يقول: إنه مقدر بعد قوله: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} أي: خسروا وخابوا وهلكوا، وبعضهم يقول محذوف تقديره مثلاً: {نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} استئناسا بما يليها في قوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} وكذلك أيضاً الكفر والصد عن سبيل الله هو من جملة الإلحاد في الحرم، فيكون الخبر مقدراً {نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} وبعضهم يقول: إن قوله: {نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} في الآية هو الخبر، وهذا لا يخلو من إشكال؛ لأن الله قال: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} فهذا جواب لهذا، فكيف يكون جواب الأول؟ والقول بأن الواو زائدة أيضاً لا يخلو من إشكال، وبعضهم يقول إن جملة {يصدون} خبر مبتدأ محذوف، وليست خبراً لإنّ والتقدير: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} وهم {يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} فـ: {الذين كفروا} اسم إنّ، من الأسماء الموصولة، و"هم {يصدون}" هم: مبتدأ، والجملة الفعلية خبر، والمبتدأ والخبر -الجملة برمتها- في محل رفع خبر إنَّ.

نحن لا نشتغل بالإعراب لكن أحيانا حتى يتبين المعنى كما قيل: المعنى تحت الإعراب، والإعراب تحت المعنى، فما يتبين أحياناً المعنى إلا بالإعراب، فكيف تفهم هذه الآية إلا بالإعراب؟.

قوله: {كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} يصدون الناس عن الإيمان واتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال {وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} يعني: يصدون عن المسجد الحرام، والمسجد الحرام هنا يحتمل ثلاثة أشياء: يحتمل أن يكون المراد به المسجد نفسه، مسجد الكعبة، ويحتمل أن يراد به مكة، ويحتمل أن يكون المراد به منطقة الحرم بكاملها، وهذا الخلاف سببه أن المسجد الحرام يطلق تارة ويراد به المسجد نفسه، وتارة يطلق ويراد به الحرم، ولذلك اختلفوا في الإسراء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [سورة الإسراء: (١)] هل أسري به من المسجد؟ أو أسري به من بيته أو من بيت آخر؟ باعتبار أن الحرم يقال له المسجد الحرام، وهكذا ((صلاة في المسجد الحرام))[٦] الاختلاف نفسه لهذا السبب، وأما ذكر مكة هنا فمن أجل أن الله -عز وجل- قال {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} البادي: هو الذي يبدو، أو الذي يطرأ عليه من غير أهله يقال له ذلك، وبعضهم يقول: هو من جاء من البادية، وليس هذا بلازم، لأن المعنى أوسع من هذا، فالطارئ عليه من غير أهله هو المقصود بهذا -والله أعلم-، وهؤلاء الذين يأتون هم إما يأتون إلى

---

[٦] - رواه ابن ماجه برقم: (١٤٠٦) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها -باب ما جاء في فضل الصلاة في المسجد الحرام ومسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- وصححه الألباني.

المسجد، وإما يأتون إلى مكة، ولا يأتون إلى أرض الحرم في أماكن غير معمورة وغير مأهولة، وإنما يأتون لمكة {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} ولهذا قال بعضهم: المقصود مكة؛ لهذا السبب، ولهذه القرينة التي في الآية، والكلام في هذا كثير جداً، ويترتب عليه مسائل، فـ {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} سيأتي الكلام على تأجير بيوت مكة، و{سواء} يستوون في ماذا؟ إذا قلنا: إنه المسجد فلا إشكال، لأنه ليس لأحد فيه حق، ولا أحد أولى من أحد، فأهل مكة ليسوا بأولى من غيرهم بالمسجد، لكن هل يشمل ذلك منطقة الحرم بكاملها؟ أو مكة؟ فيستوي الناس فيها بحيث لا يجوز لأحد أن يؤجر ولا يبيع، فلا يستأثر بشيء دون غيره، مما زاد على حاجته، وتفتح البيوت ولا توضع لها أبواب، أو لا تغلق أبوابها، وكل من طرأ على مكة له أن يسكن حيث شاء، فهذا فيه خلاف كثير بين أهل العلم يأتي الكلام عليه إن شاء الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٨)

تتمة قوله تعالى"إن الذين كفروا" الآية

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال -رحمه الله تعالى-: وقوله: {الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} [سورة الحج:٢٥] أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعا سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام.

وقال مجاهد في قوله: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ}: أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل، وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله.

وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهَويه بمسجد الخِيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضًا، فذهب الشافعي، -رحمه الله- إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غدًا في دارك بمكة؟ فقال: ((وهل ترك لنا عَقيل من رباع؟))، ثم قال: ((لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر))[١]، وهذا الحديث مُخَرّج في الصحيحين، وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة -فجعلها سجناً- بأربعة آلاف درهم، وبه قال طاوس، وعمرو بن دينار.

وذهب إسحاق بن راهَويه إلى أنها تورث ولا تؤجر، وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهَويه بما رواه ابن ماجه، عن علقمة بن نَضْلة قال: "تُوُفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر وعمر، وما تُدعى رباع مكة إلا السوائب، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن"[٢].

---

١ - رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم وإذا أسلم قبل أن يقسم الميراث فلا ميراث له، برقم (٦٣٨٣)، ومسلم، كتاب الفرائض، رقم (١٦١٤)، والإمام أحمد في المسند، رقم (٢١٧٦٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٢ - رواه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب أجر بيوت مكة، رقم (٣١٠٧)، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم (١٠٩٦٨)، وضعفه الألباني.

وروى عبد الرزاق عن عبد الله بن عمرو أنه قال: "لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها"[٣].

وقال أيضًا عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهي عن تبويب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج في عَرَصاتها، فكان أول من بَوّب داره سُهَيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأ تاجرا، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري قال: فلك ذلك إذًا[٤].

وقال عبد الرزاق، عن مجاهد؛ أن عمر بن الخطاب قال: "يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادي حيث يشاء"[٥].

قال: وأخبرنا مَعْمر، عمن سمع عطاء يقول في قوله: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ}، قال: "ينزلون حيث شاءوا"[٦].

وروى الدارقطني عن عبد الله بن عمرو موقوفاً: "من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً"[٧].

وتوسط الإمام أحمد فيما نقله صالح ابنه فقال: تملك وتورث ولا تؤجر، جمعا بين الأدلة، والله أعلم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} **العاكف** يعني: المقيم, يعني أهل مكة أهل البلد، والباد يعني: من طرأ عليه من غير أهله, وهذا الاستواء لم يحدد الله -عز وجل- فيه معنى أو أمراً من الأمور, ولهذا حمله ابن جرير –رحمه الله- على العموم بناء على القاعدة المعروفة وهي عموم المقتضى, يعني: المقدر المحذوف {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} في ماذا يستوون؟ فكثير من السلف يعبرون بأنهم يستوون بسكنى فيه, ونحو ذلك، فابن جرير حمله على أعم معانيه فقال: هم سواء في ذلك حيث إنهم يجب عليهم تعظيمه, وتقديسه, وتطهيره وهم سواء في الأحقية لا فضل لأحد على أحد، ولا مزية لأحد على أحد، فهم مستوون في ذلك كله، يجب على أهله مكة، ويلزمهم من تعظيم البيت وتطهيره التطهير اللائق والتقديس الواجب ما يجب على غيرهم ممن طرأ عليه، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء, كما أنهم يستوون في الأحقية لحرم الله -تبارك وتعالى- والنزول حيث شاء {الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ}, لكن يبقى على هذا المعنى –وهو الحمل على العموم- يبقى النظر في المراد بالمسجد الحرام, فإذا خص ذلك بمسجد الكعبة فإنه يقال: يستوون في المسجد –الكعبة-، وإذا قيل: إن المراد به مكة فمعنى ذلك أن الحق للجميع, وليس لأحد أن يتحجر شيئا دون غيره مما يزيد عن حاجته, ومن طرأ عليه سكن حيث شاء، وليس لأحد أن يؤجر, وليس لأحد أن يبيع إذا قيل: إنهم يستوون بهذا كله، وذكر هنا الأقوال ومبنى هذه المسألة على قضية فتح مكة هل فتحت مكة صلحاً أو فتحت بالقوة؟ وإذا

---

٣ - رواه عبد الرزاق في المصنف (١٤٨/٥)، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٥٠/٣).

٤ - رواه عبد الرزاق في المصنف، رقم (٩٢١٠).

٥ - رواه عبد الرزاق في المصنف، رقم (٩٢١١).

٦ - رواه عبد الرزاق في المصنف، رقم (٩٢١١).

٧ - رواه الدار قطني في سننه، رقم (٢٨٦)، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (٢١٨٦).

كانت فتحت بالغلبة بالقوة, هل أقرها النبي -صلى الله عليه وسلم- بأيدي أهلها يتملكون، يعني: تركها بأيديهم على سبيل التمليك أو على سبيل الانتفاع, فمن قال: إنها فتحت صلحاً قال: إن أهلها يملكون الدور ولهم أن يتصرفوا فيها تصرف المالك من إيجار وبيع وهبة وغير ذلك، وليس لأحد حق فيها, ومن قال: إنها فتحت بالقوة فهؤلاء بحسب نظرهم، ومن قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما غلب عليها وقهر أهلها بقوة الجيش أقرها في أيديهم ينتفعون بها ليس لهم أن يؤجروا ولا أن يتصرفوا تصرف المالك، هذا مأخذ المسألة وأصلها، والذين قالوا: إنها ملك لهم يتصرفون فيها كما شاءوا احتجوا بأدلة ذكر بعضها المؤلف -رحمه الله- هنا، ومنها قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قال أسامة: أتنزل غداً في دارك بمكة؟, قال: ((وهل ترك لنا عقيل من رباع؟))، ثم قال: ((لا يرث الكافر المسلم, ولا المسلم الكافر)), فمعنى ذلك أن هذا الحديث يدل على أنهم يتملكون، قال: ((هل ترك لنا عقيل من رباع؟))، ولم يقل: ليس لي بها دار، أو لا أملك فيها شيئاً أو نحو ذلك، وهكذا في قوله: ((لا يرث الكافر المسلم, ولا المسلم الكافر))، فإذا جرى فيها التوارث فمعنى ذلك أنهم يتملكون؛ لأن التوارث إنما يكون فيما يملك, وهكذا ما ذكره من أن عمر -رضي الله عنه- اشترى دار صفوان بن أمية اشتراها منه، وإنما يشترى ذلك المالك، وإلا لما جاز له بيعها وهكذا احتج به ابن خزيمة، وقوله -تبارك وتعالى-: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ} [سورة الحشر:٨] فنسب الديار إليهم، وهكذا أيضاً احتجوا بقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((من دخل داره فهو آمن))[٨]، فنسب الدار إليه ((ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن)) فنسبها إليه، بالنسبة لهذين الدليلين: فإن الإضافة لا تقتضي التمليك دائماً، وإنما قد يضاف الشيء إلى الشيء أو ينسب إليه لأدنى ملابسة, وهذا معروف؛ ولذلك الله -عز وجل- قال لأمهات المؤمنين: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} [سورة الأحزاب:٣٣]، مع أن البيوت للنبي -صلى الله عليه وسلم- لكن هن المنتفعات بها في السكنى فأضافها إليهن, وهكذا أيضاً في قوله -تبارك وتعالى- في المطلقة: {لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ} [سورة الطلاق:١]، مع أن البيت ليس لها، فأضافه إليها لأنها ساكنة فيه, وقوله: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ} لا يقتضي أن الديار هي ملك لهم, لكن لما كانوا يسكنون فيها وينتفعون بها أضيف ذلك إليهم، والبخاري -رحمه الله- بوب باباً قال فيه: باب توريث دور مكة وبيعها وشرائها وأن الناس في المسجد الحرام سواء لقوله: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ} ثم أورد حديث أسامة, وحديث أسامة يدل على أنها تملك، فكأنه لم يصح عنده شيء؛ لأنها لا تملك، فأراد هذا الحديث الذي يدل على أنها تملك -الحديث الذي ذكره هنا-، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه عن علقمة بن نضلة قال: "توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-, وأبو بكر وعمر وما تُدعى رباع مكة إلا السوائب"، الشيء السائب أو السائبة هو الذي لا مالك له متروكة لله، "إلا السوائب" يقال لبيوت مكة: السوائب, لا مالك لها, ولكن هذا الحديث لا يصح, ولو صح الحديث لكان نصاً، قال: ((من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن))، والجمهور على أن بيوت مكة ملك لأهلها وأنه يجوز لهم أن يؤجروها ويبيعوها ويتصرفوا بها, ومن الناس من يتبنى القول بأنها لا تؤجر ولا تباع، فيأتي ويسكن في ما شاء من فنادق الحرم ثم يخرج ولا يعطيهم شيئاً, ويحتج عليهم بما جاء

---

٨ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم (١٨٠٥٣)، والطبقات الكبرى، لابن سعد (١٣٥/٢).

من كلام أهل العلم والآثار المنقولة عن السلف في هذا: أن كل هذا حرام وسحت, ولا يجوز لهم، ومنهم من يستأجر في مكة السنوات فيأتي ويحتج بمثل هذه الأشياء, ولذلك وُجد بعض من يقوم على هذه المساكن بمجرد ما يأتيه الإنسان يطالبه أحياناً بدفع مبلغ من المال يغطي المدة التي يسكن فيها، خوفاً من الاحتجاج بمثل هذه الأمور.

وقوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: {تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ} [سورة المؤمنون:٢٠] أي: تُنْبِتُ الدهنَ، وكذا قوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ} تقديره إلحادًا، أي: يَهمّ فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار.

وقوله: {بِظُلْمٍ} أي: عامدا قاصدا أنه ظلم، ليس بمتأول، كما قال ابن جريج، عن ابن عباس: هو التعمد.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {بِظُلْمٍ} بشرك.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس: { بِظُلْمٍ } هو أن تَستحلَ من الحرم ما حَرّم الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فَعَل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم.

وقال مجاهد: {بِظُلْمٍ}: يعمل فيه عملا سيئا.

وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقَب البادي فيه الشر، إذا كان عازما عليه، وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره:

عن عبد الله -يعني ابن مسعود-في قوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} قال: لو أن رَجُلا أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بِعَدَن أبينَ، لأذاقه الله من العذاب الأليم.

ورواه أحمد، قلت: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووقفُه أشبه من رفعه، والله أعلم.

وقال سعيد بن جُبَير: شتم الخادم ظلم فما فوقَه.

وقال حبيب بن أبي ثابت: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} قال: المحتكر بمكة. وكذا قال غير واحد.

قال ابن عباس في قول الله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} قال: نزلت في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاريّ، ثم ارتد عن الإسلام، وهَرَب إلى مكة، فنزلت فيه: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} يعني: من لجأ إلى الحرم بإلحاد يعني بميل عن الإسلام.

وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكنْ هُو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل {تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} [سورة الفيل:٤-٥]، أي: دمَّرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء؛ ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "يغزو هذا البيتَ جيشٌ، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِف بأولهم وآخرهم" الحديث.

الضمير في {يُرِدْ فِيهِ} يرجع إلى المسجد الحرام الذي وصفه الله -عز وجل- في قوله: {الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} [سورة الحج:٢٥]، وهذا يشمل الحرم بأجمعه, وهذه خصوصية للمسجد الحرام دون غيره من الأمكنة، قوله: {بِإِلْحَادٍ} الذين قدروا أو قالوا: إن الباء زائدة يبقى

المعنى عندهم هكذا "ومن يرد فيه إلحاداً بظلم نذقه من عذاب أليم"، فصار فعل الإرادة هنا على وجهه دون الحاجة إلى القول بالتضمين؛ لأن فعل الإرادة في الأصل لا يتعدى بالباء, وإنما يتعدى بنفسه، أراد إلحاداً، وهنا قال: "يرد بإلحاد" عداه بالباء, فمن قال: إنها زائدة -يقصدون زائدة إعراباً- أبقي الفعل على ظاهره، والأصل عدم الزيادة, ولذلك فإن من أهل العلم -كشيخ الإسلام، وأضافه ابن القيم -رحمه الله- إلى فقهاء أهل اللغة- من قال بتضمين الفعل معنى فعل آخر يصح أن يعدى بالباء، {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ} والفعل الذي يصح أن يعدى بالباء هو "هَمّ" همّ بكذا, وهمّت بكذا, فهذا يصح أن يعدى بالباء, فإذا قيل: إن فعل الإرادة مضمن الفعل "همّ" فعُدي لذلك بالباء فيكون إذاً هنا المعنى أوسع، فيكون المعنى {وَمَن يُرِدْ فِيهِ} دل على فعل الإرادة، ومعنى الإرادة, ودل على درجات تارة تكون إرادة جازمة وهو ما يسمى بالعزم المصمم، وتارة تكون هذه الإرادة لم تصل إلى حد العزم ولكنها همٌّ فقط, هم بكذا لكن لم يعزم عليه، هممت أن أسافر، قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "حتى هممتُ بأمر سوء" حين أراد أن يجلس, والنبي -صلى الله عليه وسلم- يصلي، لكنه لم يجلس، فالهم لم يصل إلى العزم، ثم يأتي دون ذلك الخاطرة التي تخطر بنفس الإنسان، هذه الخواطر تقع في قلب الإنسان لكن قد يدفعها فإذا تركها واستقرت صارت بعد ذلك باعثاً على العمل وهو الهم، ثم بعد ذلك قد تقوى حتى تصل إلى حد العزيمة، فإذا قلنا: إنه مضمن معنى الهم -فعل الهم همّ- فمعنى ذلك أن الإنسان يؤاخذ على مجرد الهم, وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، والدليل على هذا غير مسألة التعدية؛ لأنه كما هي القاعدة أنه تفهم معاني الأفعال على ضوء ما تتعدى به، فنفهم فعل الإرادة هنا {وَمَن يُرِدْ} بالنظر إلى الحرف الذي عُدي به، ففهمنا أن المقصود بالإرادة هنا الهم، والذين فسروه بالعزم يُردّ عليهم في كل مكان؛ لأن الفعل أربعة أنواع:

النوع الأول: الفعل بالجوارح، باليد، بالمباشرة، بالمشي، بالذهاب, بالمجيء، فعل الجوارح.

الثاني: الفعل باللسان.

الثالث: الفعل بالقلب، هو العزم المصمم.

الرابع: وهو الترك؛ لأن الترك فعل كما قال في المراقي: والترك فعل في صحيح المذهب.

فلو أن إنساناً غرق وكاد أن يموت ورآه شخص وعنده حبل يستطيع أن يلقيه إليه فيخرج، أو يسبح فينقذه لكن تركه حتى مات، أوإنسان أصيب بحادث ويحتاج إلى إنعاش, لكن الطبيب جلس يتفرج عليه حتى مات، فهذه كلها من باب الترك، وإذا قالوا: الترك فعل, فالفعل أربعة أنواع: منها العزم المصمم، هذا لا يختص بالحرم، العزم المصمم فعل، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((القاتل والمقتول في النار))، قالوا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: ((إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))[٩]، فهذا العزم فعل لا يختص بالحرم فلو فسر هنا فعل الإرادة بالعزم لما صار للحرم مزية على غيره، ولهذا فإن تفسيره بالهم أولى، هذا وجه الترجيح، والأقوال التي ذكرها هنا والآثار عن السلف قال: {بِظُلْمٍ} عامداً قاصداً، إذا قيل: إن تفسير {وَمَن

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [سورة الحجرات:٩]، رقم (٣١)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨).

يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} الإلحاد: هو الميل عن الحق، إذا قلت: إنه لا يوجد إلحاد بحق تكون هذه الصفة كاشفة مثل: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [سورة البقرة:٦١]، ولا يمكن لأحد أن يقتل نبياً بحق, ولذلك إذا قلنا: إن الإلحاد لا يقع أبداً إلا بظلم فتكون هذه من باب الصفة الكاشفة, يعني ليس صفة مقيدة، والله -عز وجل- يقول مثلاً: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا} [سورة الأحزاب:٥٨]، {بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا} لأنه يمكن أن يؤذي المؤمنين والمؤمنات بما اكتسبوا، بسبب ظلمٍ صدرَ منهم، فهذه الصفة مقيدة وليست كاشفة، قال عن ابن عباس: {بِظُلْمٍ} بشرك، ونقل أيضاً عنه: "أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة، أو قتل، فتظلم وتقتل....إلى آخره" قال مجاهد: يعمل فيه عملاً سيئاً، كل هذا يمكن أن يقال: إنه من الصور الداخلة تحت قوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ}؛ لأن الإلحاد نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم, وبهذا كلام ابن كثير -رحمه الله- في الآخر, وكلام سعيد بن جبير: شتم الخادم ظلم فما فوقه هذا هو الأقرب في تفسير الآية, فذلك يعم جميع الصور القليل والكثير من المعاصي كله يدخل في قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} وهذا الذي اختاره ابن جرير وقال به من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- أن الآية على عمومها، فهذا وعيد لكل من تسول له نفسه الإساءة والمعصية في حرم الله -عز وجل-، ويدخل في هذا ألوان المعاصي بالنظر، والكلام بالغيبة إلى غير ذلك, ولهذا ينقل عن بعض السلف الاحتياط في مثل هذه الأمور فيذكر أن ابن عمر -رضي الله عنه- كان له فسطاطان واحد في الحل، والثاني في الحرم, وكلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: "**وهذه خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر، إذا كان عازماً عليه**" هذا القيد "عازماً عليه" قد يناقش، وإنما يكفي الهم في ذلك وإلا فالعزم فيه وفي غيره, ولهذا في السبب في تخليد الكفار في النار مع أنه عبد غير الله -عز وجل- قد يكون سنة أو عشر سنوات أو ستين سنة، بحيث يكون عازما هو على الاستمرار على هذا {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ} [سورة الأنعام:٢٨] فعزمه هذا المصمم هو بمنزلة الفعل.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (٩)

من قوله تعالى"وإذ بوأنا" الآية ٢٦إلى قوله تعالى"من كل فج عميق" الآية٢٧

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة، وأتم التسليم، أما بعد:

فقال -رحمه الله تعالى-:

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، في البقعة التي أسستْ من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بَوّأ إبراهيم مكانَ البيت، أي: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له في بنائه.

واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم -عليه السلام- هو أول من بنى البيت العتيق، وإنه لم يُبن قبله، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر قلت: يا رسول الله أي مسجد وُضعَ أول؟ قال: ((المسجد الحرام)) قلت: ثم أي؟ قال: ((بيت المقدس)) قلت: كم بينهما؟ قال: ((أربعون سنة))(١).

وقد قال الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا} الآيتين [آل عمران: ٩٦، ٩٧] وقال تعالى: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [البقرة: ١٢٥].

وقال تعالى هاهنا: {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحج (٢٦)] أي: ابْنِه على اسمي وحدي، {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ} [سورة الحج (٢٦)] قال قتادة ومجاهد: من الشرك {لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [سورة الحج (٢٦)] أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، {وَالْقَائِمِينَ} أي: في الصلاة؛ ولهذا قال: {وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا

---

١ - أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض} (٦/ ١٢٦ – ٤٨١٤) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (١/ ٣٧٠ - ١) (٥٢٠).

يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال إلا ما استثني من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب، وفي النافلة في السفر، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} [سورة الحج (٢٦)] يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي أرشده إليه، وسلمه له، وأذن في بنائه، فيكون معنى: (بوأنا لإبراهيم) على هذا التفسير أي: أرشدناه، وهديناه إلى مكان البيت أو إلى موضع البيت، فهذا معناه.

وابن جرير -رحمه الله- عبر عن معنى (بوأنا) فقال: يعني وطأنا لإبراهيم مكان البيت، وقد تُكوّن هذه المعاني أو هذه العبارات معنىً واحداً متقارباً، هيأنا ووطأنا أي: هديناه إلى مكان البيت وأرشدناه إليه، فإذا هيأه له وأرشده إليه ووطأه له فهذا كله بمعنى متقارب.

وبعضهم يقول بأن اللام زائدة (بوأنا لإبراهيم مكان البيت) وهو قول الفراء، وإذا قلت: زائدة -يعني إعراباً- وحذفتها يكون و(إذ بوأنا إبراهيم مكان البيت) أي: أنزلنا إبراهيم مكان البيت، وإنزاله مكان البيت يعني إنزاله في مكة عند الحرم في المحل المعروف، حيث وضع أهله هناك، لكن الأصل عدم الزيادة، وإلا فإن أصل التبوّء هو النزول والسكنى، مثل: ((فليتبوأ مقعده من النار))[٢] أي: فليأخذ مقعده، أو فليسكن ولينزل وهكذا، يقال: (باءوا بغضب من الله) ويقال: المباءة: المكان الذي ينزل فيه الإنسان ويرجع إليه بعدما يتفرق بأشغاله وحاجاته وشئونه يرجع إليه، وعلى كل حال بعضهم يعبر عن هذا بعبارات مقاربة.

الشنقيطي -رحمه الله- يقول: هيأناه له وعرفناه إياه ليبنيه بأمرنا، لكن تفسير الفراء فسره بما هو أقرب في معنى هذه اللفظة لفظة (بوأنا) لأن هذه اللفظة تدل على النزول والسكنى، الحلول بالمكان تدل عليه (بوأنا) لكن دخول اللام (بوأنا لإبراهيم) هو الذي حمل أكثر أهل العلم على تفسيره بمعانٍ كهيأنا أو وطأنا أو أرشدنا أو نحو ذلك.

على كل حال الله -تبارك وتعالى- دل إبراهيم على هذا المحل، وأرشده إليه، وهيأه له، فنزل به -عليه الصلاة والسلام- بأمر الله -عز وجل- وعرفه مكان البيت فبناه، فهذه بمجموعها داخلة في معنى (بوأنا).

---

٢ - أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي -صلى الله عليه وسلم- (١/ ٣٣- ١٠٧) ومسلم في باب في التحذير من الكذب على رسول الله -صلى الله تعالى عليه وسلم- (١/ ١٠- ٢) (٢).

وقوله: {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحـــج (٢٦)]... إلى آخره، ما تكلم عليها.

على كل حال {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحـــج(٢٦)] بعضهم يقول بأن (أن) هذه مفسرة، مفسرة لماذا؟ مفسرة لما قبلها وهو الفعل الذي هو (بوأنا) (بوأنا له مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً) فيكون قوله: {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحـــج(٢٦)] تفسيراً لها، لكن هل قوله: {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحـــج(٢٦)] هو تفسير للفظة (بوأنا) بالمعنى المطابق؟ هذا فيه إشكال.

لكن هؤلاء الذين قالوا بهذا القول قالوا: إن (بوأنا) مضمن معنى فعل آخر يصلح أن يفسر بما بعده فتكون (أن) مفسرة {أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحـــج(٢٦)] قالوا: مضمن معنى فعل (تَعبَّدنا) وكما ذكرنا لكم من قبل أن الفعل قد يضمن معنى الفعل، فقالوا: إن (بوأنا) مضمن معنى تعبدنا إبراهيم أن لا تشرك بي شيئاً، لكن أيضاً هذا لا يخلو من إشكال؛ لأنه قال: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} [سورة الحـــج(٢٦)] هل يقال: تعبدنا إبراهيم مكان البيت؟ فهم راعوا (أن) دون ما قبلها، فقالوا بالتضمين.

وبعضهم يقول: إن (أن) هنا مصدرية، وإذا قيل: إنها مصدرية يكون المعنى هكذا: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت لا تشرك بي) وبعضهم يقول: (أن) زائدة، ويرجع إلى المعنى السابق (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت لا تشرك) فيكون فيه مقدر محذوف، يعني قلنا له: لا تشرك، وهذا له نظائر، فيُحذف القول، كما سبق في بعض الآيات: {وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [سورة الحـــج(٢٢)] يعني: قيل لهم: ذوقوا، وهكذا.

وبعضهم يقول: إن المعنى: (وأوحينا إلى إبراهيم ألا تعبد غيري) وفيه مقدر محذوف، يعني (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت وأوحينا إليه لا تشرك بي شيئاً) ويدل على المحذوف: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} [سورة البقرة(١٢٥)] فهنا محذوف (وعهدنا إلى) نقول: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) وعهدنا إليه ألا تشرك بي شيئاً، وهذا له وجه، الحذف لا شك أنه موجود في القرآن اختصاراً لكلام العرب، وهذا لا شك أنه من مقتضيات البلاغة، وهو حذفُ ما يُفهم من الخطاب، وانظر مثلاً في قوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} [سورة الحشر(٩)] فقوله: {تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} هل الإيمان يُسكن؟ لا، الإيمان ما يسكن، فيكون فيه مقدر: والذين تبوءوا الدار، واعتقدوا الإيمان، أو تبوءوا الدار ولزموا الإيمان، فهنا {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [سورة الحـــج(٢٦)] يعني: وأمرنا أن لا تشرك بي شيئاً، وأوحينا إليه أن لا تشرك بي شيئاً، وعهدنا إليه، كما تدل عليه الآية الأخرى، وهذا الأخير هو الذي اختاره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله.

أما الكلام على هذه المسألة وهو أن الآية قد تدل على أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو أول من بنى البيت، فإن الآية تحتمل ذلك، لكنها ليست بنص قاطع فيه؛ لأن من يقول بأن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ليس أول من بنى البيت، وأنه بُني من قبل، طيب كيف الله -عز وجل- أخبر أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو الذي بناه؟! فالذين يقولون: بني من قبل يقولون: طمر أثناء الطوفان، والله -عز وجل- أرشده إلى مكانه، فأقامه إبراهيم على الأسس والقواعد الأصلية.

وبعضهم يقول: الذي بناه آدم -صلى الله عليه وسلم- وبعضهم يقول: بنته الملائكة، لكن ليس عندنا دليل صحيح يدل على هذا، والحديث الذي أورده الحافظ ابن كثير وهو حديث أبي ذر -رضي الله عنه- لما سأل أي مسجد وضع أولاً؟ قال: ((المسجد الحرام)) قلت: ثم أي؟ قال: ((بيت المقدس)) قال: كم بينهما؟ قال: ((أربعون سنة)) فهذا يدل على أن الأولية مطلقة، يعني في بناء إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} [سورة آل عمران(٩٦)] فأبو ذر يسأل عن أول بيت، فقال له: المسجد الحرام، لو بقينا مع هذه فقط فهو محتمل أنه بنته الملائكة، بناه آدم -صلى الله عليه وسلم- مثلاً، لكن حينما يرد السؤال الآخر وهو: كم بينهما؟ فيقول: ((أربعون سنة))[٣] فهذا يدل على أنه لم يبنه آدم، ولم تبنه الملائكة قبل ذلك، فهذا دليل واضح على أن أول من بنى البيت هو إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وأنه لم يكن قبله.

وأما المرويات الإسرائيلية في معنى: (وبوأنا) فبعضهم يقول: جاءت ريح فأخرجت القواعد، على القول بأنه كان قبله، وبعضهم يقول: جاءت سحابة، فأمر بأن يقدر على مقدارها، كل هذا لا دليل عليه، كل هذا من الإسرائيليات، الله -عز وجل- أرشده إلى المكان الذي يبني فيه بيته، فأسسه وبناه، ووضع قواعده، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو أول من وضع القواعد، كما قال الله -عز وجل-: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ} [سورة البقرة(١٢٧)] ولا زالت قواعد إبراهيم موجودة إلى اليوم، والذين كشفوا عنها وشاهدوها ذكروا هذا، والتوسعة والأعمال الأخيرة التي حصلت قبل سنوات كشفت عن القواعد والنظر فيها وقوتها وثباتها فوجدوها على حالها لم تتغير.

---

[٣] - أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض} (٦/ ١٢٦ – ٤٨١٤) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (١/ ٣٧٠ - ١) (٥٢٠).

وفي عهد ابن الزبير لما احترق البيت، ضُرب بالمنجنيق في أيام الحجاج؛ لما حاصره -أو قبله- بناه ابن الزبير، هدمه تماماً وحفر حتى وجد القواعد كالأسنمة، فأشهد الناس، وبناه على قواعد إبراهيم.

على كل حال الذين يقولون بأن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لما جاء ووضع أهله هناك قال: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} [سورة إبراهيم(٣٧)] فالبيت كان قبله، وهذا قبل البناء؛ لأن البناء حصل بعدُ، ويحتجون أيضاً ببعض الأدلة التي يمكن أن يستخرج ذلك منها كالآية نفسها: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} [سورة الحـــج(٢٦)] فـــ(ال) في قوله: (البيت) عهدية، في بيت معهود، لكن هذا ليس بقاطع، لأن الله أوحى إليه أنه سيكون هنا بيت، كما جاء في الحديث: لما جبريل قال لأمه هاجر أخبرْها بذلك، وأن هذا الغلام سيبنيه، فهذا بوحي الله -عز وجل- فـــ(عند بيتك المحرم) يعني الذي سيُبنى، المكان الذي اخترتَه لبيتك، وإن لم يوجد بعد.

وهكذا هنا في قوله: {مَكَانَ الْبَيْتِ} مكان البيت المعهود في أذهانكم الذي تعرفونه، تحجون إليه فدخول (ال) هنا لا إشكال فيه، وقد يُستنبط منه بعض اللطائف في مثل قوله: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ} [سورة البقرة(١٢٦)].. الآية، وقوله: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} [سورة إبراهيم(٣٥)] فجاءت (البلد) في الأول نكرة، وفي الثانية معرفة، ومن اللطائف التي تستنبط ما يقوله بعضهم: إن لفظ "بلداً" كان قبل وجوده، حينما جاءوا وإذا الأرض قفر ليس فيها شيء، فقال: اجعله بلداً آمناً، فلما وُجد دعا مرة أخرى: (اجعل هذا البلد).

مثل: {وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [سورة الفتح(٢)] مع قوله: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [سورة الفاتحة (٦)] يهديه صراطاً قبل أن يعرِّفه به، قال: {وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [سورة الفتح(٢)] فلما عرَّفه به وعرَفه دعا فقال: {اهدِنَا الصِّرَاطَ} [سورة الفاتحة (٦)] يعني الذي عرَّفتنا به، يعني في مثل هذه المواضع يمكن أن تستخرج بعض هذه اللطائف، لكن هنا مكان البيت لا يلزم، والله تعالى أعلم.

{وَطَهِّرْ بَيْتِيَ} [سورة الحـــج(٢٦)] قال قتادة ومجاهد: من الشرك للطائفين والقائمين والركع السجود.

على كل حال التطهير للبيت ليس من الشرك فقط، بل يطلب تطهيره من كل دنس حسياً ومعنوياً، فيطهر من الشرك، ومن الآثام ومن الإلحاد فيه، ويطهر من القذر والنجاسات والأذى، كل هذا داخل فيه، وعلى رأس ذلك الشرك.

{وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} [سورة الحـــج(٢٦)] هل هذا يختص بمكان الصلاة -أي المسجد-؟ أو الحرم بكامله؟ {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} [سورة الحـــج(٢٦)] ذكْرُ الطائفين والعاكفين يدل على المسجد، لكن الحرم كله الأدلة الأخرى تدل على دخوله، والله -عز وجل- يقول: {يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [(٢٨) سورة التوبة] الحرم كله، فدل ذلك على أنه يمكن أن يفهم من مجموع هذه الأدلة أن ذلك يشمل الحرم كله، وإذا كان ذلك فيصدق بصورة أولية على المسجد، مسجد الكعبة.

وابن القيم -رحمه الله- عمم المعنى، فقال: "يدخل فيه منى ومزدلفة والحرم كله" فيرى أن هذا هو المراد بقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ} [سورة الحـــج(٢٦)] أن هذا كله في الحرم، فتدخل فيه المشاعر، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ} [سورة الحـــج(٢٦)] بالنسبة للقائمين: يعني في الصلاة (والركع السجود) أيضاً هم المصلون، وذكر هنا الطواف والصلاة لأنهما أبرز العبادات التي يتعبد لله -عز وجل- بها في الحرم.

وقوله: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ} [سورة الحـــج(٢٧)] أي: نادِ في الناس بالحج، داعياً لهـــم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذُكر أنه قال: يا رب وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: نادِ وعلينا البلاغ، فقام على مقامه وقال: يا أيها الناس إن ربكم قـــد اتخـــذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع مـــن فـــي الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه -من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة- لبيك اللهم لبيك، وهذا مضمون ما روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمـــة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف، والله أعلم، أوردها ابن جريـــر وابـــن أبـــي حـــاتم مطولة.

كثير من المفسرين وأصحاب السير يرددون هذه الحكاية، ولكن لا أعلم أنها تثبت بإسناد صحيح، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (١٠)

من قوله تعالى"ليشهدوا مَنَافِعَ لهم" الآية٢٨إلى قوله تعالى"وليطوفوا بالبيت العتيق" الآية٢٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لشيخنا وللحاضرين والمستمعين.

قال -رحمه الله تعالى-: وقوله: {يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [سورة الحج:٢٧] قد يَستدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا لمن قدر عليه أفضلُ من الحج راكبا؛ لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم، وقال وكيع عن أبي العميس عن أبي حلحلة عن محمد بن كعب عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "ما آسَى علي شيء إلا أني وددت أني كنت حججت ماشيا؛ لأن الله يقول: {يَأْتُوكَ رِجَالا}"، والذي عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل؛ اقتداء برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإنه حج راكبا مع كمال قوته -عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {يَأْتُوكَ رِجَالا} يعني: غير ركبان، يعني مشياً على الأقدام، {يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ} والضامر هو العير المهزول الذي قد أعياه طول السفر هذا المراد هنا -والله تعالى أعلم-، والمضمر عموماً من الإبل والخيل، يقال: لما حصل له ذلك بسبب التعب وطول السفر، ويقال ذلك: لمن فعل به ذلك؛ لأنهم كانوا يضمرون الخيل مثلاً للحرب، وذلك بأن تعلف وتطعم بصورة جيدة، ثم بعد ذلك توضع في مكان بارد ويوضع عليها من الأغطية ما تعرق معه جداً فيذهب ما بها من شحم فلا يبقى فيها إلا المتماسك بحيث تكون قوية تتحمل الكر والفر والسفر والمشي الطويل ونحو ذلك، لكن المراد هنا {وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} هذا المهزول الذي قد أذهب ما به من لحم لطول السفر، والله أعلم .

وقدّم المشاة على الركبان في قوله سبحانه: {يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}؛ للاهتمام بهم وقوة هممهم، وشدة عزمهم، لكن هل يدل على أن الحج مشياً على الأقدام أفضل؟ وما المراد بالحج على الأقدام؟ أيخرج الإنسان من بلده على قدميه أو أن المراد به أن الإنسان ينتقل بين المناسك على قدميه؟ فالثاني هو المقصود في كلام أهل العلم في تفضيل الماشي على الراكب عند مَن فضّله كما جاء في أثر ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-، ولمَا ذكر عن الحسن بن علي -رضي الله عنه- أنه حج خمساً وعشرين حجة على قدميه والنجائب تقاد بين يديه، فقد يأتي الإنسان على راحلة من بلده فإذا جاء مكة صار يتجول بين المناسك على قدميه، وهذا الذي يبدو أن الحسن وغيره فعلوه ممن يرون فضل الحج ماشياً لا أنه قَدِم على قدميه من العراق أو من المدينة، والجمهور من أهل العلم على أن الحج راكباً أفضل؛ لأنه فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، والذين قالوا: إن الحج على الأقدام أفضل اعتذروا عن فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه فعلَ

ذلك للحاجة، بحيث يراه الناس فيقتدوا به في مناسك الحج؛ لأنه قال لهم: ((خذوا عني مناسككم))[1]، فركب دابته -صلى الله عليه وسلم- من أجل هذا، وعامة أهل العلم على أن الحج راكباً أفضل؛ لفعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، والذي يحتاج إلى بيان أنّ تقصّد المشقة في العبادة غير مطلوب للشارع، ويدل على هذا أدلة كثيرة، منها قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله لغنيٌّ عن تعذيب هذا نفسه))[2]، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام- في الرجل الذي وقف في الشمس والنبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب، فقالوا: إنه نذر أن لا يستظل ويصوم، فتقصُّدُ المشقة في العبادة غير مطلوب، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لعائشة -رضي الله عنها-: ((إن أجرك على قدر نَصَبك))[3]، لا يفهم منه بحال أن تقصّد التعب مطلوب من أجل كثرة الأجر، وإنما المقصود به المشقات العارضة التي تحصل للإنسان من غير طلب، بمعنى لو كان الإنسان مثلاً يستطيع أن يرمي الجمار في وقت لا يشق عليه بسبب الزحام، وكذلك فيما يتعلق بحر الشمس فلا يتقصد الذهاب في شدة الزحام أو في وقت شدة الحر من أجل المشقة، فهذا غير مقصود للشارع ولا مطلوب، ومثل هذا لا يقال فيه: إن الأجر يطلب بمثل هذه المشقات، فلا يتقصد الإنسان المشي في الحج من أجل الأجر، لكن ينظر فيما هو أصلح لقلبه وأحسن له وأنفع، وكذا فقد يكون ركوبي في السيارة أصعب عليّ من المشي؛ لأني في السيارة أجلس سبع ساعات وأنا أنتظر في مسافة لا تتجاوز لربما سبعة كيلو مترات، أجلس في السيارة حتى الوضوء لا أستطيع أن أتوضأ، ولا أستطيع أن أنزل لأتوضأ، يدخل وقت الصلاة ويخرج وأنا جالس في السيارة، ورائحة السيارات وما أشبه ذلك، فالمشي أرفق بي؛ لأني لا أتوقف، وأنا أنشط للمشي، يقال له هذا هو الذي يصلح لك، وآخر يقول: أنا إذا مشيت تعطلت يحصل لي من آثار المشي ما يجعلني أعجز عن القيام لكثير من الأعمال تنشل الحركة، فيقال في مثل هذا: اركب، فمثل هذه الأمور يراعى فيها حال الإنسان -والله تعالى أعلم-، لكن لا يتقصد المشقة، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} فهنا قال: {يَأْتِينَ} بصيغة الجمع، وذلك باعتبار المعنى، وقوله: {وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ} فـ"كل" تدل على العموم يعني: ضوامر فهي بمعنى الجمع، {وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ} أي: هذه الضوامر تأتي، {مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} أي من كل طريق، و{عَمِيقٍ} أي بعيد، وكلمة عميق تستعمل في البعد من الناحية الأفقية، وكذلك البعد من ناحية العمق، وهذا أكثر ما يستعمل به هذا اللفظ، يقال: بئر عميقة، حفرة عميقة، في العمق، ويقال ذلك في البعد، فيقال: ناحية عميقة، يعني بعيدة، وهكذا طريق عميق أي طويل، ويمكن أن يقال: إنه قدم ذكر الرجال هنا، {يَأْتُوكَ رِجَالًا} أي: ليُفهِم معنى، أو قد يُفهَم معني -لا يقال هذا تعليل للتقديم-، من تقديم {يَأْتُوكَ رِجَالًا} أو على الأقل ذكر الرجال هنا من أجل ألا يفهم أن الحج لا يجب إلا على من ملك الراحلة، ولهذا فإن الكثيرين يفسرون

---

١ - رواه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا وبيان قوله -صلى الله تعالى عليه وسلم- لتأخذوا مناسككم، برقم (١٢٩٧).

٢ - رواه مسلم، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية، برقم (٦٣٢٣).

٣ - رواه مسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران، وجواز إدخال الحج على العمرة ومتى يحل القارن من نسكه، برقم (١٢١١).

الاستطاعة في الحج {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [سورة آل عمران:٩٧] فيقولون: من ملك الزاد والراحلة، وليس ذلك بشرط؛ لأن الله -عز وجل- قال: {يَأْتُوكَ رِجَالا} فقد يستطيع الإنسان أن يأتي بدون راحلة كأهل مكة، فالزاد والراحلة ليست من شروطه، لكن إذا كان لا يتوصل إلى الحج إلا بالراحلة، فتكون من باب مالا يتم الواجب إلا به، أما أن يجعل هذا من الشروط على الإطلاق، فهذا يحتاج إلى دليل، ولا دليل على هذا، وبعض أهل العلم يقول: إنه قدم المشاة جبراً لقلوبهم، وخواطرهم؛ فإنه لربما يحصل لهم نوع تنقص من قبل الركبان، يقولون: هؤلاء لا يجب عليهم الحج، فلماذا يفعلون ذلك بأنفسهم؟، يعني حينما تمشي القافلة، يمشي الناس على الإبل كما هو معروف في السباق تجد مقطورة طويلة من الإبل، كل بعير يربط بالآخر، ويمشون بطرق في الصحراء، صحيح أنها غير مرصوفة لكنها معروفة، مسالك في الصحراء يسلك الناس عليها في الأسفار قديماً، ولا زالت بعض آثارها موجودة إلى اليوم، وطرق الحجاج في التنقل في المشاعر بعض آثارها موجودة إلى اليوم، فالشاهد أن الناس كانوا يمشون على طرق -يعني يسلكها السالكون قبلهم-، ومنهم الذين يمشون على أقدامهم مع هذه القافلة، أو هذه الرواحل وربما نظر إليهم الركبان وقالوا: إن هؤلاء قد حملوا أنفسهم أمراً، فالله -عز وجل- ذكر المشاة قبلُ، هذا ذكره بعض أهل العلم، لكن مثل هذه المعاني الملتمسة لا يقطع بها، {يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [سورة الحج:٢٧] وكل هذا يدل على أن الأصل في الحج المشقة، وليس اليسر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال لعائشة -رضي الله عنها- لما سئل عن الجهاد وهل على النساء؟ فقال: ((عليكن جهاد لا قتال فيه، الحج والعمرة))[٤]، فسماه جهاداً، وبعض أهل العلم أدخله في عموم قوله: {فِي سَبِيلِ اللَّهِ} -مصارف الزكاة-، قالوا: سواء هؤلاء يأتون على أقدامهم، أو الذي يأتي على هذا البعير المهزول من طول السفر، يأتي من أماكن بعيدة جداً، ولذلك فإن طلب الراحة في الحج، وأن يكون ذلك مقصوداً للناس وهدفاً كما هو الحاصل لدى الكثيرين هذا خلاف الأصل في السفر، ولهذا يوطن الإنسان نفسه على المشقة ولا يتقصد الترف في حجه، ولا يطلب المشقة في نفس الوقت، لكنه يوطن نفسه على الصبر، يصبر ويتحمل إذا فاته شيء من لذاته ولا يجزع، ولا يشتم الحجاج، ولا يبطل حجه بما يصدر منه من الأقوال، والأفعال بسبب أنه وجد أمورا غير مألوفة، هذا زاحمه، وهذا ضايقه، وهذا نام في فراشه، وهذا جلس في مكانه، فهذا لا يليق.

وقال -رحمه الله-: وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [سورة إبراهيم:٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

هذا المعنى تكلم عليه ابن القيم -رحمه الله- كلاماً جيداً، وذكر من آثار دعوة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أنه ما يفرغ الإنسان من المناسك ويرجع إلى بلده إلا وحن إليه مرة أخرى، وهذا من خصائص مكة، وهكذا

---

٤ - رواه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب الحج جهاد النساء، برقم (٢٩٠١)، وأحمد في المسند، برقم (٢٥٣٢٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وابن خزيمة في صحيحه، برقم (٣٠٧٤)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل برقم (٩٨١).

الناس بهذه الصورة المستمرة يشتاقون إليها ويحنون إليها، وهذا الحنين لا يوجد لبلد آخر، وإنما يسافر الإنسان مرة لبلدٍ ما إذا كان له حاجة فيه، فإذا قضاها رجع منه ولا يعاوده الحنين إلى هذا البلد، بخلاف مكة، وهذا لا يوجد في المدينة.

وقوله: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [سورة الحج:٢٨-٢٩].

قال ابن عباس: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} **قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله.**

كلام السلف في هذه المنافع كثير، منهم من حملها على المنافع الأخروية {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} المناسك، الطواف، والسعي وهكذا أيضاً الهدايا والقرابين وما أشبه ذلك، وكذلك ما يحصل من جراء ذلك من الأجور، فهذه منافع لهم ((والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))[٥]، وغفران الذنوب فهي منافع، ((من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه))[٦]، ومن أهل العلم من ألحق بذلك التجارات، والله -عز وجل- يقول: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ} يعني: التجارة في الموسم من المنافع، والصحيح أن ذلك يعم هذه الأمور جميعاً، ومن ذلك المنافع الأخروية من غفران الذنوب، والجنة، والثواب، والأجر، وشهادة هذه الأماكن، والاستجابة لدعوة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة، وأضف إلى ذلك منافع أخرى أن يلتقي المسلمون ويحصل بينهم تعارف، وتشاور في مصالحهم، ويتعلمون ما ينفعهم ويؤدون النسك، وهكذا ما يحصل من التجارة والكسب، والناس كانوا يجلبون معهم إذا جاءوا من بلادهم ألوان التجارات، فيحصل لهم انتفاع بالأرباح، ويأتي آخرون يشترون، وهذه منافع لهم، كانت تقام أسواق في منى، وغيرها، هذا كله داخل فيه {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ}، وممن حمله على العموم الحافظ ابن كثير، وابن جرير الطبري، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وقولهم: ما خص بعض هذه المنافع {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ} فيصدق على ما كان منفعة، وأما منافع الدنيا فيما يصيبون من منافع البُدن؛ لأن ذلك أكثر ما يقدم، وهو أجلُّ ما يقدم من القرابين، وهي الإبل، والعلماء مختلفون هل البقر يلحق بها أو لا؟.

ومن المنافع: البُدن والذبائح والتجارات، ويصلح أن يقال: والربح والتجارات من المنافع، والذبائح، وهذا أقرب في مراد ابن كثير؛ لأنه ذكر البُدن، وهناك أشياء أخرى تقدم قرابين مثل ذبح الغنم، فالذبائح هي الغنم، فهم ينتفعون بها.

وقوله: وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن والربح و التجارات، وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ} [سورة البقرة:١٩٨].

---

٥ - رواه البخاري، أبواب العمرة، باب وجوب العمرة وفضلها، برقم (١٦٨٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، برقم (١٣٤٩).

٦ - رواه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في قيام شهر رمضان، برقم (١٣٢٨)، وبرقم (١٤٠٨)، في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس، وأحمد في المسند، برقم (١٠٢٧٤)، وقال محققوه: إسناده حسن.

وقوله: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} قال شعبة وهُشَيْم عن أبي بشر عن سعيد عن ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم به، وروى مثله عن أبي موسى الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخرساني، وإبراهيم النَّخعي.

الأيام المعلومات فيها كلام كثير لأهل العلم منها أنها العشر، وهذا ليس محل اتفاق، والذين يقولون هذا يقولون: إن الأيام المعدودات هي أيام التشريق، ومن أهل العلم من يقول: إن الأيام المعلومات هي يوم النحر، وثلاثة أيام بعده، وبعضهم يقول: يومان بعده، وبعضهم يقول: غير هذا، ويمكن عرض هذه الأقوال للفائدة، حتى يتصور الإنسان كلام أهل العلم في الأيام المعلومات.

واختلف المفسرون في المراد بالأيام المعلومات على أقوال:

القول الأول: أنها عشر ذي الحجة، وهو مروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ}، أيام العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق، وهذا القول يروى عن ابن عمر، وأبي موسى الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخرساني، وإبراهيم النَّخعي، وروي عن أبي حنيفة، وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل، وحكاه البغوي عن أكثر المفسرين، ونسبه ابن رجب إلى جمهور العلماء وهو الأولى بالصواب إن شاء الله.

القول الثاني: أنها تسع ذي الحجة، أي: لا يدخل فيها يوم النحر وهو مروي عن أبي موسى الأشعري، وهذا القول قريب من الأول.

القول الثالث: أنها أيام التشريق الثلاثة، وهو مروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، والضحاك، وعطاء الخرساني وإبراهيم النخعي.

القول الرابع: أنها يوم النحر ويومان بعده، وهو مروي عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: "الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام يوم النحر"، وهذا القول مروي عن سعيد بن جبير، وهو مذهب مالك.

القول الخامس: أنها أربعة أيام، يوم النحر وأيام التشريق، وهذا القول مروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وعزاه ابن كثير إلى ابن عمر -رضي الله عنهما-، وابراهيم النخعي، وإلى الإمام أحمد في رواية عنه، ورجحه الطحاوي، ومن المعاصرين الشنقيطي صاحب الأضواء.

القول السادس: أنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده، وهو مذهب أبي حنيفة.

القول السابع: أنها خمسة أيام أولها يوم عرفة، روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وزيد بن أسلم.

القول الثامن: أنها يوم السابع من ذي الحجة، ويوم التروية، ويوم عرفة، روي عن ابن عباس.

وفي سبب تسميتها بالأيام المعلومات قال الثعلبي: إنما قيل لها معلومات للحرص على علمها من أجل أن وقت الحج في آخرها، وبنحوه قال ابن الجوزي في التفسير.

وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما العمل في أيام أفضل منها في هذه))، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ((ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء))[٧].

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العملُ فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهم من التهليل والتكبير والتحميد))[٨].

وقال البخاري: وكان ابن عمر، وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما[٩].

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن صيام يوم عرفة، فقال: ((أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية))[١٠].

ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله.

يوم الحج الأكبر الأرجح أنه يوم النحر، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم؛ لأمرين:

الأمر الأول: لأن ذلك ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

والأمر الثاني: لأن عامة أعمال الحج هي في يوم النحر، ففيه الحلق، والرمي، والطواف، والسعي، فهو الحج الأكبر، ومن أهل العلم من يقول: إن الحج الأكبر هو يوم عرفة، ولهم أدلة على ذلك.

يوم الحج الأكبر، وذلك على الصحيح من أقوال أهل العلم، وقد اختلف العلماء في المراد بيوم الحج الأكبر المذكور في قوله تعالى: {وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ} الآية، وذلك على أربعة أقوال:

القول الأول: أن المراد به يوم عرفة، وهو قول عمر وعثمان وابن عباس وعبد الله بن الزبير، وعنترة بن عبدالرحمن الشيباني، وعطاء ومجاهد وطاوس وسعيد بن المسيب، وهو مذهب أبي حنيفة، وروي عن الشافعية، واستدلوا بأدلة منها:

أولاً: حديث محمد بن قيس بن مخرمة: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطب بعرفة فقال: ((أما بعد: فإن هذا يوم الحج الأكبر))[١١]**، الحديث.**

---

٧ - رواه البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، برقم (٩٢٦).

٨ - رواه أحمد في المسند برقم (٥٤٤٦)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف يزيد بن أبي زياد وهو الهاشمي مولاهم الكوفي، وباقي رجال إسناده ثقات رجال الشيخين.

٩ - صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، (٣٢٩/١).

١٠ - رواه مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس، برقم (١١٦٢).

١١ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، برقم (١٦٥٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "لا ترجعوا بعدي كفارا"، برقم (٦٦).

قال المحقق معلقاً: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير في تفسيره، وابن أبي حاتم في تفسيره، والبيهقي في السنن من طرق عن ابن جريج عن محمد بن قيس مرسلاً، قال الحافظ في التقريب: يقال: له رؤية وقد وثقه أبو داود وغيره انتهى.

ولفظ ابن حجر يدل على تضعيف قول من قال: إنه من الصحابة.

وقال في الإصابة: ذكره ابن أبي داود والباوردي في الصحابة وجزم البغوي وابن منده وغيرهما بأن حديثه مرسل. ا هـــ.

قلت: جعل العلائي في جامع التحصيل والعراقي في تحفة التحصيل روايته من قبيل المرسل، بل أرسل عن عمر وأبي هريرة كحديث محمد بن قيس مرجوح عند معارضته بما هو أصح منه.

ثانياً: حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلمي بلفظ: ((الحج يوم عرفة))[١٢] أي: أنه من لم يقف بعرفة فلا حج له، فيصح أن يكون هو الحج الأكبر.

ثالثاً: ومما استدلوا به حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قسم يومئذ في أصحابه غنماً، فأصاب سعد بن أبي وقاص تيساً فذبحه عن نفسه، فلما وقف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعرفة أمر ربيعة بن أمية بن خلف فقام تحت يدي ناقته -وكان رجلاً صيتاً- فقال: ((اصرخ: أيها الناس أتدرون أي شهر هذا؟))، فصرخ، فقال الناس: الشهر الحرام، فقال: ((اصرخ: أتدرون أي بلد هذا؟))، فصرخ، فقال الناس: البلد الحرام، فقال: ((اصرخ: أتدرون أي يوم هذا؟))، قالوا: الحج الأكبر"[١٣] الحديث. هذا الحديث أحسن ما يستدلون به، لكنه معارض أولاً بما هو أصح منه، ثم إن الناس هم الذين قالوا: إن يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر، فإن قيل: قد أقرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- على ذلك، أجيب: بأنه بيَّن أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، وسيأتي ذكر مواضع تصريحه -صلى الله عليه وسلم- بذلك قريباً -إن شاء الله-، فيُقدَّم ما صرح به على ما يفهم أنه أقره.

القول الثاني: أن المراد بيوم الحج الأكبر يوم النحر، وهو قول علي بن أبي طالب، وعبد الله بن أبي أوفى، والمغيرة بن شعبة، وأبي موسى الأشعري، وابن عمر، وروي عن ابن عباس أيضاً، ومن التابعين عبد الله بن شداد بن الهاد، وقيس بن عباد، وسعيد بن المسيب، وأبي جحيفة، وسعيد بن جبير، ونافع بن جبير بن مطعم، وإبراهيم النخعي، وعامر الشعبي، ومحمد بن سيرين، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ومحمد الباقر، والزهري، وهو مروي عن مجاهد أيضاً، وهو قول مالك والصحيح من قول الشافعي، وبه قال أصحابه، وبعض أصحاب أبي حنيفة، ورجح هذا القول ابن جرير في تفسيره، وابن تيمية وتلميذه ابن القيم، والشوكاني، واستدل هذا الفريق بأدلة كثيرة منها:

---

١٢ - رواه أبو داود، كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة، برقم (١٩٤٩)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٧٧٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير بكير بن عطاء: وهو الليثي الكوفي، فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٧٠٣).

١٣ - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١١٣٩٩).

أولاً: حديث رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "خطبنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على ناقة حمراء مخضرمة فقال: هذا يوم الحج الأكبر"[١٤].

ثانياً: حديث ابن عمر: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج، فقال: ((أي يوم هذا؟))، فقالوا: يوم النحر، قال: ((هذا يوم الحج الأكبر))[١٥].

وفي الباب عن عمرو بن الأحوص، وأبي بكرة، وعبد الله بن الزبير.

ثالثاً: حديث أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: "لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر"[١٦]، وإنما قيل: الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- مشركٌ.

قالوا: يوم النحر فيه الحج كله؛ لأن الوقوف يصح في ليلته، وفي يومه الرمي والنحر والحلق والطواف، وقد وقعت المناظرة بين محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن شيبة في يوم الحج الأكبر، فقال محمد: هو يوم النحر، وقال عبد الله: هو يوم عرفة، فأرسلا إلى سعيد بن جبير فقال: هو يوم النحر، ألا ترى أن من فاته يوم عرفة لم يفته الحج، فإذا فاته يوم النحر فقد فاته الحج.

والصواب -والله أعلم- أن المراد بيوم الحج الأكبر هو يوم النحر؛ لتضافر الأدلة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة والتابعين في تعيينه بيوم النحر.

المقصود بقوله: "**فاته يوم عرفة**" أن اليوم ينتهي بغروب الشمس، لكن ليلة عرفة من أدركها أدرك الحج، فهي ليلة النحر، ومن أهل العلم من يقول: كل ليلة هي تابعة لليوم الذي بعدها؛ لأن الليلة سابقة لليوم إلا يوم عرفة، وليلة النحر فهي تابعة لليوم الذي قبلها.

قال: ولأنه يقع معظم أعمال الحج في يومه وليلته.

قال ابن تيمية: يوم النحر يوم الحج الأكبر؛ لأنه يجتمع فيه عيد المكان والزمان.

واختلفوا في سبب التسمية بيوم الحج الأكبر على أقوال:

القول الأول: لأن الحجة التي حج فيها أبو بكر -رضي الله عنه- بالناس اجتمع فيها حج المسلمين والمشركين واليهود والنصارى، وهو قول سمرة بن جندب، وعبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي، وهذا القول ضعفه ابن عطية.

---

١٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٣٤٩٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه المبهم، وجهالة الصحابي لا تضر، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (٤٠٩٩).

١٥ - ذكره البخاري في صحيحه معلقاً، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، بعد حديث رقم (١٦٥٥)، وأبو داود، كتاب المناسك، باب يوم الحج الأكبر، برقم (١٩٤٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٧٠٠).

١٦ - رواه البخاري، أبواب الصلاة في الثياب، باب ما يستر العورة، برقم (٣٦٢)، ومسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيتَ مشركٌ ولا يطوف بالبيت عريان وبيان يوم الحج الأكبر، برقم (١٣٤٧).

القول الثاني: لأن أبا بكر لما حج بالناس نبذ فيه العهود، وهو قول الحسن البصري.

القول الثالث: لأن أهل الجاهلية كانوا يفترقون في يوم عرفة، فالحُمْس كانوا يقفون في مزدلفة ويقف بقية الناس في عرفة.

الحُمْس قريش، أو قريش ومن ولدت.

ثم كانوا يجتمعون في يوم النحر بمنى، ولهذا سمي بيوم الحج الأكبر، وهذا القول قال به المنذر بن سعيد البلوطي.

القول الرابع: سمي بذلك؛ لأن أبا بكر -رضي الله عنه- أصاب الحج في السنة التي بعثه النبي -صلى الله عليه وسلم- فيها، ودليله ما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان العرب يجعلون عاماً شهراً وعاماً شهرين، ولا يصيبون الحج إلا في كل ست وعشرين سنة مرة، وهو النسيء الذي ذكره الله -عز وجل- في كتابه، فلما كان عامُ حجِّ أبي بكر بالناس وافق في ذلك العام الحج، فسماه الله الحج الأكبر، ثم حج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من العام المقبل فاستقبل الناس الأهلة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض))[١٧].

القول الخامس: سمي بذلك في مقابل الحج الأصغر، واختلفوا في المراد بهما على أقوال:

القول الأول: أن الحج الأكبر القران والأصغر الإفراد، وهو قول مجاهد وضعفه الجصاص؛ لأن معنى ذلك أن القران له يوم يختلف عن يوم الإفراد، ومعلوم أن يومهما واحد.

الثاني: الحج الأكبر الحج، والأصغر العمرة، وهو قول عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وعطاء، والشعبي، وعبد الله بن شداد، وذكر الزهري أن أهل الجاهلية كانوا يسمون العمرة الحج الأصغر، ورجح هذا ابن جرير وابن الجوزي وابن تيمية، وعزاه الحافظ في الفتح إلى الجمهور، واستدل أصحاب هذا القول بما جاء في كتاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لعمرو بن حزم الطويل، وفيه: ((وإن العمرة الحج الأصغر))[١٨].

لفظ "الأكبر" من نظر إلى أنه صفة ليوم **{يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ}** قال بأن هناك أياماً أخرى لا توصف بهذا الوصف، ومن نظر إلى أنه وصف للحج -الحج الأكبر- قال: يقابل الحج الأصغر الذي هو العمرة، ويبقى النظر في الأكبر هذه هل المقصود بها التفضيل، أو المقصود مطلق الاتصاف يعني يوم الحج الكبير؟ ولا شك أن يوم النحر لا يقاس بغيره من أيام الحج، فيوم عرفة فيه الوقوف، أما الأيام التي قبله اليوم الثامن ففيه التوجه إلى منى فقط، وليس ذلك على سبيل الوجوب، وهكذا، ويوم الحج الأكبر هو يوم النحر لأن فيه أعمال الحج جميعاً تقريباً، وذلك في الوقوف بعرفة في ليلته، وما بعده من رمي وحلق وطواف، فهذا يوم الحج

---

١٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة [التوبة]، برقم (٤٣٨٥)، ومسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، برقم (١٦٧٩).

١٨ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (٧٠٤٧)، والحاكم في المستدرك، برقم (١٤٤٧)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٦٥٥٩)، وقال محققه الأرنؤوط: إسناده ضعيف، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٣٣٣).

الأكبر، يوم الحج الكبير، إذا قلنا: إن الأكبر هنا ليس أفعل تفضيل، يوم الحج الكبير؛ لأنه يوجد فيه عامة أعمال الحج، وإذا جعلنا هذا أفعل تفضيل فلا شك أن هذا اليوم بإزاء الأيام الأخرى يعتبر هو الأكبر، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (١١)

قوله تعالى"ثم ليقضوا تفثهم" الآية٢٩

للشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

وقوله: {عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ} يعني: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام وأنها {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} الآية [سورة الأنعام: (١٤٣)].

وقوله: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} كما ثبت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها.

قال هُشَيْم، عن حُصَين، عن مجاهد في قوله: {فَكُلُوا مِنْهَا}: هي كقوله: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا} [سورة المائدة: (٢)]، {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ} [سورة الجمعة: (١٠)].

وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره.

وقوله: {الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}، قال عكرمة: هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس، وهو الفقير المتعفف.

وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده.

وقوله: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ}: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القُرَظي.

وقوله: {وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: نحر ما نذر من أمر البُدن.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} [سورة الحج: (٢٧)] عرفنا أن الأيام المعلومات على قول الجمهور أنها العشر من ذي الحجة، وقوله: {عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} أي: على نحر وذبح {مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} ويمكن أن يكون المعنى أوسع من هذا: ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، بإطلاق، فيذكرون اسمه -تبارك وتعالى- شكراً عند رؤيتها وعند ذبحها أيضاً باعتبار أن هذا الذكر لا يختص بالذبح، وهذا الجواب أجاب به من قال بأن الأيام المعلومات هي الأيام العشر، أجابوا به على اعتراض من قال: إن الذكر هنا على الذبح، والذبح لا يكون إلا في يوم النحر في الأيام التي بعده، فقالوا: لا يلزم أن يكون على الذبح، وإنما يكون عند رؤيتها يشكرون الله -عز وجل- على تسخيرها والإنعام بها.

و{بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} الإضافة هنا مثل مسجد الجامع، صلاة الأولى وما أشبه ذلك، فهو من باب إضافة الشيء إلى صفته، وهذا يدل على أن الهَدي لا يكون إلا من بهيمة الأنعام، وهي التي ذكرها الله -عز وجل-

في سورة الأنعام: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [سورة الأنعام: (١٤٣)] وذكر المعز، والضأن، والبقر، والإبل.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} [سورة الحج: (٢٧)]، هل الأمر للوجوب، أو للاستحباب؟، الجمهور ذهبوا إلى أن الأمر هنا للاستحباب، وأنه لا يجب على الإنسان أن يأكل من هديه أو من أضحيته، وإنما هذا كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ} [سورة المائدة: (٢)] ويشبه من وجه قولَه -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} [سورة الجمعة: (١٠)] ومبني على هذا اختلاف أهل العلم في حكم هذا الانتشار، فابن حزم يرى أنه واجب، واختلفوا في الانتشار لأي شيء يكون؟ بعض السلف قال: يذهب لعيادة المريض، وصلة الرحم وما يكون قربة لله -عز وجل- الشاهد أن مبنى هذه المسألة هو: الأمر بعد الحظر على أي شيء يحمل؟ والأقرب من أقوال أهل العلم فيه -والله أعلم- أنه يرجع إلى حاله قبل الحظر، فإن كان هذا الشيء مباحاً فيرجع إلى الإباحة وإن كان مستحباً يرجع إلى الاستحباب، وهكذا، فالانتشار على قول الجمهور في صلاة الجمعة {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا} حرم الله عليهم البيع والشراء عند النداء للجمعة، المقصود به النداء الثاني: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ} [سورة الجمعة: (٩)] حرم عليهم ذلك جميعاً، ثم بعد ذلك قال: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا} فحكم البيع قبل النداء مباح، ثم حرم عليهم بعد النداء فلما قال لهم: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} يرجع إلى ما قبل الحظر، فيكون الانتشار مباحاً، فلو أراد الإنسان أن يجلس في المسجد إلى العصر فليس عليه من بأس، وهذا واضح في هذه الآية: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ} لكن هنا في قوله: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} هل يقال: إن الأمر يرجع إلى ما قبل الحظر؟، وهل كان هناك حظر أصلاً؟.

لو قال قائل: إن الحظر موجود باعتبار أنها تعينت لله -عز وجل- بأن صارت هدياً أو أضحية، وليس له أن ينحر هذا الهدي قبل أن يبلغ محله، وليس له أن يذبح أضحيته قبل يوم العيد، وليس له أن ينتفع بها من غير حاجة، على قول الجمهور، فلما بلغت محلها قال الله –عز وجل-: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا} فيكون الأمر للإباحة بهذا الاعتبار والنظر، ومن نظر إلى أن الأمر للوجوب قال بأنه واجب، وهذه طريقة الظاهرية، ومن المفسرين من اختار هذا من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- وأن هذا يجب على الإنسان أن يأكل من أضحيته، واحتج أيضاً بالحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها، وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد قدم مائة من الإبل[١]، وضحى عن نسائه[٢]، -والمقصود بـــ"ضحى": الهدي -على قول عامة أهل العلم- بالبقر فلا يستطيع أن يأكل من مائة بدنة، فماذا فعل؟ وضع من كل واحدة بضعة، قطعة وضعت في القدر وطبخت، فشرب من مرقها فيكون هذا المرق متحللاً من المجموع، وهذا امتثال لقوله -تبارك وتعالى-: {فَكُلُوا مِنْهَا} وعامة أهل العلم يرون أن هذا ليس على الوجوب، وأنه كقوله: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ} [سورة المائدة: (٢)].

---

[١] - رواه مسلم برقم: (٣٠٠٩) كتاب الحج – باب حجة النبي -صلى الله عليه وسلم.

[٢] - رواه البخاري برقم: (١٦٢٣) كتاب الحج - باب ذبح الرجل البقر عن نسائه من غير أمرهن.

لكن قوله: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ} [سورة المائدة: (٢)] هذا مثل: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا}؛ لأنه كان الصيد مباحا، ثم صار محرما لما تلبسوا بالإحرام ثم بعد ذلك قال: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ} فيرجع إلى حكمه الأول، لكن هنا هل هذا أمر بعد الحظر {فكلوا منها}؟ الحظر غير ظاهر، ولم يسبق بحظر، بمعنى لو أن الإنسان -كما هو حال عامة الناس اليوم- جاء في يوم العيد إلى السوق في منى أو إلى المكان التي تذبح فيه هذه، ويباع فيه الهدي، فجاء مباشرة واشتراها، لم يكن هناك حظر قبلُ -في يوم العيد- فبمجرد ما ملكها فذلك وقت للذبح، وإلى عهد قريب في منى كان الناس يذبحون الهدي في المكان الذي يشترونه منه، فتأتي الحظيرةَ في يوم العيد تجدها مليئة بالأغنام، فإذا أتيت قبل الظهر وجدتها مليئة بالأغنام لكنها مذبوحة في أماكنها، تذبح وتترك، ثم تأتي الجرافات وتأخذها إلى المحرقة في منى، وبعضهم يأتي منها بقطعة، فإذا أتعبه المشي ألقاها، فتجد فجاج منى مليئة باللحوم، هذه يد، وهذه رجل، وهذه كبد، وهذا رأس، فالشاهد أن في قوله: {فَكُلُوا مِنْهَا} الأمر ليس دائماً للوجوب، وهنا لا يظهر أنه أمر بعد حظر، لكن هل الأمر دائما للوجوب؟ الجواب لا، هذة قاعدة، والقواعد أغلبية، فيحسن للإنسان ويستحب له ويجمل به أن يأكل، لكنه قد لا يتيسر له هذا، وإلا سيلحق الناس مشقة عظيمة، فالناس القادمون مع الحملات، بعض الحملات تأخذ منهم الأموال ويذبحون، ويأتون بها إليهم، وصاحب الحملة أظن أن لسان حاله يقول: "اللهم سلم، اللهم سلم" لأنهم قد يطالبون بالعوض، فيقولون: أنت تعطينا الوجبات من الهدي، فلا بد أن تقلل من قيمة الاشتراك في الحملة، فهذا لا يبعد، ويكون هؤلاء كأنهم دفعوا الهدي، كأنهم ما دفعوا ثمنه، الشاهد أن الكثيرين لو طلب منهم أن يأكلوا من هديهم لصعب عليهم، حتى الذي يقدم لهم في الحملة، هل هو من هديهم أو لا؟! وعامة الحجيج لا يستطيعون هذا أصلاً، وحينما تطالبهم بأن يأخذوا منها قطعة ويطبخوها لا يجدون أين يطبخونها.

قديماً كان الناس إلى ما قبل حوالي ١٥سنة أو ٢٠ سنة كل إنسان ينصب خيمته حيث أراد، وتجد كل واحد يوقد طعاماً، فينتظرون متى يأتي يوم العيد، ويفرحون بالهدي، فتجد الخيام منشورةً عليها اللحوم مجففة مشرحة مملحة ظاهرة في منى، فلا تكاد تجد خيمة إلا وعليها اللحوم مشرحة، فكان الناس يأكلون، والأمور متيسرة، لكن الآن لا يجد أين يطبخ، ففيه مشقة عظيمة على الناس، ثم إن هذا يؤدي إلى تلف هذه اللحوم، فكل واحد معه هدي، كيف سيصنع به وإلى أين يذهب بها؟ سترمى كما هي الحال في السابق، ترمى وتحرق ويتلوث الهواء في منى، ولا تجد أحداً يرجع من منى إلا وهو مريض، إلا من شاء الله، وهذا شيء كان معروفا، فالآن وجدت هذه الشركات التي تأخذ هذه اللحوم، تذبح في مكة وترسل إلى الفقراء، على خلاف بين أهل العلم، هل يجوز إخراج ذلك من أرض الحرم أو لا؟ هل يوزع على منطقة خارج حدود الحرم أو لا؟ نعم، الذبح يجب أن يكون في الحرم، فصاروا يأخذونها ويعطونها الفقراء في بلاد كثيرة، فهذا أرفق بل إذا ذهبت بعد الحج في يوم ١٥،١٦،١٧،١٨، إلى بعض البلاد مثلاً أفريقيا قد لا تستطيع أن تركب في الدرجة السياحية، بسبب أن الفقراء يحملون معهم اللحوم، وتراهم يأتون إلى المسالخ فما يستحسنونه من الذبائح مباشرة قبل ما تذبحها يحجزونها، أما إذا كان بعيراً فيتقاتلون عليه قبل أن يموت، وكل واحد معه

سكين فيقطع قبل ما يموت، فمجرد ما ينحر يهجمون عليه، فالشاهد أن هؤلاء يأخذونها، وصاحبها لا يستطيع أن يأخذ منها شيئاً في كثير من الأحيان، فالقول بالوجوب فيه عسر ومشقة كبيرة على الناس وفيه تفويت مصالح؛ لأن هذه الشركة التي تأخذ وترسل إذا قال صاحبها: لا، أنا أريد أن تعطوني منها، ما أعطوه، وقالوا: إما أن تأخذها وإما أن تتركها لنا، أما إذا كان الهدي من النوع الرخيص، أو من الأنواع التي تسمى: "بربري"، فلا أحد ينظر إليه ولا يسابق عليه، وهو ربما أكثر الهدي، فتجده يذبح، ويجلس في مكانه لا يستفاد منه، فمن أراد أن ينتفع به فعلاً فليشترِ من النوع الجيد الغالي، ليأتيه الفقراء فيحجزوا قبل ما يذبحها، ويجتمعوا عليه، فهذا الذي كان يحصل.

فالقول بوجوب الأكل منها فيه عسر ومشقة على الناس، والأقرب -والله أعلم- أنه الاستحباب، وهكذا الإطعام لا يجب أن يطعم الإنسان، بل له أن يأكلها جميعاً، والله أعلم.

وقوله: {الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} البائس: بعض أهل العلم يفسره بمن أضر به الفقر، أو أنه بحال ليس مجرد الفقر وقع به، وإنما به زمانة بحيث لا يستطيع الاكتساب ولا التصرف في مصالحة وأحواله وشئونه، والبائس: من البؤس، فشدة الفقر تصيّر إلى البؤس، الحالة البائسة، حال هؤلاء في بؤس، يعني شدة الفقر، أضر بهم الجوع والفقر والزمانة مثلاً ومن أجلى صور هذا ما نشاهده بين حين وآخر في أفريقيا مثلاً والصور التي تعرض في المجاعات، فهؤلاء في بؤس، أما الفقير فهو الذي لا يجد كفايته من حاجاته الضرورية من المأكل والملبس والمشرب، وهنا يدخل فيه المسكين؛ لأن الفقير ذكر وحده، وكما هو معلوم إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فالمسكين والفقير هنا بمعنى واحد، لكن البائس أشد، فالفقير لا يصل به الحد إلى البؤس، ويجد شيئاً، يجد بلغة، لكن لا يجد الكفاية، أما البائس فوصل به الأمر إلى حد الضرر، لهذا كما ذكر بعض الأطباء كـــ"الدكتور شاهر في ندوة الطب والصيام" ذكر المراحل التي يمر بها الإنسان في حال الجوع، وذكر أن الصوم هذا الذي نصومه نحن لا يضر بل ينفع، وأن الإنسان إذا جاع وعطش بدأ الجسم بالتعويض بالدهون، وتوجد مرحلة ثانية، وثالثة، ورابعة، وتوجد مصانع في الكبد تعوض، وهكذا إلى أن يصل الأمر إلى مراحل متقدمة من الجوع بحيث تبدأ الأنسجة والعظام ونحو ذلك في الجسم تتضرر، فيحصل للإنسان مثل هذا الهزال الشديد في لحمه، وعظمه وفي بدنه عموماً.

والبائس: "**قال عكرمة: المضطر الذي يظهر عليه البؤس وهو الفقير المتعفف**"، هنا قال عنه: إنه الفقير المتعفف، وليس ذلك بالضرورة، وقد لا يكون متعففاً لكنه لا يجد من يعطيه، فالذين حوله قد يكونون من هذا القبيل، لكن لماذا قال: البائس: المتعفف؟، بمعنى أنه يحتاج، ثم يحتاج، ثم يحتاج، ولكنه لا يطلب فيصل به ذلك إلى حد الضرر، هنا قال متعفف، وإلا فليس من لازم البائس التعفف، فقد يسأل ثم يسأل لكنه لا يجد، ويقال: عنه بائس، "**قال مجاهد هو الذي لا يبسط يده**"، وهذا كأنه تفسير الشيء بسببه، لماذا صار إلى حال البؤس؟ لأنه لا يطلب فيصبر على الجوع حتى يحصل له الضرر.

قال: ثم ليقضوا تفثهم، "**قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو وضع الإحرام من حلق الرأس، ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك**"، هذه الأشياء التي ذكرها هي قضاء التفث، والتفث: فسره بعض أهل اللغة:

بالأذى، والقذر، والوسخ.

وفسر القضاء بالتأدية؛ لأن كلمة القضاء تأتي بمعانٍ متعددة كالفراغ من الشيء {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ} [سورة البقرة: (٢٠٠)]: أديتم مناسككم، تأدية الشيء أو الفراغ من الشيء، ومثله: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ}، فقال بعضهم: إن المقصود بـــ {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ} أي: ليؤدوا إزالة ذلك من أجسادهم، ونحن قد لا نتصور هذا، مع أنه نقل عليه الواحدي الإجماع على أن المقصود إزالة الأذى والوسخ، ويدخل في ذلك قص الأظفار والشعر، نحن قد لا نتصور هذا، لكن في السابق كيف كانت حالهم؟ لنتخيل أن إنسانا جاء محرماً من المدينة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- خرج في الخامس والعشرين من ذي القعدة، فكم المدة، وكيف بمن جاء من أبعد من ذلك من كل فج عميق يمشي شهراً وأكثر، ومن حال الإحرام ليس له أن يقص الشعر ولا الأظفار ولا يأخذ من بشرته شيئا، وهذه المدة من الخامس والعشرين إلى يوم النحر خمسة عشر يوما، ونحن الآن في ثيابنا النظيفة، لو ركب أحدنا على البعير الآن إلى نهاية الشارع ربما ذهب ليغتسل، أو على الأقل ينظر إلى ثيابه ما الذي أصابه، فكيف بإنسان على بعير خمسة عشر يوماً في الصحراء في الشمس في الرياح، وشعورهم طويلة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو معروف لبَّد شعره وضع عليه صمغة من أجل أن لا يكون الشعر متناثراً، ولا يجتمع في داخله الغبار والتراب فيضع عليه مثل الصمغة بحيث تكون مثل هذه الأشياء في الخارج، هكذا كانت الحياة قديماً، كعب بن عجرة رآه النبي -صلى الله عليه وسلم- والقمل يتناثر على وجهه، قال: ((ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا!، أما تجد شاة؟)). قال: لا، قال: ((صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك))[٣] فالشاهد أننا لا نتصور ذلك الوضع كثيرا، فالإنسان منا يحرم أحياناً يوم عرفة أو في يوم ثمانية في الظهر، أو العصر، وهو في غاية النظافة وفي حملة، وعنده الصوابين، وعنده الماء، ويغتسل في كل وقت، ومع ذلك ينتظر متى يرجع من يوم النحر لينزع الإحرام، ويغتسل ويشعر أنه دخل على الحياة من جديد، ولا يسأل أين يلقي إحرامه بعد ذلك، حتى إن بعضهم لا يريد أن ينظر إليه، وقد كان من يوم أو نصف يوم ومع ذلك يشعر أنه في حالة يحتاج إلى الاغتسال والنظافة، ليرجع وهو مستريح، وهذا معنى {لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ}.

وبعضهم يقول: هو إزالة الوسخ، والإجماع على هذا فيه نظر، وغير صحيح؛ فليس محل اتفاق أن يفسر قضاء التفث بإزالة الوسخ فقط، وإنما الأحسن -والله أعلم- بالنظر إلى السياق: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [سورة الحج: (٢٩)] ما قاله كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-: أي ما بقي عليهم من مناسك الحج من حلق وأخذ شارب، ورمي الجمار، وطواف بالبيت وكل هذه الأشياء، فالحاج يذبح هديه أو ينحر بعد أن يرمي جمرة العقبة، ثم بعد ذلك يحلق وعندئذٍ له أن يقص من أظفاره ويأخذ من شاربه، ويلبس الثياب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: نحر ما نذر من أمر البُدن.

وقوله: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}: قال مجاهد: يعني: الطواف الواجب يوم النحر.

---

[٣] - رواه البخاري برقم: (٤٢٤٥) كتاب التفسير – سورة البقرة.

{وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ} يدخل فيه النذر بالنحر، ويدخل فيه سائر النذور، بعضهم يقول: إذا كتب الله لي المجيء إلى بيته الحرام له عليَّ أن أعتكف ليلة، وآخر يقول: أن أطوف فيه مائة مرة، وهكذا، لأنهم يتمنون رؤية البيت، فيكون عليهم من النذور هذه أو غيرها كالصدقة أو الإطعام أو الذبح من غير الهدي أو نحو ذلك...

فالله -عز وجل- أطلق هذا {وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}.

اقرءوا ما نشر في رسالتي "إلى قاصدي البيت الحرام" رحلةَ الشيخ عثمان دابو من أفريقيا من مالي، وجاءوا إلى مكة ومكثوا سنتين، وكانوا خمسة، مات اثنان أو ثلاثة، أحدهم مات في البحر، وهو نهشته حية، وكلما مروا بقرية اشتغلوا فيها ليجمعوا المال ثم ينتقلون، وجاء حجٌّ آخر، ثم حج في سنتين، وكتب وصية أوصى فيها أصحابه، وقال لهم: إذا مت فقربوني أكثر عند الحرم، فلما رأوا الكعبة فلا تسأل عن حاله، فمثل هؤلاء تحصل منهم نذور، وانظروا إلى أحوال الناس الذين يأتون من الهند ومن غيرها، واسألوهم، منهم من يجمع المال عشرين سنة وثلاثين سنة من أجل أن يأتي، ولهذا هؤلاء المساكين يعتمرون بعد الحج أكثر الوقت، حتى إن بعضهم يقول: اليوم هذه عاشر عمرة اعتمرتها، وتراهم ذاهبين راجعين من وإلى مسجد عائشة في التنعيم، ونحن نقول عنهم: هؤلاء الجهلة الهمج الذين ضيقوا على الناس!، هذا أجداده يتمنون أنهم يرون الكعبة، وهذا الوحيد من جماعته، ومن قرابته، ومن أسرته الذي حصل له هذا الشرف، وله جد وجدة وعم وخالة ووصايا: هذا يقول: طُفْ لي، وهذا يقول: اعتمر لي، وهذا يقول كذا، وهذه تقول: جدتك ماتت وهي تتمنى أن ترى الحرم، اعتمر لها، وما اعتمرت ولا حجت، فيأتي ويبقى لأجل ذلك مدة، يذهب ويجيء عمرة بعد عمرة، ونحن نتأذى من الزحام خاصة في طواف الإفاضة أو طواف الوداع، وهؤلاء ما عندهم مشكلة في الزحام، ولو مشوا فوق الناس، فهم فقط يريدون أن يروا الكعبة، وكل شيء يهون لأجل ذلك، ولذلك هم يتمنون الموت هناك، وهذا موجود، لهذا قيل: ليس الخليّ كالشجيّ، والله المستعان.

وقوله: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}: قال مجاهد: يعني: الطواف الواجب يوم النحر.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي حمزة قال: قال لي ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}، فإن آخر المناسك الطواف بالبيت.

قلت: وهكذا صنع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفي الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض.

هذا في طواف الوداع، والأول في طواف الإفاضة، طواف الوداع واجب، ويسقط عن الحائض، وطواف الإفاضة ركن، ولا يسقط عن أحد، لكن هنا في هذا السياق قال: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} بعدما قال: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} كل هذه أوامر جاءت مقترنة، بعضها يقال:إنه واجب وبعضها يقال: إنه ليس بواجب، وهذا له أمثلة ليست قليلة، ولهذا يقولون: ثبوت الاقتران ليس بحجة، على تفصيل في مسائل تتعلق به.

وقوله: {بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}: من وراء الحِجْر؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من وراء

الحِجْر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمَّما على قواعد إبراهيم العتيقة.

قال قتادة: عن الحسن البصري في قوله: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} قال: لأنه أول بيت وضع للناس.

لكن هذا الذي ذكره {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} إذا قلت إن الباء هنا للمجاورة، أو غير ذلك، على كل حال الطواف يكون بالبيت، ولهذا يكون من وراء الحِجْر لأن الحجر أو بعض الحجر من البيت، وإذا دخل فإنه يكون قد طاف في بعض الشوط داخل الكعبة؛ لأن بعض الحجر من الكعبة، وهذا يدل أيضاً على أن الإنسان لا يخرج من الحرم ويطوف، فلو أراد إنسان أن يستريح من الزحام، فقال: أنا سأطوف من الخارج وأدور على الحرم، فهذا ليس من قبيل طواف البيت إلا إذا امتلأ الحرم واضطر الناس إلى الخروج، وأنت بهذا لم تطف بالبيت، ولذلك إذا قلنا بأن المسعى ليس من المسجد فالنزول في بعض النواحي على المسعى يكون في هذا القدر سعيٌ من خارج، فهذا لا بأس أن يفعله الإنسان إذا اضطر إلى ذلك كأن يكون ازدحم المكان فزاد الناس وما وسعهم الممر الضيق، في الدور الثاني أو في السطح، فيخرجون إلى المسعى ثم يرجعون.

أما البيت العتيق فسبب تسميته بهذا قيل: لأنه أول بيت وضع للناس، وهذا من أحسن ما يفسر به؛ لأن الله -عز وجل- قال: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} [سورة آل عمران: (٩٦)] وبهذا الاعتبار يكون العتيق بمعنى القديم، والقدم أحياناً يكون مدحاً ويضفي على هذا الشيء قيمة وقدراً، وأحياناً يكون ذلك نقصاً، فالإنسان حينما يكون ثوبه عتيقا قديماً أو سيارته أو نحو هذا هل هذا يضفي عليه جودةً، ويكون هذا أفضل وأحسن وأعظم وأكمل؟ الجواب: لا، وكذا البيت حين يكون قديماً، فهذا يكون نقصا، لكن متى يكون ذلك أجود؟ في بعض الأشياء العتيقة التي كلما تقادم بها الزمن، زادت قيمتها، مثلا: دهن العود كلما مرت عليه مدة أطول، صار أفضل برائحته، فهذا أجود، كذلك مثلا الرز العتيق فهو أفضل، وهكذا بعض الأشياء القِدمُ يضفي عليها جودةً ويزيدها فضلاً، وبعضهم يقول: العتيق: المعتق من الجبابرة، فأبرهة قصمه الله -عز وجل-، وبعضهم يقول غير ذلك، ولا مانع من اجتماع هذه المعاني، وإذا أردنا الترجيح فنفسر الآية بقوله: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} فالآية أو اللفظة في القرآن قد تحتمل معانيَ يوجد في القرآن ما يشهد لأحدها، فيكون هذا سبب الترجيح.

وقال قتادة، عن الحسن البصري في قوله: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} قال: لأنه أول بيت وضع للناس. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح.

وقال خَصِيف: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط.

بعضهم يقول: لأن الله يعتق فيه رقاب المذنبين من النار، فـ ((الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))[٤]، ((من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه))[٥] وهكذا، ومثل هذا قول من قال بأن العتيق بمعنى الكريم، فالقدم يضفي عليه هذا الوصف، فيمكن أن يرجع إلى ما سبق، ولا يخالفه، والله أعلم.

---

[٤] - رواه البخاري برقم: (١٦٨٣) كتاب الحج - باب وجوب العمرة وفضلها ، ومسلم برقم: (٣٣٥٥) كتاب الحج - باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

[٥] - رواه البخاري برقم: (١٧٢٣) كتاب الحج – باب قول الله تعالى: فلا رفث. ومسلم برقم: (٣٣٥٧) كتاب الحج - باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، واللفظ للبخاري.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قال المؤلف -رحمه الله ونفعنا الله بعلومه وعلوم شيخنا في الدارين آمين-:

يقول الله تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعلها من الثواب الجزيل.

{وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ} [سورة الحج:٣٠] **أي: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما في نفسه، {فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ}** أي: **فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ}** [سورة الحج:٣٠]، "ذلك" الإشارة هنا للبعيد، وابن كثير -رحمه الله- يقول: **هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعلها** -يعني المكلف- **من الثواب الجزيل**، هذا المعنى الذي ذكر أن الإشارة ترجع إليه ليس بمستقيم، وهو أعم في المعنى، وما قاله كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-؛ حيث إنه أرجعها إلى ما قبلها؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}** [سورة الحج:٢٩]، ذلك يعني قضاء التفث، فما أمرنا به من قضاء التفث والوفاء بالنذور، والطواف بالبيت العتيق **{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ}** [سورة الحج:٣٠]، والله -تبارك وتعالى- ذكر في هذه الآيات جملة من الأمور **{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا}** [سورة الحج:٢٦-٢٧] ثم قال: **{لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}** [سورة الحج:٢٨-٢٩] ذلك يعني ما ذكر، كل ما ذكر فهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-، وابن جرير -رحمه الله- جعلها تعود إلى ما قبلها -الجزء الأخير- وهو قضاء التفث, والوفاء بالنذور, والطواف بالبيت العتيق **{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ}**، ويقول هنا: **{وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ}** أي: من يجتنب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه، واضح من كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنه حمل الحرمات على الممنوعات، على مساخط الله -عز وجل-، وأن من يحترز منها ويخاف من مواقعتها ويكون لذلك رهبة في نفسه, ومعنى الحرمات في قوله: **{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ}**: الحرمة هي كل ما وجب القيام به, وحرم التفريط فيه, ويدخل في ذلك أيضاً ما نهى الله -تبارك وتعالى- عنه فكل هذا يدخل في هذه الآية كما يقوله أصحاب المعاني كالزجاج, ولهذا عممها ابن القيم -رحمه الله- لتشمل ذلك جميعاً **{وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ}** تعظيم حرمات الله مثل الشرك بالله -تبارك وتعالى- فلا يواقع ذلك، ويحترز منه غاية الاحتراز, وهكذا الفواحش وألوان الجنايات والمظالم،

ويدخل فيها أيضاً تعظيم ما أمر الله -عز وجل- به من إقام الصلوات، وإيتاء الزكوات وغير ذلك من طاعة الله، وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فكما أن المكلف يجب عليه أن يقوم بما أمر به، ويجب عليه أن ينتهي عما نهى عنه، كذلك أيضاً هو بحاجة إلى أن يوجد في قلبه ما يكون من قبيل الرهبة، والتعظيم، والخوف من مقارفة المحرم أو ترك الواجب، كلها لها وقع في نفسه، ولذلك إذا فاتته الصلاة أو نحو ذلك يقع في نفسه من الوجل، والخوف، فإذا أذن المؤذن فإن ذلك يقع في نفسه موقعاً، هذه الصلاة لا يمكن أن يفرط فيها ولو أعطي الدنيا بما فيها، ولو قيل له اترك فرضاً واحداً ما تركه، وهكذا مواقعة الفواحش، والمنكرات يخاف من هذا مهما تزينت له الفتنة، وتزخرفت له هذه الأمور المنهي عنها فالحاصل أن ذلك يشمل هذا جميعاً، فإذا عظّم حرمات الله فهو حري أن يفعل ما أمر به، وأن يترك ما نهى عنه، وإنما تقع المقارفة للمنهي أو ترك المأمور قصداً من غير عذر لما يقع في القلب من الاستخفاف والتهاون.

وقوله: {وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} أي: أحللنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام.

وقوله: {إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} أي: من تحريم {الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ} الآية [سورة المائدة:٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

تفسير قوله: {إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} بآية المائدة لا يخلو من إشكال، فسورة الحج من السور المختلف فيها فالبعض يقول هي مكية، والبعض يقول: هي مدنية وبعضهم يقول: هي مكية وفيها آيات مدنية، ومنهم من يقول: هي مدنية وفيها آيات مكية، واختار القرطبي أنها مختلطة فيها المكي، وفيها المدني، ومهما يكن فهي ليست من أواخر ما نزل، حتى لو قلنا إنها مدنية وفيها آيات مكية، فهي ليست من أواخر ما نزل وإنما آخر ما نزل في الأحكام، المائدة كما هو معروف، فقوله -تبارك وتعالى- هنا في هذه الآية {وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} إذا قلنا بأنها مكية فلا تفسر بالآية النازلة في المدينة آية الحج هذه فإنها لا تفسر بأمر ما نزل، لكن يمكن أن يقال ذلك على سبيل التوسع، وقوله: {إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} أي مما نزل ومما سينزل بهذا الاعتبار، وهنا يرتفع الإشكال، لكن يمكن أن يقال: إن قوله: {إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} إذا أريد به ما نزل وتحقق نزوله فإن ذلك يدخل فيه آية الأنعام، وكذلك ما نزل في البقرة إذا قلنا بأن البقرة هي أول ما نزل في المدينة، وإذا كانت هذه الآية من سورة الحج نازلة في المدينة فالله -عز وجل- يقول: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ} [سورة المائدة:٣]، فهذه من المحرمات والله -عز وجل- يقول في الأنعام: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ} [سورة الأنعام:١٤٥]، فتفسر بما سبق نزوله، وإذا فسره بما نزل بعدها فاعتبار السابق على سبيل التوسع، أي أن المعنى أوسع من ذلك باعتبار ما نزل، وما سينزل، والأنعام هي الأصناف الثمانية، كما قال الله -عز وجل-: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ} [سورة الأنعام:١٤٣]، ثم قال بعد ذلك: {وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ} [سورة الأنعام:١٤٤].

وقوله: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ}: "من" هاهنا لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا

بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف:٣٣]، ومنه شهادة الزور، وفي الصحيحين عن أبي بَكْرَة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟))، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: ((الإشراك بالله وعقوق الوالدين))، وكان متكئا فجلس، فقال: ((ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور))، فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت"[1].

وروى الإمام أحمد عن خريم بن فاتك الأزدي قال: صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الصبح، فلما انصرف قام قائماً فقال: ((عدلت شهادة الزور الإشراك بالله -عز وجل))، ثم تلا هذه الآية: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ}[2] [سورة الحج:٣٠-٣١].

هذه الرواية لا تخلو من ضعف؛ لجهالة في أحد الرواة، لكن في قوله -تبارك وتعالى-: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ} الرجس يأتي بمعانٍ متعددة فهو من قبيل المشترك يأتي بمعنى العذاب، ويأتي بمعنى القذر، ويأتي بمعنى النجاسة، والله -عز وجل- يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} [سورة المائدة:٩٠] رجس فهذا بمعنى النجس وسواء كانت النجاسة معنوية أو كانت نجاسة حسية، والميتة رجس، وما ذبح لغير الله -عز وجل- رجس، وكذلك الرجس يأتي بمعنى العذاب، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً قال عن الروثة: إنها ركس، ورجس، فالدنس والقذر كله يقال له: رجس، فهذه نجاسة وقذر معنوي، ومِن في قوله: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} ليست تبعيضية؛ لأن كل الأوثان، وعبادة الأوثان من قبيل الرجس، وإنما هي لبيان الجنس كما تقول: ثوب من القماش، والأوثان معروفة، والأصنام، والعلماء لم يتفقوا في هذا على شيء لكن منهم من يقول: إن الوثن هو ما لم يكن على صورة، والصنم ما كان مصوراً، وقول الزور يدخل فيه شهادة الزور دخولاً أولياً؛ لأن ذلك هو المتبادر، ويدخل فيه أيضاً كل قول باطل، وأعظم ذلك الإشراك بالله -تبارك وتعالى-، كما يدخل فيه القول على الله -عز وجل- بلا علم، الكذب على الله والافتراء، ويدخل فيه الكذب على الناس، ولهذا قال الله -عز وجل- على المظاهرين {وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا} [سورة المجادلة:٢]، فحين يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليّ كظهر أمي، هذه جملة خبرية فهي كاذبة، والكذب زور، وحين يقول: أنتِ عليّ كظهر أمي هو ينشئ حكماً وهو المظاهرة، فهذا الحكم الذي أنشأه حكم منكر باعتبار المعنى، {وَزُورًا} باعتبار أن الجملة كاذبة، فهي ليست بمنزلة الأم؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا}، فهذا داخل فيه، وهكذا من حرم ما أحل الله كالذي حرم امرأته، أو حرم

---

١ - رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة، برقم (٦٥٢١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٧).

٢ - رواه أبو داود، كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور، برقم (٣٥٩٩)، والترمذي، كتاب الشهادات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في شهادة الزور، برقم (٢٢٩٩)، وابن ماجه، كتاب الأحكام، باب شهادة الزور، برقم (٢٣٧٢)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٨٩٨)، وقال محققوه: إسناده ضعيف لجهالة والد سفيان العصفري -واسمه زياد- وحبيب بن النعمان الأسدي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٦٣٨٧).

بعض أنواع المطعومات كقوله: {وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ} [سورة الأنعام:١٣٨]، وهكذا قوله: {وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء} [سورة الأنعام:١٣٩] فكل هذا من الزور، وأصل ذلك مأخوذ من الازورار وهو الميل، فكل ميل عن الحق فهو داخل في هذا.

وقوله: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ} أي: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق؛ ولهذا قال: {غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ}.

ثم ضرب للمشرك مثلا في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ} أي: سقط منها، {فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ}، أي: تقطعه الطيور في الهواء، {أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه؛ ولهذا جاء في حديث البراء: ((إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرحا من هناك))[٣]، ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث في سورة "إبراهيم".

وقد ضرب الله تعالى للمشرك مثلا آخر في سورة "الأنعام"، وهو قوله: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى} [سورة الأنعام:٧١].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} من أهل العلم من يقول: هذا تمثيل لحال المشرك في بُعده عن الحق، كبعد ما خر من السماء فتذهب به الطير أو تهوي به الريح، وتقريب لحاله، والأقرب من هذا -والله تعالى أعلم -أن يقال: إن ذلك من قبيل المثل الذي ضربه الله -عز وجل- لحال المشرك في بيان هلكته، فهذا الذي ذكره الله -جل جلاله- يبين حال هذا الإنسان المشرك بحال الإنسان الذي هوى من السماء، وقبل أن يقع على الأرض تخطفته الطير فمزقت جسده أبعاضاً وأشلاء فتفرق جسده، فلا تسأل عن هلكته وحاله، وهو تتنازعه الطير، وتنتشه وتمزق أوصاله، فكيف إذا وصل شيء منه إلى الأرض؟، {أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} أي: في مكان بعيد غاية البعد، فهذا حال المشرك حيث إنه هالك هلاكاً محققاً لا مرية فيه، هذا تصوير لهلكته -والله تعالى أعلم- لا لبُعده عن الحق، وإنما لهلاكه، ولهذا قال هنا: {أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} **أي بعيد مهلك لمن هوى فيه**، فهو هالك سواء حصل له هذا التخطف أو هوت به الريح في مكان بعيد سحيق لا ينجو مَن وقع فيه، فالمشرك هالك لا سبيل لنجاته، هو يقارف هذه المقارفة، ولا يمكن أن يحصّل مغفرةً أو رحمة من الله -جل جلاله- أو يدخل جنة، فهذا أعظم شيء يمكن أن يقع من الإنسان، وأعظم جرم يمكن أن يهوي بصاحبه في النار -والله أعلم-، وهذا المعنى الذي ذكرته آنفاً تكلم عليه ابن القيم -رحمه الله- بكلام جيد يمكن أن يراجع في ما جمع من تفسيره عند هذه الآية.

---

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٨٥٣٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٧٦).

قوله: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [سورة الحج:٣٢-٣٣].

يقول تعالى: هذا {وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ} أي: أوامره، {فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} ومن ذلك تعظيم الهدايا والبُدن، كما قال الحكم عن مقْسَم، عن ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها.

وقال أبو أمامة بن سهل: "كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمّنون"[٤]. رواه البخاري.

بعضهم يقول: إن قوله: {ذَلِكَ} خبر لمبتدأ محذوف، أي الأمر ذلك، وبعضهم يقول غير هذا، وقوله: {وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ} يقول هنا: **أي: أوامره**، حملها على أعم ما يمكن أن يُذكر في ذلك، بحيث جعل كل الأوامر من شعائر الله، ومن أهل العلم من يقسم الدين إلى شعائر وأمانات، فيقولون: الشعائر هي أعلام الدين الظاهرة، مثل الأذان، وصلاة الجماعة، والحج في كثير من أعماله هو من الأمور الظاهرة، وهكذا في أمور كثيرة، فالشعائر هي أعلام الدين الظاهرة، ولهذا يقال للعلَم أو العلامة التي يعرف بها الناس، أو جماعة أو طائفة من الناس عن غيرهم يقال له: شعار، هذا شعار هؤلاء القوم أو هذه المؤسسة، يعني علامة ظاهرة تعرف بها، فأعلام الدين الظاهرة ما فيه لله -عز وجل- شعار داخل في هذه الأمانات، و الأمور الخفية مثل الطهارة، والصيام، والنيات وما أشبه ذلك كلها أمانات، ويدخل فيه دخولاً أولياً هذه الأمور المذكورة كقوله -تبارك وتعالى-: {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ} [سورة الحج:٣٦]، فالبُدن هي الهدايا التي تساق إلى البيت، وقد تساق الغنم لكن لما كانت البدن هي أعظم ما يساق ذُكرت، فيجعلون عليها أغطية أو أكسية، ويأخذون من لحاء شجر الحرم، ويعلقونه فيها، ولربما علقوا فيها نعلاً، أو علقوا فيها شيئاً ويعلقون فيها قلادة من أجل أن يعرف أن هذه مهداة للبيت، والمشركون كان بعضهم يعظم هذه الأشياء، وفي قصة الحديبية وما جاء من عرضها –أي البُدن- أمام بعض من جاء ليفاوض المسلمين من المشركين، وكان من قوم يعظمون البدن، فلما رأى ذلك رجع إلى المشركين، وقال: رأيت قوماً لا يمكن صدهم عن البيت وذكر ما رأى من البدن، ويدخل فيه شعائر الله -عز وجل- كالتلبية، والحج، والتكبير، والأذان، وصلوات الجماعة، والمساجد ويدخل فيه أعياد المسلمين لأنها من الأمور الظاهرة، كل هذه الأشياء تعظيمها من تقوى القلوب، ويدل على تقوى في قلب الإنسان ويدخل فيه ما ذكر هنا من استسمانها واستحسانها كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنه- تعظيمها: استسمانها، واستحسانها، فهذا من قبيل التفسير بجزء المعنى أو بالمثال، فهو لا يقصد أن تعظيم شعائر الله -عز وجل- يكون بتسمينها واستحسانها فقط، فحينما يراها الإنسان لا يتعرض لها بسوء، ولا يصدر منه فعل يمكن أن يوقع الأذى أو الضرر بها ككسرها، أو قطع بعض منها، أو ينحرها قبل محلها، فإن كل هذا التعظيم هو من تعظيم شعائر الله -عز وجل-، وهو {مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، من تقوى القلوب، والله -عز وجل- يقول: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ} [سورة البقرة:١٥٨]، فتعظيم الصفا والمروة وسائر الأشياء التي تكون بهذه المثابة كله {مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}، والذي يفرح بأعياد المسلمين ويحبها ويعظمها ويتهيأ لها ويستعد ويلبس أحسن ما يجد هذا {مِنْ تَقْوَى

---

٤ - ذكره البخاري موقوفا في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب في أضحية النبي -صلى الله عليه وسلم- بكبشين أقرنين ويذكر سمينين، (٢١١٠/٥)، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ط٣.

الْقُلُوبِ} والذي يتضايق من أعياد المسلمين، يقول: هذه أعياد النوم ولا يرفع لذلك رأساً، وتجده لا يتهيأ للعيد لا بثوب حسن وينام في ذلك اليوم، لكن قد يعظم أعياد المشركين هذا يدخل في قوله: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ}، ويدخل فيه الأضاحي واستسمانها، وكون الإنسان يبحث عن الرخيص، ويفرح لمّا يجد أضحية مثلاً بستمائة ريال، ويرى أن هذا مغنم ومكسب، وإن ظفر بأمر مثل هذا يسعد به ويسر فهذا ليس {مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}، والذي يبحث عن الدون أو الأنواع التي ليست مرتفعة الثمن، ويحاول أن يُخرج أضحية في بلدٍ الأضاحي فيها بمائتين وخمسين ريالاً مثلاً وهو يستطيع أن يشتري أضحية ويذبحها ويأكل منها في بلدة بما هو أكثر من هذا، لا على سبيل المباحات لكنه من باب تعظيم شعائر الله فيذهب إلى السوق، وهو منشرح الصدر، يرى أن هذا من الغبطة، ويتقرب به من الله، ولا يرى أنه من قبيل المغرم، وأن هذا مال ضائع، وإنما يبحث عن الجيدة التي تكون كثيرة اللحم ويشتريها وكلما كانت أكمل وأعظم كلما كانت أفضل، وهكذا في الحج لربما يبحث عن الشركة أو كذا ليعطيهم أربعمائة وخمسين ريالاً من أجل أن لا يشتري بسبعمائة أو أكثر، يرى أن هذه خسارة وتضييع للمال، لكن هذا غير صحيح، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أهدى مائة من الإبل، وهذه المعاني للأسف أكثرنا لا يستشعرها، وحينما تتعلق الأموال بشهواتنا هذه لا يسأل الإنسان عنها، والإنسان يضحي في السنة مرة واحدة ولو نظر إلى ما يقدمه من الموائد إذا أتاه ضيف، ولو نظر الإنسان لنفقاته إذا دخل إلى متجر أو كذا كم يشتري في كل مرة، وهو يدخل في الأسبوع ربما أقل شيء مرة واحدة، في كل مرة بكم يشتري؟ والأضحية مرة واحدة في السنة.

وفي سنن ابن ماجه، عن أبي رافع: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين"[٥]، قيل: هما الخَصِيَّان، وقيل: اللذان رُضَّ خُصْيَاهما، ولم يقطعهما، والله أعلم.

وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر: "ضحى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بكبشين أقرنين أملحين موجوءين"[٦] و"الموجوءين" قيل: هما الخصيين.

العظيم غير السمين، فقد يكون سميناً وهو صغير، ولكن عظيم أي كبير في الخلق ضخم، و"سمينين أقرنين" والأقرن أكمل من الأجَمّ الذي ليس له قرون، والأملح من أهل العلم من قال: إن هذا اللون هو الأكمل في الألوان والأحسن فيها بالنسبة لهذه البهيمة، وبعضهم يقول: هذا له تعلق أيضاً بطيب لحمه، وأن هذا له أثر فيه، وبعضهم يقول: إن لم يكن له تعلق بطيب لحمه، يعني إن لم يثبت فإن ذلك يمكن أن يقال: إنه وقع اتفاقاً يعني لا يطلب أن يكون من هذا القبيل لكن من فعل ذلك اقتداء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- حتى لو قيل: إن ذلك لا يطلب يعني من جهة اللون استحباباً فهو يؤجر على القصد بالمتابعة في ذلك.

---

٥ - رواه ابن ماجه، كتاب الأضاحي، باب أضاحي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣١٢٢)، وأحمد في المسند، برقم (٢٥٠٤٦)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وهذا سند فيه ضعف.

٦ - هذا اللفظ لابن ماجه وأبي داود عن أنس -رضي الله عنه-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ضحى بكبشين أقرنين أملحين يذبح ويكبر ويسمي ويضع رجله على صفحتهما"، كتاب الضحايا، باب ما يستحب من الضحايا، برقم (٢٧٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٩٧٣).

وعن علي -رضي الله عنه-، قال: "أمرنا رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- أن نستشرف العين والأذن، وألا نضحي بمقابَلَة، ولا مدابَرَة، ولا شَرْقاء، ولا خَرْقاء"[٧].

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي.

حديث جابر عند ابن ماجه فيه ضعف، لكن صح من حديث أنس -رضي الله عنه-: " أمرَنا رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- أن نستشرف العين والأذن"، نستشرف يعني نتفقد ننظر في العين والأذن، وأن لا نضحي بمقابلة ولا مدابرة، ولا شرقاء، ولا خرقاء، والأشياء التي لا تصح في الأضاحي، وهناك أشياء لا تجزئ في الأضاحي، مثل العوراء البيّن عَوَرها، والعرجاء البين عرجها، والمريضة البين مرضها، والعجفاء التي لا تُنْقِي التي ذهب مخ عظامها من شدة الهزال، والضعف، ويبقي هناك أشياء مثل التي قد قطعت أذنها من الأمام أو من الخلف أو خرقت، كان الناس يضعون هذه علامةً لتعرف بها دوابهم وبهائمهم ويميزونها بذلك، يقولون هنا: **وألا نضحي بمُقابَلة ولا مُدابَرة ولا شرقاء**، المقابلة هي التي قصت أذنها من الأمام، والمدابرة من الخلف، ولا خرقاء، لكن الشرقاء لعلها التي قطعت أذنها طولاً.

قوله: وأما المقابلة: فهي التي قطع مقدم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها، والشرقاء: هي التي قطعت أذنها طولا قاله الشافعي، وأما الخرقاء فهي التي خَرَقت السِّمَةُ أذنَها خرقا مُدَوّرًا، والله أعلم.

وعن البراء -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البيّن عَوَرها، والمريضة البين مَرَضها، والعرجاء البين ظَلَعها، والكسيرة التي لا تُنقِي))[٨]**، رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي.**

قوله: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ} أي: لكم في البُدن منافع، من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها.

{إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}: قال مِقْسَم، عن ابن عباس في قوله: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} قال: ما لم تُسَمَّ بُدنا.

البَدَنة هي الناقة أو الإبل يقال لها البُدن، والبقر على خلاف هل يقال ذلك لها أو لا؟ فالبعض قال: لا، ومنهم من قال: يقال لها بدنة، والبقر تجزئ عن سبعة كالإبل، فالسلف يقصدون ما لم تُعيَّن، فأصل البُدن يقال للإبل، ويقال للبقر على خلاف في البقر، فقد يعبر بهذه العبارة ويُقصد بها ما خُص وعُين ليكون هدياً لبيت الله الحرام، ولهذا الرجل لما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: اركَبْها، قال: ((إنها بدنة))[٩]، بمعنى: أن هذه

---

٧ - رواه أبو داود، كتاب الضحايا، باب ما يكره من الضحايا، برقم (٢٨٠٤)، والنسائي، كتاب الضحايا، باب المدابرة وهي ما قطع من مؤخر أذنها، برقم (٤٣٧٣)، والترمذي، كتاب الأضاحي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما يكره من الأضاحي، برقم (١٤٩٨)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، برقم (٤٨٧).

٨ - رواه النسائي، كتاب الضحايا، باب ما نهى عنه من الأضاحي العوراء، برقم (٤٣٦٩)، وابن ماجه، كتاب الأضاحي، باب ما يكره أن يضحى به، برقم (٣١٤٤)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٥١٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح، وابن حبان في صحيحه، برقم (٥٩٢٢)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، برقم (١١٤٨).

٩ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب ركوب البدن، برقم (١٦٠٤)، ومسلم، كتاب الحج، باب جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها، برقم (١٣٢٢).

قد تعينت وارتسمت بهذا بدنة، وهو لا يقصد أنها ناقة، فهذا اللفظ -والله أعلم- يطلق في أصل المعنى على الإبل، وقد يطلق على البقر، لكن في الغالب على الإبل، ويطلق بإطلاق خاص على ما سبق منها يعني ما جعل منها من قبيل الهدي، فهنا يقول: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} قال ابن عباس: **ما لم تُسمَّ بدناً** يعني تنتفعون بهذه الإبل تركبونها وتنتفعون من أوبارها وألبانها وما أشبه ذلك، والإنسان إذا كان عنده إبل وقرر أن تكون هذه الناقة من قبيل الهدي وساقها إلى البيت أو اشتراها من السوق على هذا -على هذه النية- وصارت بدنة بإطلاق المخصص، فعلى القول بأنها ما لم تُسمَّ بدناً بهذا القيد يعني إذا صارت كذلك تعين أنه ليس له أن ينتفع بها، وإنما يبعث بها إلى البيت وتُنحر ثم بعد ذلك يأكل منها ويتصدق، على هذا القول، لكن القول الآخر هو الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- ابتداء قال: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ} أي: لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى، **قال مقسم عن ابن عباس في قوله: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} قال: ما لم تُسمَّ بدناً، وقيل: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديا، إذا احتاج إلى ذلك،** ومعنى ذلك أن قوله -تبارك وتعالى-: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} على قولين: {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} قبل أن يعين هذه هدياً، له أن يركب وأن ينتفع بها بأي طريقة شاء، والقول الآخر هو أنه: {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} يعني إلى وقت نحرها، فينتفع بها قبل ذلك {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ} فله أن يركبها إذا احتاج إلى ذلك، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اركَبْها))، قال: إنها بدنة، قال: ((ويحك اركبْها))، فيجوز له ركوبها على خلاف بين أهل العلم، هل ذلك يكون على سبيل الاضطرار؟ وهل له أن يحمل عليها من غير اضطرار أو لا؟ والأقرب -والله أعلم- أن هذا لا يقيد بالضرورة، وإنما يمكن أن يقال: للحاجة إذا احتاج فهذا الرجل الذي كان يمشي لم تبلغ به الحال إلى حد الضرورة، ومع ذلك قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اركَبْها)) لكن إن وُجد غيرها عنده مراكب أخرى فإنه يركب غيرها لكن إن احتاج إليها ركبها كما أنه يحمل متاعه عليها، وهكذا في ألبانها، هل له أن يشرب من ألبانها وهي بدنة؟ يقال: إذا كان ذلك مما يزيد عن حاجة ولدها، فإذا كان معها ولد فله أن يشرب، وقد لا يكون معها ولد وفيها لبن فله أن يشرب ولا مانع من هذا، والله تعالى أعلم.

وقيل: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت في الصحيحين عن أنس: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى رجلا يسوق بدَنَةً، قال: ((اركَبْها))، قال: إنها بَدَنَة، قال: ((اركبْها، ويحك))، في الثانية أو الثالثة.

وفي رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((اركبْها بالمعروف إذا أُلجئتَ إليها)).

فهذه الرواية مقيدة: ((إذا أُلجئتَ إليها)) بمعنى أن ذلك يقيد بالحاجة، والناس الآن ما عادوا يركبون هذه الدواب ولا يكاد أحد يسوق الهدي، والناس يشترون الهدي من مكة، ولا يكون سوق الهدي إلا أن يؤتي به من الحل.

وقوله: {ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ} أي: مَحِل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: {هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ} [سورة المائدة:٩٥]، وقال {وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ} [سورة الفتح:٢٥].

وذلك ليس من المحل وإنما الإحلال {مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ} فعندئذ يحل نحرها، والمقصود بالبيت هنا هو هو الكعبة، والمقصود في هذه الآية الحرم، والعتيق قيل: المعتق من الجبابرة، وقيل: العتيق بمعنى القديم، والله -عز وجل- يقول: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} [سورة آل عمران:٩٦] والقِدم على نوعين تارة يكون من قبيل الزيادة في نفاسة الشيء، وهذا موجود فيما يتعاطاه الناس اليوم، ويقال: هذا الطيب، والعود والدهن معتق! فبعض الأشياء القديمة يكون ذلك أعظم في حقها وأنفس، وأكثر في قدرها، وقيمتها، وأحياناً يكون العكس فيقول: هذا الثوب عتيق، وهذا بيت عتيق أي قديم لا نظر لك فيه، وبعضهم يقول في معنى العتيق: إنه تعتق فيه الرقاب من النار من عذاب الله -عز وجل-، ويمكن حمل الآية على هذه المعاني أنه معتق من الجبابرة، وأنه القديم وغير ذلك مما قيل فيه.

وقوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [سورة الحج:٣٤-٣٥].

يخبر تعالى أنه لم يَزَل ذبحُ المناسك وإراقةُ الدماء على اسم الله مشروعًا في جميع الملل.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} قال: عيدًا.

وقال عكرمة: ذبحا.

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ}: **يخبر أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل**، ونقل عن **ابن عباس** {مَنْسَكًا} **قال: عيداً**، وهذا قال به بعض أصحاب المعاني مثل الفراء، **يقول عكرمة: ذبحاً**، والنسيكة هي الذبيحة، وقال زيد بن أسلم في قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} إنها مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها، والمنسك يقال: للعبادة، فيقال مثلاً: فلان متنسِّك أي متعبد، ويقال لعبادة مخصوصة وهي الحج والعمرة، ويقال: النسك والمناسك، ويقال لجزء من هذه العبادة وهو الذبح والقرابين من الهدي، فيقال: نسيكة ذبيحة، وبعضهم يقول: إن المقصود به المكان الذي نذر الرجل أن ينحر إبلاً ببوانة وسأل النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- عن هذا فسأل -عليه الصلاة والسلام- هل فيها عيد من أعياد المشركينظ، فالشاهد أن في تاريخ العرب في الجاهلية عندهم في أعمال الحج أماكن للنسك يذبحون فيها قريباً من مكة، فمنهم من يذهب إليها قبل الحج، وقبل أن يأتي مكة، وبعضهم يذهب إليها بعده ولهم في هذا أخبار كثيرة، يمكن أن يراجع في هذا كتاب تاريخ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام في نحو عشرة مجلدات، ذكر فيها المناسك عند العرب الأماكن التي يُذبح فيها ذكر ذلك بالتفصيل، والمراد -والله تعالى أعلم- كأنه قال: إنها مكة جعل المكان الذي يذبح فيه! ومن قال: إنه الذبح أي النسيكة هي الذبيحة، وهكذا لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل، وحيث إن الله تعالى شرع لهم ذلك وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فدى الله ابنه إسماعيل بذبحٍ عظيم، يعني بذبيحة {لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ} يعني على ذبحها، وفي وقت الذبح، ولا حاجة لأن يقال: {لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ} أنه عند مشاهدتها مثلاً، و{لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ} على ذبحها، وقيل: إن هذه الآية تدل على

أن الأيام المعلومات يوم النحر، وأيام التشريق؛ لأن الذبح لا يكون إلا فيها، وقوله: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا} أي: على ذبحها، ويمكن أن يشمل ذلك ذكر الله -عز وجل- وشكر المعبود -جل جلاله- على تسخيرها إذا شاهدوها.

وقال زيد بن أسلم في قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا}، إنها مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها.

وقوله: {لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ}، كما ثبت في الصحيحين عن أنس -رضي الله عنه- قال: "أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبر، ووضع رجله على صِفَاحهما"(١٠).

إذا جعلنا مكة منسكاً معنى ذلك أنه محل الذبح، ولهذا قال الأزهري -وهو إمام كبير في اللغة-: يعني موضع النحر منسكاً أي موضعاً، النحر جعلنا منسكاً يعني محلاً ومكاناً لنحر النسك وهو مكة.

وصِفاحهما يعني: العنق، صفحة العنق الرقبة، ليكون ذلك أثبت وأمكن في الذبح، وهذه هي السنة في ذبح الغنم بهذه الطريقة ويتوجه بها إلى القبلة، وتكون مضطجعة على شقها الأيسر، ولو كان الذابح أعسر يعني يذبح باليسار قد لا يتيسر له هذا فقد يؤذي نفسه وقد يؤذي الذبيحة فيمكن أن يجعلها على شقها الأيمن، ولا مانع من هذا، كما أنه يمكن أن تذبح من خلف الرقبة لكن يتحرى ما هو الأسرع في إزهاق الروح والأيسر على البهيمة، وذلك بمقدم الرقبة.

وقوله: {فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا} أي: معبودكم واحد، وإن تَنوّعَت شرائع الأنبياء ونَسخَ بعضها بعضًا، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [سورة الأنبياء:٢٥]، **ولهذا قال: {فَلَهُ أَسْلِمُوا} أي: أخلصوا واستسلموا لحُكْمه وطاعته.**

{وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين، وقال السدي: الوجِلين.

وقال عمرو بن أوس: المخبتون: الذين لا يَظلِمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

وقال الثوري: {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} قال: المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له.

وأحسن ما يفسّر بما بعده وهو قوله: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} أي: خافت منه قلوبُهم، {وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ} أي: من المصائب.

الإخبات معنى يلتئم التواضعَ والكسرة في القلب، والخضوع والتذلل، فهذا هو المُخبِت، فتارةً يفسر بأثره، وتارةً يفسر ببعض معناه وهو معنى يلتئم هذه الأشياءَ، -والله تعالى أعلم-، والمخبت يظهر أثر ذلك عليه من التواضع والتخشع وهو معنى في القلب يكون بانكساره وتذلله وتخشّعه لربه وخالقه -جل جلاله- **{الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}.**

{وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ} أي: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } أي: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقّائهم وقراباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم،

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب الأضاحي، باب وضع القدم على صفح الذبيحة، برقم (٥٢٤٤)، ومسلم، كتاب الأضاحي، باب استحباب الضحية وذبحها مباشرة بلا توكيل والتسمية والتكبير، برقم (١٩٦٦).

ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله، وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره في سورة "براءة".

{وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة الحج:٣٦].

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما خلق لهم من البُدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يُهدى إلى بيته الحرام، كما قال تعالى: {لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا} الآية: [سورة المائدة:٢].

قال ابن جُرَيج: قال عطاء في قوله: {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} قال: البقرة، والبعير، وكذا رُوي عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري. وقال مجاهد: إنما البُدن من الإبل.

البدانة تعنى السِّمن، يقال: فلان بدين أي سمين، والبُدن هو الضخم، وقيل: للبدن ذلك؛ لعظمها وضخامة خلقها وأجسامها، وقال هنا: {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} والشعائر هي أعلام الدين الظاهرة، ويدخل فيها البدن، وتكون من هنا تبعيضية، فشعائر الله أعم من البدن، **قال ابن جريج: قال عطاء في قوله:** {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}: **البقر والبعير**، وهذا خلاف معروف بين أهل العلم، ومن قال به من الفقهاء والأئمة المتبوعين مالك، وأبو حنيفة -رحم الله الجميع-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن البقر تجزئ عن سبعة، فالمتبادر عند الإطلاق والأحق بهذا الوصف إذا قيل البَدَنة فهي الناقة، ولكن يدخل في ذلك البقر، يقال لها: بدنة وتجزئ عن سبعة قال: **وكذا رُوي عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصري: وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل** يعني خاصة.

وفي قولٍ يطلق على البقرة أيضاً، ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله وغيره، قال: أمرَنا رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- أن نشتركَ في الأضاحي، البدنةُ عن سبعة، والبقرة عن سبعة.

وقوله: {لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ}، أي: ثواب في الدار الآخرة.

وتخصيص الثواب في الدار الآخرة قد يكون غيره أولى منه وأوفى في المعنى، فلو قال قائل: لكم فيها خير في الدنيا والآخرة؛ لأن الله -عز وجل- قال قبله: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [سورة الحج:٣٣]، فالمنافع كالركوب، والحمل عليها إلى أن تبلغ محلها، والأكل من لحومها هذا في الدنيا، وفي الآخرة الثواب، ولذا يمكن أن يكون المعنى أعم، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-: في الدنيا والآخرة.

وقوله: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ}.

يعني اذكروا اسم الله على نحرها، و{صَوَافَّ} يعني صافة لقوائمها معقولة اليد اليسرى، معقولة بمعنى تُربط اليد اليسرى بحيث إنها لا تستطيع الانطلاق، والانفلات، ويسهل سقوطها، فبمجرد ما تطعن في لبتها -المكان الذي يكون بين يديها- تسقط على الناحية اليسرى ولا تستطيع الانفلات، وبعضهم ينحر الإبل غير معقولة اليد اليسرى فتفلت لاسيما إذا ضربت ضربة ليست قوية فيخرج منها الدم، ولكنها تؤذي الآخرين، ويحصل منها هيجان فتحطم كل من يقف أمامها.

وقوله: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ} وعن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن جابر بن عبد الله قال: صليتُ مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عيدَ الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: ((بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يُضَحِّ من أمتي))[١١].

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي عياش، عن جابر قال: ضحّى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بكبشين في يوم عيد، فقال حين وجههما: ((وجهتُ وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته))[١٢] ثم سمى الله وكبر وذبح.

وعن علي بن الحسين، عن أبي رافع؛ أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمُدية، ثم يقول: ((اللهم هذا عن أمتي جميعها، مَنْ شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ))، ثم يُؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: ((هذا عن محمد وآل محمد)) فيُطعمها جميعًا المساكين، ويأكل هو وأهله منهما.

رواه أحمد، وابن ماجه.

هذا من أجل أن يبين ماذا يقال عند الذبح، الله -عز وجل- قال: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ}.

وقال الأعمش، عن أبي ظبْيَان، عن ابن عباس في قوله: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ}، قال: قيام على ثلاث قوائم، معقولة يدُها اليسرى، يقول: "بسم الله والله أكبر، لا إله إلا الله، اللهم منك ولك"[١٣].

وفي الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بَدَنته وهو ينحرها، فقال: "ابعثها قيامًا مقيدة سنة أبي القاسم -صلى الله عليه وسلم"[١٤].

قوله: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ} يعني وهي في هذه الحالة صافّة لقوائمها معقولة اليد اليسرى فيذكرون اسم الله عليها ويذبحونها، وفي قراءة غير متواترة قرأ بها بعض الصحابة كابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر "صوافن" بالنون، والله -عز وجل- قال في الخيل في قصة سليمان -صلى الله عليه وسلم- أو في خبره قال: {الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ} [سورة ص:٣١] فالخيل حينما توصف بذلك يقال: صافن بالنون،

---

١١ - رواه أبو داود، كتاب الضحايا، باب في الشاة يضحى بها عن جماعة، برقم (٢٨١٠)، والترمذي، كتاب الأضاحي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١٥٢١)، وأحمد في المسند، برقم (١٤٨٩٣)، وقال محققوه: "صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن إن صح سماع المطلب بن عبد الله من جابر"، وصححه الألباني في إرواء الغليل، برقم (١١٣٨).

١٢ - رواه أبو داود، كتاب الضحايا، باب ما يستحب من الضحايا، برقم (٢٧٩٥)، وابن ماجه، كتاب الأضاحي، باب أضاحي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٣١٢١)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، برقم (٤٨٤).

١٣ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحج، باب نحر الإبل قياما غير معقولة أو معقولة اليسرى، قال الله -تبارك وتعالى-: "فإذا وجبت جنوبها" قال مجاهد: يقول إذا سقطت إلى الأرض، برقم (٩٩٩٧).

١٤ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب نحر الإبل مقيدة، برقم (١٦٢٧)، ومسلم، كتاب الحج، باب نحر البُدن قياما مقيدة، برقم (١٣٢٠).

ويجمع على صافنات يعني قد رفعت إحدى قوائمها الأربع، وهذه عادة في الخيل معروفة لكنها ليست عادة في الإبل، والمقصود أنها قد عقلت يدها فصارت على ثلاث قوائم، فالتي تقف على ثلاث يقال لها: صافن.

وقوله: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} قال: ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: يعني: سقطت إلى الأرض.

وقال كذلك ابن عمر: "**ابعثها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم -صلى الله عليه وسلم**"، ولو أنه نحر الإبل وهي باركة حرام، ولو ذبحها ذبحاً أضجعها وتكلف فهذا خلاف السنة، والشاة أو البقرة تذبح **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** [سورة البقرة:٦٧]، ولو نحر البقرة أو الشاة يصح لكنه خلاف السنة، وبعض العوام يشدد في هذه الأشياء، بل بعضهم يتوهم أنه لو ذبح الشاة من غير المفصل الذي يكون موضع الحنجرة فإنه لا يأكلها، ولذلك يحرص ويتلمس الموضع الناتئ من أجل أن يذبحها منه، فلو وجدها ذبحت من غيره قال: هذا الذبح لا يجزئ، لا تؤكل، مع أنه يمكن أن تذبح من أي مكان في الرقبة، ولا إشكال في ذلك.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج من الآية ٣٦ إلى الآية ٣٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله، وتعلق بغيره، ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيها مركبا ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكا لا يرجى معه نجاة، فصور حاله بصورة حال مَن خر من السماء فاختطفته الطير في الهوى، فتمزق مزقا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به"[1].

حينما يقول الله -عز وجل-: **{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ}** [سورة الجمعة:٥] يكون التشبيه متطابقاً، فهؤلاء الذين يحملون علما لا يعملون به كمثل الحمار يحمل كتباً لا ينتفع بها فهو مطابق للمَثل بها، لكن الأمثال المركبة من أهل العلم من يرى أنه لا يطلب فيها أن يتطابق كل جزء من المثل مع ما ضرب له، وإنما ينظر إليها باعتبار التركيب ككل، فهذا هو المنحى الأول الذي أشار إليه ابن القيم بكلامه هذا، وهو أنه تصوير لحال من أشرك بالله -عز وجل- فقد هلاك هلاكاً بعيداً مثل الذي خر من السماء فتخطفه الطير فتهوي به الريح في مكان سحيق فلا تسأل عن حاله.

الطريق الثانية التي يسلكها بعضهم في تفسير الأمثال: **{فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}** [سورة الحج:٣١]، أن يحاول أن يطبق كل جملة على شيء مما ضرب له المثل، مثل قوله -تبارك وتعالى-: **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ}** [سورة البقرة:١٧]، ثم قال: **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ}** [سورة البقرة:١٩]، ماذا عنى بالممثل له؟

وقال -رحمه الله-: "والثاني أن يكون من التشبيه المفرق فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه"[2].

يقابل السماء بالإيمان في ارتفاعه وعلوه.

---

١ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٢١٣/١)، والأمثال في القرآن الكريم، لابن القيم (٤٤-٤٥).

٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢١٣/١)، والأمثال في القرآن الكريم (٤٦).

وقال -رحمه الله-: "قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها يهبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة، والطير الذي يخطف أعضاءه ويمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله -سبحانه وتعالى- عليه تؤزه أزاً، وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء"[٣].

الأول أقرب -والله تعالى أعلم- وأبعد عن التكلف، الريح تهوي به في مكان سحيق، هل المقصود به ريح الهوى؟ أو تحقيق الهلاك؟ هذا الإنسان قد هلك ولا يرجى له بعد ذلك عافية أو سلامة هذا هو المراد، والله أعلم.

وقوله: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} [سورة الحج:٣٦] قال: ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: يعني: سقطت إلى الأرض.

وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} يعني: ماتت.

وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنة إذا نُحرت حتى تموت وتَبْرد حركتها، وقد جاء في حديث مرفوع: ((ولا تُعجِلُوا النفوسَ أن تَزْهَق))[٤]، وقد رواه الثوري في جامعه، عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك، ويؤيده حديث شَدّاد بن أوس في صحيح مسلم: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة ولْيُحدَّ أحدكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذَبِيحته))[٥].

وعن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما قُطع من البهيمة وهي حية فهو مَيْتة))[٦].

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

٣ - المصدر السابق.

٤ - رواه الدارقطني في سننه برقم (٤٧٥٤)، وفي إسناده سعيد بن سلام العطار تركه الدارقطني وضعفه أبو داود انظر: تاريخ الإسلام، للإمام الذهبي (٣٢٢/٥)، والبيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٩١٢٤)، وقال: وقد رُوي هذا من وجه ضعيف مرفوعاً، وليس بشيء.

٥ - رواه مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، برقم (١٩٥٥).

٦ - رواه أبو داود، كتاب الصيد، باب في صيد قطع منه قطعة، برقم (٢٨٥٨)، والترمذي، كتاب الأطعمة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما قطع من الحي فهو ميت، برقم (١٤٨٠)، وابن ماجه، ، باب ما قطع من البهيمة وهي حية، برقم (٣٢١٦)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٩٣٠)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٠٥٨٩).

فقوله: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} قال مجاهد: **يعني سقطت إلى الأرض، وقال عبد الرحمن بن زيد: {فَإِذَا وَجَبَتْ} يعني ماتت**، هذان القولان لا منافاة بينهما؛ لأن بين القولين شبه ملازمة، بمعنى أنها إذا ماتت سقطت جنوبها، فالذي قال: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} أي: سقطت، فسره بمطابقة اللفظ أو بما هو قريب من المطابقة، يقال: وجبت الشمس بمعنى سقطت فمعنى الوجوب: السقوط والوقوع، ومن فسره بأنه بمعنى ماتت فكأنه فسره بالمعنى أو بلازمه: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} أي سقطت على الأرض بمعنى ماتت، فهو تفسير له باعتبار المعنى، ولا إشكال في هذا، ومن ثم لا حاجة إلى ترجيح بين القولين بأن نقول: وجبت بمعنى سقطت إذا ماتت.

قال: **فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها**، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما قطع من البهيمة وهي حية فهو مَيْتة)).

قوله: {فَكُلُوا مِنْهَا} أمر إباحة.

قال العوفي، عن ابن عباس: القانع: المستغني بما أعطيته.

في قوله تعالى: {فَكُلُوا مِنْهَا} الأصل أن الأمر للوجوب، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أهدى مائة من الإبل في حجته -صلى الله عليه وسلم-، نحر ثلاثاً وستين بيده الشريفة -صلى الله عليه وسلم-، وأكمل الباقي عليٌّ -رضي الله عنه-[٧]، الشاهد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر ببضعة من كل واحدة منها فطبخت فشرب من مرقها، فكأنه قد نال من جميعها، لكن هل يجب على الإنسان أن يأكل؟ عامة أهل العلم على أن ذلك للندب، وهنا قال ابن كثير -رحمه الله-: **أمر أباحة**، وعبارة ابن جرير مشابهة، لكن ينبغي أن يفهم المراد بذلك، حينما يقول ابن كثير: **أمر أباحة** أو ابن جرير فمرادهما بهذا أنه لا يجوز أن يأكل منها قبل خروج روحها، ولهذا قدم قبله: ((ما قطع من البهيمة وهي حية فهو مَيْتة))، {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} حل أكلها، {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا} فهو أمر إباحة بهذا الاعتبار، {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} حل لكم، وأبيح لكم الأكل منها {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ}، ولهذا عبارة ابن جرير أدق من عبارة ابن كثير.

قوله تعالى: (وأطعموا) هذا أمر أيضاً، فهل هذا الأمر للوجوب، فيجب على الإنسان أن يطعم منها؟، بعض أهل العلم يقول: إنه للوجوب، وممن ذهب إلى هذا الشافعي -رحمه الله-، وأنه يجب على الإنسان أن يطعم من هديه، وليس ذلك محل اتفاق، فقد ذهب جماعة من السلف ومن بعدهم إلى أن ذلك للندب، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، فيجوز للإنسان أن يأكل هديه أجمع، ويجوز له أن يطعم ذلك جميعاً لا يُبقي منه شيئاً.

والعلماء -رحمهم الله- تكلموا على القدر الذي يؤكل، والقدر الذي يطعم، وإلى كم تقسم، فهنا الله -تبارك وتعالى- قال: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ} على خلاف في معنى القانع والمعتر، فعلى بعض الوجوه في التفسير أن الجامع بينهما هو الحاجة والفقر، سواء قلنا: إن الأول يتعفف من السؤال، والثاني يسأل، أو

---

٧ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٨٨٠)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لضعف محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، فإنه سيىء الحفظ".

العكس، فعلى هذا يكون المذكور قسمين: الأكل وإطعام المحتاجين، وعلى بعض الوجوه في تفسير القانع والمعتر -كقول من قال: إن المعتر هو الضيف والزائر، وليس الفقير- فإنه يكون قد ذكر ثلاثة أقسام: الأكل وإطعام الفقراء وإطعام من ألمَّ به من ضيف ونحوه ممن يعرض له ويرِد عليه، ويمكن أن يسمى هذا القسم بالإهداء أو القَراء، ولهذا بعضهم يقول: إنها تجعل على أقسام: فيهدي، ويأكل، ويتصدق، وبعض هؤلاء يقول: تقسم على ثلاثة أقسام بهذا الاعتبار، لكن ليس هناك دليل واضح على شيء من هذا؛ فالله -عز وجل- يوجه إلى ما ينبغي فعله فيها من أكل وإطعام، لكن تقييد ذلك بقدر معين كالثلث أو نحوه فهذا يحتاج إلى دليل خاص، لكن حينما تذكر هذه الأقسام مثل لو قلنا: إن الأقسام ثلاثة، فالقسمة العادلة أن يكون على أثلاث، لكن من لم يقسم على أثلاث لا يقال: إنه مقصر أو إنه خالف العمل المشروع؛ لأنه إن أطعم شيئاً للفقراء ولو قليلاً يكون قد حقق الأمر.

قال العوفي: عن ابن عباس: القانع: المستغني بما أعطيته.

فسر القانع أنه: **المستغني بما أعطيته وهو في بيته**، يعني غير الطامع، فيكون وهو في بيته، بمعنى أنه لا يخرج للسؤال، ولا يطلب فهو متعفف، وعلى هذا الاعتبار يمكن أن يقال: إنه قدم بالذكر؛ لأنه لا يُشعَر به كما ذكر الله -عز وجل- في أول من يصرف لهم الفيء بعدما ذكر الأقسام المعروفة قال: {**لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ**} [سورة البقرة:٢٧٣]، ثم مدحهم فقال: {**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ**} فلا يظهر عليهم من علائم الفقر ودلائله كشحوب الوجه ورثاثة الهيئة ونحو ذلك {**تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**}، لا يسألون ملحفين، قال ذلك؛ مبالغة في الثناء عليهم، وإلا فهم لا يسألون بإلحاح ولا بغير إلحاح، فالشاهد أن القانع المستغني بما أعطيته، فإذا فسر بهذا يكون قُدِّم لأنه لا يشعر به بخلاف الذي يخرج ويطلب.

والمعترّ: الذي يتعرض لك، ويُلمّ بك أن تعطيه من اللحم، ولا يسأل، وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القُرَظِيّ.

يعني ولا يسأل، بمعنى أنه يأتي فيقف في طريقك وأنت تذبح هذه الأضحية أو هذا الهدي، يقف يريد أن تعطيه منها، فبهذا الاعتبار فسر المعتر، **وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب القرضي، وقال به جماعة آخرون مثل الحسن النخعي.**

وقال علي بن أبي طالب عن ابن عباس القانع: المتعفف.

القانع: المتعفف هذا يوافق الأول -ما روي عن ابن عباس قبله-: الذي يبقى في بيته، وفسر المعتر بالسائل وأطلق في ما روى عنه قبله بأنه الذي يتعرض لك ولكنه لا يسأل، فهو سائل لكن بالحال وليس بالمقال، فهنا أطلق قال: الذي يسأل، المعتر: السائل.

والمعتر: السائل، وهذا قولُ قتادة، وإبراهيم النَّخعي، ومجاهد في رواية عنه.

وهو رواية عن النخعي، ورواية أخرى كما سبق.

وقيل بالعكس، وقد احتج بهذه...

وقيل: بالعكس بمعنى أن القانع هو الذي يسأل، أي الطامع، والمعتر هو المتعفف الذي لا يسأل، ويقال: القَنِع يعني الذي يسأل، ويقال: قنِعَ بالكسر يقنَع إذا سأل، والخليل بن أحمد فسر القانع بأنه المتعفف عن السؤال، المستغني ببلغة، وهذا يوافق ما روي عن ابن عباس قبله إذ قال: المستغني بما أعطيته وهو في بيته، لا يسأل، متعفف، ولو أُعطي ما أُعطي فإنه يقنع بذلك، ولا تطلب نفسه أكثر منه، وهذا ليس محل اتفاق، فكلام أهل العلم في هذا وخلافهم فيه كثير والإمام مالك -رحمه الله- يقول: أحسن ما سمعت فيه أن القانع الفقير، والمعتر هو الزائر، وابن جرير -رحمه الله- ذكر فيها ثمانية أقوال: ورجح بأن القانع هو السائل باعتبار ما سبق في أصل هذه المادة، يقال: قنِع يقنَعُ إذا سأل، وهذا اختاره أيضاً الشنقيطي -رحمه الله- وأوردوا له شواهد من كلام العرب، أن القانع معناه السائل، وفسر الشنقيطي -رحمه الله- المعتر بالذي يتعرض لك من غير طلب، السائل بالحال، القانع والمعتر، القانع هو الطالب، والمعتر هو الذي يتعرض لك من غير أن يتكلم، {وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ}، فصار المجمل والخلاصة في هذه الأقوال إما أن يكون ذلك في أصناف المحتاجين، فأحدهما يسأل بلسانه، والآخر يسأل بحاله، سواء قلنا: الأول أو الثاني، أو يقال: إن أحدهما هو السائل، والثاني هو الزائر أو الضيف، أو من دخل عليك، أو من ألمّ بك، أو زارك أو نحو هذا.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة مَن ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزَّأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله منها، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ}، وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال للناس: ((إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم))[٨].

في رواية أخرى: ((فكلوا وادخروا وتصدقوا))، وفي رواية ((فكلوا وأطعموا وتصدقوا))، فإذا اجتمعت هذه الروايات مع الأقوال في الآية بمعنى أن هذا ما يبقيه لنفسه، وأطعموا، فالإطعام هنا يختص بالفقراء والإهداء ونحو ذلك لهذا جاء ادخروا وتصدقوا، فإذا اجتمعت هذه الروايات تخرج بثلاثة أصناف، وإذا اجتمعت الأقوال في الآية تخرج بثلاثة أصناف فهذا مستند قول من قال: إنهما تجزأ على ثلاثة أقسام، ويحسن بالإنسان أن يأكل من هديه، أو أضحيته وأن يتصدق بشيء منها، وأن يقدم لغيره سواء كان يقدم لهم طعاماً، يأتون إليه فيأكلون منه من ضيوف أو جيران أو أقارب أو غير هذا، أو يقدم لهم لحماً، يعني يقدم لهم طعاماً بمعنى أن يصنع هذا الطعام –الأضحية- فيأكلوا عنده، أو يقدم لهم لحم أضحيته أو هديه.

وفي رواية: ((فكلوا وادخروا وتصدقوا))، وفي رواية: ((فكلوا وأطعموا وتصدقوا)).

وأما الجلود، ففي مسند أحمد عن قتادة ابن النعمان في حديث الأضاحي: ((فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها))[٩].

---

٨ - رواه مسلم، كتاب الأضاحي، باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء، برقم (١٩٧١).

٩ - رواه أبو داود، كتاب الضحايا، باب في حبس لحوم الأضاحي، برقم (٢٨١٢)، والنسائي، كتاب الفَرَع والعتيرة، باب تفسير العتيرة، برقم (٤٢٣٠)، وأحمد في المسند، برقم (١٦٢١١)، وقال محققوه: إسناده ضعيف.

الرواية لا تخلو من ضعف، وجلود الأضاحي يمكن للإنسان أن ينتفع بها، ويمكن أن يقدم ذلك صدقة أو هدية أو نحو هذا لينتفع به غيره.

مسألة:

عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم عجّله لأهله، ليس من النسك في شيء))[١٠] أخرجاه.

هذا الحديث يدل على أن الإنسان يبدأ أولاً بالصلاة ثم بعد ذلك ينحر فمن فعل فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم عجّله لأهله، لكن يبقى الكلام في بعض المسائل التي تكلم عليها أهل العلم في هذا الحديث، وفي غيره أيضاً مسألة ذبح الأضاحي وكذلك الهدي متى يذبح؟ فقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخرج بأضحيته إلى المصلى فيذبحها، فيكون في هذا إظهار لهذه الشعيرة، وتعليم للناس؛ ليقتدوا به، وكان ابن عمر يفعل ذلك، لكن الناس تركوا هذا، فلا يخرج الإمام بأضحيته إلى المصلى، فحينما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخرج بها فلا يذبح أحد قبله؛ لأنه يذبح في المصلى، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ثم نرجع فننحر، فمن فعل فقد أصاب سنتنا))، أما إذا لم يصلِّ مثلاً لسبب كأن يكون مريضاً، أو امرأة تريد أن تضحي وهي في البيت متى تذبح؟ هل يقال: بعد طلوع شمس يوم العيد يجوز له أن يذبح، أو يقدر وقتاً للصلاة، أو يتحقق من انقضاء الصلاة، إذا كنا نقول: إنه لا يذبح قبل الإمام لو كان الإمام يذبح فقدر أيضاً الخطبة، وإذا كان العيد يُصلَّى في أكثر من مكان يقدر على الأقرب بالنسبة إليه، لكن يبقى إشكال وهو أنهم إذا تأخروا -كما يحصل أحياناً- فأهل العلم مختلفون في هذا فبعضهم قيده بقدر وقت الصلاة، وهذا لا شك أنه أكثر إراحة للناس، لا يدرون متى صلوا أو تأخروا، أو ما تأخروا، وبعضهم قيده بالصلاة فعلاً، أما تقييده بذبح الإمام أو الأمير فهذا لا يتأتى الآن؛ لأن الذبح لم يعد في المصلى، والمقصود أن الإنسان لا يصح له أن يستعجل بمجرد شروق شمس يوم العيد يبدأ يذبح، بل ينتظر حتى ينتهي الناس من الصلاة -والله أعلم-؛ لأنه قال: ((ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء))، أما من حضر الصلاة وصلى فهذا يذبح قطعاً، لكن الكلام في من لم يصلِّ، فظاهر الحديث للعموم فينبغي للناس أن يحتاطوا لعبادتهم، وهذا المعنى كثير من الناس لا يتفطنون له.

وفي صحيح مسلم: ((وألا تذبحوا حتى يذبح الإمام))[١١].

هذا التقييد يقال لو كان الأمر كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخرج بأضحيته ويذبح، لكن ما صار يفعل من أزمان متطاولة، فهل يقال حتى يذبح في بيته، وإذا لم يضحِّ الإمام فالجمهور يقولون: إنها لا تجب،

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد، برقم (٩٢٢)، ومسلم، كتاب الأضاحي، باب وقتها، برقم (١٩٦١).

١١ - لم أجده في مسلم بهذا اللفظ والذي في مسلم: ((لا يذبحن أحد حتى يصلي))، كتاب الأضاحي، باب وقتها، برقم (١٩٦١).

فالمقصود إذا كان الإمام يذبح في المصلى فإنهم لا يذبحون قبله، فمتى جاء بأضحيته إلى المصلى فينتظر حتى يذبح الإمام.

ويشرع الذبح يوم النحر، وثلاثة أيام التشريق بعده، لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أيام التشريق كلها ذبح))[١٢] رواه أحمد، وابن حبان.

هذا هو الأرجح، على خلاف كثير من أهل العلم في وقت الذبح متى ينتهي؟ وهل يجوز الذبح بالليل أو لا؟، والعلم عند الله -عز وجل-، ويجوز الذبح ليلاً ونهاراً إلى غروب شمس اليوم الثالث، فإذا غربت انتهى كل شيء.

وقوله: {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} يقول تعالى من أجل هذا {سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ} أي ذللناها لكم، وجعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} [سورة يس:٧١]، إلى قوله: {أَفَلَا يَشْكُرُونَ} [سورة يس:٧٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيرها {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ} التسخير والتذليل، ذللناها وسخرناها لكم تدل عليه الآية التي ذكرها في سورة يس وهي قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} [سورة يس:٧١-٧٢]، ثم قال: {وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} فهذه الأمور كلها داخلة، وفي قوله: {سَخَّرْنَاهَا} سخرها بالركوب والانقياد والأكل، يشربون من ألبانها، ويأخذون من أوبارها وأصوافها وأشعارها كل هذا من التسخير، {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ} هذا هو التسخير فهذه مسخّرة للإنسان ينتفع بها، وتنقاد له ولا تكاد تستعصي عليه، وإلا فهذا المخلوق الكبير الجمل الذي ينقاد للإنسان هو أقوى من الإنسان، لا شك أن هذا من تسخير الله -عز وجل-، وهذا أحسن من كلام بعض أهل العلم كابن القيم -رحمه الله- حيث إنه فسر ذلك بمعنى خاص {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ}، بمعنى إذا ذبحتموها وذكرتم الله عليها حل لكم أكلها، كذلك سخرناها لكم، تكون مسخرة بالأكل إذا فعلتم ما وجب من ذبحٍ أو نحرٍ مع ذكر اسم الله عليها، فخصه بهذا المعنى، والمعنى أوسع من ذلك والقرآن يفسر بالقرآن، وآية يس تفسر هذه الآية، والله أعلم.

ابن جرير -رحمه الله تعالى- يقول: {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ} أي قد أحل لكم أكلها، {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ} أي: أحل لكم، والمعنى أعم من ذلك، -والله تعالى أعلم-، يعني نظر إلى ما قبله فذكر اسم الله صواف، بهذه الطريقة صافة لقوامها معقولة اليد اليسرى، {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} خرجت نفوسها ماتت فعند ذلك يحل لكم أكلها ثم قال: {كذلك سخرناها لكم} يبقى المعنى أعم من هذا، هذا يدخل فيه والمعنى أوسع منه، والله أعلم.

{لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} [سورة الحج:٣٧].

---

١٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦٧٥١)، وقال محققوه: "حديث صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف"، وابن حبان في صحيحه، برقم (٣٨٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٥٣٧).

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرزاق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها.

يعني في الجاهلية قبل الإسلام كانوا يذبحون الهدي ويأخذون من دم الذبيحة ويلطخون به على نصب الأحجار التي كانوا يتقربون إليها، فالله -تبارك وتعالى- يبين لهم ما شرعه: {لَن يَنَالَ اللّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا} فإن دماءها ولحومها لا تصل إلى الله -عز وجل-، فإن الله غني عن ذلك، وإنما يناله أي الذي يصل إليه هو ما يحصل من تقوى العباد، لا الدماء ولا اللحوم فإن الله غني عن هذا، وإنما تعبَّدَ خلقه وكلفهم وشرع لهم الشرائع من أجل التقوى، {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة:١٨٣]، وهكذا حينما شرع لهم المناسك فهي لإقامة ذكر الله -عز وجل- فالذي يصل إليه من العباد هو التقوى، وإلا فإن الله -تبارك وتعالى- غني عن العباد وعن أعمالهم، وعن لحوم هذه الهدايا والأضاحي وعن دمائها.

فإنه تعالى هو الغني عما سواه وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم، ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: {لَن يَنَالَ اللّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا}، وروى ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله: {لَن يَنَالَ اللّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ}.

هذا سبب النزول لكنه مرسل من ابن جريج من التابعين، ولا تصح هذه الرواية، لكن هو معنى بيّنه الله لعباده، يبين لهم حينما شرع لهم هذه القرابين لا من أجل أن يصل إليه شيء من أجزائها وأبعاضها، وإنما الذي يصل إلى الله -عز وجل- ويرتفع إليه هو التقوى يعني {وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ} يصل إليه تقواكم.

أي يتقبل ذلك ويجزي عليه، كما جاء في الصحيح: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[١٣].

وقوله: {كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ} أي من أجل ذلك سخر لكم البُدن {لِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَىَ مَا هَدَاكُمْ} أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه.

في الآية المتقدمة قال: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ} فدلت تلك على التسمية، وهنا قال: {لِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَىَ مَا هَدَاكُمْ} فدل ذلك على التكبير، ولهذا يشرع له أن يجمع بينهما فيقول: بسم الله والله أكبر عند الذبح قال: {لِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَىَ مَا هَدَاكُمْ} أي: **لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه**، هذا باعتبار المعنى: ما شرعه من أجل تعظيم الله، مثل ما شرع الحج مثلاً لإقامة ذكر الله والسعي بين الصفاء والمروة والطواف وإقامة ذكر الله -عز وجل- هذا باعتبار المعنى، لكن أيضاً باعتبار اللفظ {لِتُكَبِّرُواْ اللّهَ} فيدل باللفظ على مشروعية التكبير عند ذبح الأضاحي والهدي، فيدخل فيه هذا وهذا.

---

١٣ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، برقم (٢٥٦٤).

أصل الحمل في قوله: {عَلَى مَا هَدَاكُمْ} على العموم، إلى أي شيء هداكم؟ للإسلام، هداكم للقرابين، والهدايا، وما شرع لكم في هذا بعد أن كان أهل الجاهلية يتخبطون بجهالة تضيع فيها أموالهم وتزهق فيها نفوسهم ويلقون فيها العنت، والعناء الشديد من غير طائل بل يرجعون بالوزر، فالله -تبارك وتعالى- هداكم لذلك كله، علمكم ما يحبه ويرضاه ويُتقرب به إليه؛ لتعملوا بذلك {لِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} لهذا الدين بعد أن كنتم في جهالة.

وقوله: {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} أي وبشر يا محمد المحسنين أي في عملهم القائمين بحدود الله المتبعين ما شرع لهم المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه -عز وجل.

الله -عز وجل- يقول: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [سورة الملك:٢] فالعبرة هي بإحسان العمل، وجبريل لما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإحسان، قال: ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[١٤]، على القولين المعروفين في الحديث هل هي مرتبة واحدة أو مرتبتان الأولى أعلى من الثانية؟، فالشاهد قال: {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} وقال: أي **في عملهم القائمين بحدود الله** فليست العبرة بكثرة الأعمال، وإنما بإحسان العمل وهذا له اتصال وتعلق لما يكون بقلب العبد وما يكون في الخارج من العمل الظاهر حيث يتابع به النبي -صلى الله عليه وسلم- فيكون في قلبه من الإخلاص والقصد الصحيح مع تعظيم الله -تبارك وتعالى- دون الالتفات إلى النفس بالعُجب، والزهو أو قصد الفخر أو المضاهاة بكثرة الأضاحي والهدايا ونحو هذا، ويكون متابعاً للنبي -صلى الله عليه وسلم- في مثل ذلك {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} فيتخير من الأضاحي والهدايا ما هو أطيب وأعظم، ولكن لا على سبيل المفاخرة والمباهاة، ولا يعجب بعمله أو يقصد الترفع به في قلوب الخلق أو نحو هذا، لا، {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ}، وكذلك يراعى في هذا حدود الله -جل جلاله- فلا يذبح قبل الصلاة مثلاً، ولا في غير أيام الذبح.

مسألة:

الأضحية سنة مستحبة، وتكفي واحدة منها عن جميع أهل بيت واحد، قال ابن عمر: أقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عشر سنين يضحي[١٥]، رواه الترمذي.

الحديث فيه ضعف، لكن كون الأضحية سنة مستحبة هذا قول عامة أهل العلم، والقول بالوجوب للقادر قول قوي تدل عليه أدلة مثل من وجد سعة ولم يضحِّ..، وقيل: من لم يضح لا يقربنا، فهذا قد يفهم منه الوجوب على القادرين وغير ذلك مما يستدل به القائل بالوجوب، فينبغي على الإنسان إذا كان يجدُ ويتمكن خاصة ونحن في هذه الأيام أيام حج فمن كان قادراً على الأضحية فإنه يضحي، تكون الأضحية سنة واحدة عنه،

---

١٤ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، برقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، برقم (٨).

١٥ - رواه الترمذي، كتاب الأضاحي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب الدليل على أن الأضحية سنة، برقم (١٥٠٧)، وأحمد في المسند، برقم (٤٩٥٥)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف فيه حجاج بن أرطأة"، وحسنه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (١٤٧٥).

وعن أهل بيته، والمقصود بأهل بيته يعني من يعولهم وينفق عليهم، عنه وعن أهل بيته من يعولهم وينفق عليهم، فالزوجة داخلة فيه والأولاد والبنات يدخلون فيه، والناس توسعوا في هذا فصارت الزوجة تريد أن تضحي، والبنت تريد أن تضحي، والولد يريد أن يضحي، لكن إن كان هؤلاء خارجين عنه بمعنى أن الولد مستقل متزوج أو عنده نفقته مستقلة فيضحي عن نفسه، وهكذا البنت إن كانت مستقلة في بيت عندها نفقتها فإنها تضحي، لكن أبوها يعولها يضحي بأضحية واحدة هذه هي السنة عنه وعن أهل بيته.

وقال أبو أيوب كان الرجل في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس، فصار كما ترى[١٦]، رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه.

قوله: **عنه وعن أهل بيته** بمعنى أنهم يشتركون في الثواب، ولا يشتركون في عين الأضحية على سبيل التملك لها، وكثير من الناس يسألون في مثل هذه الأيام على الإشراك في الأضحية، يعني أن تكون مشتركةً من جهة التملك بين مجموعة من الناس يعني يقولون: كل واحد يدفع فيها، يشترك في الشاة سبعة، ولا يصح الإشراك في الشاة، وإنما يكون الإشراك في الثواب في بدنة أو بقرة، لكن كيف يكون الإشراك في الثواب والأجر، ويكون قد ضحي عنه ونحو ذلك؟ أن يشملهم بأضحية بمعنى أن يكونوا في الأجر معه والثواب؛ لذلك الذي يمسك ولا يقص شعره هو صاحب الأضحية أما البقية من زوجه وولده فلا يمسكون، ويقال: إنه ضحي لهم أو ضحي عنهم، ولا يقال عنهم: إنهم قد ضحوا.

وقوله: **رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه**، يعني ابن ماجه رواه ولم يصححه.

وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله[١٧]، رواه البخاري.

ابن هشام من صغار الصحابة وهو عبد الله بن هشام التيمي.

وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم عن جابر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تذبحوا إلا مسنة، إلا أن يعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن))[١٨].

{إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُواْ إِنّ اللّهَ لاَ يُحِبّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ} [سورة الحج:٣٨].

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}، وقال: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً}.

في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُواْ} قرأ "يدفع" ابن كثير وأبو عمرو {إِنّ اللّهَ يَدْفَعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُواْ}، وهكذا في الآية الأخرى، قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ} [سورة الحج:٤٠]،

---

١٦ - رواه الترمذي، كتاب الأضاحي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن الشاة الواحدة تجزي عن أهل البيت، برقم (١٥٠٥)، وابن ماجه، كتاب الأضاحي، باب من ضحى بشاة عن أحد، برقم (٣١٤٧)، وصححه الألباني في إرواء الغليل برقم (١١٤٢).

١٧ - رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب بيعة الصغير، برقم (٦٧٨٤).

١٨ - رواه مسلم، كتاب الأضاحي، باب سن الأضحية، برقم (١٩٦٤).

وفي قراءة نافع {إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُواْ}، ثم: {وَلَوْلَا دَفْاعُ اللَّهِ النَّاسَ}، وفي القراءة التي تقرأ بها قراءة عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي {إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُواْ}، وفي الثانية {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ} هذه قراءة، والقراءة التي نقرأ بها يمكن أن تكون مفسرة بقراءة ابن كثير وأبي عمرو، {إِنّ اللّهَ يَدْفِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُواْ} يدفع يمكن أن تكون مفسرة لها، لأن قراءة يدفع قراءة واضحة لا إشكال فيها يدفع عنهم كيد الأشرار الفجار، ويدفع عنهم السوء كما قال ابن جرير -رحمه الله- في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ} [سورة النور:٢٦] وهكذا في قوله {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ}، ابن جرير مما ذكر في معناه: أن الكلمات الطيبات والأوصاف الطيبات للطيبين من الناس، والأوصاف الخبيثة والأقوال الخبيثة للخبيثين من الناس، فإذا صدرت منهم ضرتهم، وإذا صدرت وقيلت في حق أهل الإيمان لا يضرهم؛ لأنه ليس لهم، هكذا فسره ابن جرير وينبغي أن يدخل فيه دخولاً أولياً النساء؛ نظراً للنزول، وما جاء في أسبابه، فهنا هذه القراءة "يدفع" إذا قلنا: إنها مفسرة للقراءة الثانية، والقراءات يفسر بعضها بعضاً؛ لأن هاتين القراءتين تعودان إلى معنى واحد وهو الدفع، والفرق بين القراءتين أن "يدافع" صيغة مفاعلة في الأصل في الاستعمال تكون بين طرفين يدافع، يغالب، يقاتل، يعارك يجاوب، يضارب، لكن المدافعة لا تكون بين الله وبين أحد من خلقه، ولا أحد يستطيع أن يغالب الله، ومن هنا استشكل بعض أهل العلم هذه القراءة يدافع، فبعضهم قال: إن قوله يدافع بمعنى يدفع، وإن القراءة الأخرى مفسرة لها يدافع بمعنى يدفع، وليس المقصود به معنى المفاعلة، فتكون المدافعة –المفاعلة- هنا مستعملة في معنى أصل الكلمة المجرد، يعني من غير ملاحظة للأصل في استعمالها، وهو ما كان بين الطرفين فأكثر، وهذا له نظائر في كلام العرب؛ لأن المعاقبة تكون في تقابل بين الطرفين، أو إيقاع العقاب من طرف فاستعملت القاعدة على شيء يصدر من طرف، لكن المقاتلة والمبارزة والمجابهة والمناوءة كل هذا يكون بين طرفين، لكن المعاقبة من طرف واحد، والمجاوزة من طرف واحد، وهكذا المعنى المجرد للفظة دون نظر أو دون قصد لوقوع ذلك بين طرفين فأكثر؛ ولهذا بعضهم مثل الزمخشري يقول: {يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُواْ} إن هذا سبيل المبالغة، بيان دفعه -تبارك وتعالى- عنهم فعبر بلفظ المدافعة، وبعضهم يقول: لما كان جهاد هؤلاء الكفار في إيصال الأذى بكل سبيل مستطاع إلى أهل الإيمان جهداً كبيراً كما قال -عز وجل-: {وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [سورة إبراهيم:٤٦] عبر بمثل هذا {إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُواْ}، وكما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} [سورة الحج:٥١] معاجزين على هذه القراءة نفس الشيء، هل يمكن لهؤلاء أن يقوموا بدور مع الله -عز وجل-؟، أي يعجزونه، ويحاولون إعجازه فيفوتونه فلا يعاقبهم؟ ، فبعضهم قال: هذا على سبيل المبالغة، بعضهم قال: هذا لبيان شدة ما يجري على أيديهم وما يفعلونه، وما يسعون فيه من تثبيط، وتهبيط العزائم وما أشبه ذلك فاستعمل لهذا الاعتبار هذا اللفظ، ويأتي إن شاء الله، {إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُواْ}، الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، {إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُواْ} الوصف الإيمان، والحكم المرتب عليه المدافعة، فالحكم المرتب على وصف يزيد بزيادة الوصف وينقص بنقصانه، مدافعة الله -عز وجل- عن أهل الإيمان تكون بحسب ما يكون لهم من تحقيق هذه الصفة، فعلى قدر إيمان العبد على قدر ما يحصل من دفاع الله -عز وجل- عنه، يدافع عنه السوء والشر

وما إلى ذلك، على قدر الإيمان على قدر ما يحصل لنا من مدافعة الله -تبارك وتعالى- عنا، وهكذا {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢] يكون لهم الأمن والاهتداء على قدر ما عندهم من الإيمان.

وقوله: {إِنّ اللّهَ لاَ يُحِبّ كُلّ خوّانٍ كَفُورٍ} أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق لا يفي بما قال، والكفر الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

الكفر أوسع من هذا، لكنه أحد أنوع الكفر، في قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ يُحِبّ كُلّ خوّانٍ كَفُورٍ} خوان على زنة فعّال، وكفور علي زنه فعول وهذه صيغ مبالغة، هنا يرد سؤال وهو أن {لاَ يُحِبّ كُلّ خوّانٍ كَفُورٍ}؟ هل ينفي عن الخائن؟ لا، هل ينفي عن الكافر؟ لا ما هو كفور، الكفور كثير الكفران، والخوان كثير الخيانة، والله -عز وجل- لا يحب كل خوان كفور، قد يقال: إن من وقعت منه الخيانة -ليس كثيراً- فإن الله يحبه، الله لا يحب الخائنين، وقال في الكافرين أيضاً {فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [سورة آل عمران:٣٢]، ولا يحب الظالمين، يعني فهذه {لاَ يُحِبّ كُلّ خوّانٍ كَفُورٍ} ذكرت صيغة المبالغة لكن ذلك لا ينفي عمن وقع منه شيء من ذلك، فالله لا يحبهم بدليل الآيات الأخرى.

{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [سورة الحج:٣٩-٤٠].

قال العَوفي، عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة.

وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة: هذه أول آية نزلت في الجهاد.

كثير من أهل العلم يقولون: هذه أول آية نزلت في الجهاد، أول ما نزل فيه الأذان، في البداية منعهم وأمرهم بكف اليد ثم ذلك إذنٌ لهم {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} هذه في الأول ثم بعد ذلك {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ} [سورة البقرة:١٩٠]، ثم بعد ذلك أمرهم بالقتال أمراً عاماً {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً} ثم بعد ذلك جاءت الآية الخامسة من سورة براءة وهي آية السيف {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [سورة التوبة:٥]، ثم بعد ذلك الله -تبارك وتعالى- قال لهم: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ} [سورة التوبة:١٢٢] بعد أن كان للجميع أن يخرجوا، رخّص للضعفاء والمرضى.... إلى آخره.

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أُخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليَهلِكُن، قال ابن عباس: فأنزل الله -عز وجل-: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}، قال أبو بكر -رضي الله تعالى عنه-: فعرفت أنه سيكون قتال.

وزاد الإمام أحمد: قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال[١٩].

ورواه الترمذي، والنسائي في التفسير من سننيهما، وقال الترمذي: حديث حسن.

هذا الحديث الصحيح يدل على سبب نزول هذه الآية {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}، وفي القراءة الأخرى {أذن للذين يُقاتِلون بأنهم ظلموا} فيكون ذلك بسبب ما وقع لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ممن أخرجوا من ديارهم.

وقوله: {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، كما قال: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [سورة محمد:٤-٦]، وقال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة:١٤-١٥]، وقال: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [سورة محمد:٣١].

والآيات في هذا كثيرة.

هذا التوجيه الذي وجهه به الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو أن قوله {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} أي أن الله قادر على نصرهم من غير قتال، ولكنه أمرهم بالقتال ليبلو بعضهم ببعض كما دلت عليه الآيات، هذا معنى وليس ذلك محل اتفاق، فإن من السلف من فسرها بغير هذا، قال: {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}: هذا وعد منه -تبارك وتعالى- لهؤلاء الذين أذن لهم بالقتال، وعد لهم بالنصر، فالمعنى الأول {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} لكنه كلفهم بالقتال وإلا لو شاء لنصرهم من غير قتال، أهلك عدوهم أو آمن من في الأرض كلهم جميعاً لكن الله يبلو بعض العباد ببعض، فجعل منهم أهل الإيمان، وأهل الكفر وأمر هؤلاء بجهادهم، والصبر، والسفر، والعناء وبذل الأموال للابتلاء، والمعنى الثاني: أذن لهم بالقتال ووعدهم بالنصر {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}، ويمكن أن يقول قائل: إن الآية تتضمن هذا وهذا، فيها وعد لمن حقق أمره -سبحانه وتعالى- بالنصر، وأن الله قادر على نصرهم {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} فتنهض نفوسهم لتحقيق التوكل على الله -عز وجل- وصدق اللجوء إليه، والقيام بشرعه، فأمرهم بقتال عدوهم، {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} فهو قادر على نصرهم، {إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ} [سورة آل عمران:١٦٠] فيركنون إليه دون أحد سواه.

ولهذا قال ابن عباس في قوله: {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}: وقد فعل.

قول ابن عباس: وقد فعل، يكون وجهه بالوعد بالنصر وقد فعل، يعني أن هذا تحقق، ولهذا ربْطُ ابن كثير -رحمه الله- تفسير ابن عباس بما قبله لا يخلو من إشكال؛ لأن هذا على القول الآخر غير الذي ذكره ابن

---

١٩ - رواه النسائي، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، برقم (٣٠٨٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٦٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

كثير، يعني لو أن ابن كثير ذكره على أنه قول آخر في المسألة لما كان فيه إشكال، لكن حينما جاء بهذا السياق "ولهذا قال ابن عباس: وقد فعل" أشعر بأنه قول واحد، وهما قولان، هذا التوجيه والتخريج، لكن هما في الواقع قولان، يتضح ذلك بأن من يقرأ أنهم قولان كثير من الناس، وحينما تذكر الأقوال توجه، ولكن لا تذكر من سياق كأنها قول واحد.

وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا، فلو أمرَ المسلمين وهم أقل من العشر، بقتال الباقين لشَقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكانوا نيفا وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي -يعنون أهل مِنَى ليالي مِنى- فنقتلهم؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لم أومر بهذا))، فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النبي -صلى الله عليه وسلم- من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَذَرَ مَذَر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومَعْقلا يلجئون إليه شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقّ} قال العَوْفي، عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعني: محمدًا وأصحابه.

{إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} أي: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوه وحده لا شريك له، وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر.

يعني ليس لهم ذنب ولا جرم {إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} فكونهم آمنوا وقالوا: ربنا الله ليس جرماً يستحقون عليه الإخراج، فهذا استثناء منقطع، كقولك: جاء الرجال إلا فرساً هذا الاستثناء منقطع، وهكذا {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ} [سورة البقرة:٣٤] على القول الراجح إن إبليس من الجن هذا الاستثناء يعتبر منقطعاً، ومعنى منقطع يعني أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، والأصل في الاستثناء الاتصال وليس الانقطاع، فهنا هذا القول الذي ذكر هو اختيار سيبويه {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} [سورة الحج:٤٠] فهذا الإخراج ليس بحق، فهم ما فعلوا جرماً يستوجب الإخراج، هذا الذي قالوه حق، وهو قولهم: {رَبُّنَا اللَّهُ} فعلى هذا الاعتبار بالنسبة إلى ما في نفس الأمر يعتبر استثناء منقطعاً، وباعتبار آخر ما هو؟ باعتبار ما في نظر الكفار هذا أكبر جريمة عندهم وهو التوحيد، فهم ما خرجوا بسبب جرم قارفوه إلا أنهم وحدوا الله -عز وجل-، وهذا بالنسبة للمشركين يعتبر جرماً كبيراً، {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [سورة ص:٥] فيكون الاستثناء بهذا الاعتبار متصلاً بالنسبة إلى نظر المشركين، والخطاب أحياناً قد يأتي بحسب النظر من المخاطب، فالقول بأنه متصل قال به جماعة من أهل اللغة وأصحاب المعاني كالزجاج والفراء، قالوا: الاستثناء متصل، لكن أتت قراءة أن الاستثناء متصل باعتبار ومنفصل باعتبار.

وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالى: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} [سورة الممتحنة:١]، **ثم قال تعالى:** {وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} **أي: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم.**

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج من الآية ٤٠ إلى الآية ٤٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، قال الله تعالى:

{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} [سورة الحج:٤٠] **أي: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض، ولأهلك القوي الضعيف.**

{لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ} وهي المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، والضحاك، وغيرهم.

وقال قتادة: هي معابد الصابئين، وفي رواية عنه: صوامع المجوس.

وقال مقاتل بن حَيَّان: هي البيوت التي على الطرق.

{وَبِيَعٌ}: وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهي للنصارى أيضًا، قاله أبو العالية، وقتادة، والضحاك، وابن صخر، ومقاتل بن حيان، وخُصَيف، وغيرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ}** قراءة نافع: ولولا دفاع، **{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ}**، قال: **أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض ولأهلك القوي الضعيف** هذا القول الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع فيه بين الأقوال، فالآية تحتمل أن يكون المعنى" لولا أن يدفع بقوم عن قوم، **{وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ}** [سورة البقرة:٢٥١] لولا دفع الله -تبارك وتعالى- بقوم عن قوم لأهلك القوي الضعيف، ويحتمل أن يكون **{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ}** يعني يدفع أهل الشر والفساد بقوم فيبقي الخير والشر بحال من التدافع، فيبقى للناس دينهم وعبادتهم، وهذا المعنى أيضاً تحتمله الآية بل قد يكون هذا المتبادر منها؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ}** وهذا الفساد في الأرض يشمل صور الفساد المتنوعة، هنا ذكر الله في هذه الآية **{لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ}** هذه أماكن العبادة ويحصل الفساد في الأرض بأن يهلك القوي الضعيف، ويحصل ذلك أيضاً بإظهار الفساد بأنواعه الفساد الأخلاقي، والاعتقادي وغير ذلك، ولكن الله -عز وجل- من سنته أن يدفع هذا بهذا، ومثل هذا سنته الجارية **{وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ}** [سورة محمد:٤] وشرع الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيبقي الإيمان والكفر والخير والشر يعتلجان، فينكف كثير من الشر بسبب دفع أهل الإيمان، وقد يؤيد الله -عز وجل- هذا الدين بالرجل الفاجر، قد يحصل مصالح بتدافع الكفار وذلك فيما يقع بينهم من تناقضات وتنافس وتضاد فينكف بعض الشر كما لا يخفى، وقد يكون ذلك بدفع المسلمين وأهل الإيمان، **{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ**

النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ}، الحاصل أن ابن كثير هنا قال: **لفسدت الأرض ولأهلك القوي الضعيف** جمع بين القولين، وهذا الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ومن هذا نعرف ما يجب علينا من مدافعة الفساد والمفسدين، قال: **{لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ}** الصوامع هنا قال: **هي المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم**، الصومعة في اللغة: هي البناء المرتفع، فلان جالس في صومعة، يعني في بناء مرتفع، وهذا البناء المرتفع لا ينافي أن يكون صغيراً؛ لأن هذا يتخذه العابد أو الراهب متعبداً يمكث فيه، وينقطع فيه، لهدمت صوامع، وقال قتادة: هي معابد الصابئين، وفي رواية صوامع المجوس، والصابئون سبق الكلام عليها وأن الأرجح أن الصابئين طوائف وليسوا طائفة واحدة، فيوجد ممن يقال لهم هذا من يعبدون الكواكب، ولا زالت بقاياهم موجودة إلى اليوم في العراق، الصابئة، ويقال ذلك أيضاً: لقوم هم على الفطرة ليسوا بأهل إشراك؛ ولهذا كان المشركون يقولون لمن دخل في الإسلام: صبأ نسبةً إلى الصابئة لا يعبدون الأوثان، أو ربما يوجد طائفة من النصارى يقال لها أيضاً: الصابئة، وقال مقاتل بن حيان: هي البيوت التي على الطرق، والظاهر من السياق أنها أماكن للعبادة، لهدمت صوامع: أماكن للتعبد صومعة الراهب، **{وَبِيَعٌ}** قال: **وهي للنصارى أيضاً** يعني الصومعة مكان صغير والبيعة مكان كبير كالمساجد، **قاله أبو العالية، وقتادة والضحاك، وابن صخر ومقاتل وخصيف وغيرهم**، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله- أن البيعة هي مكان التعبد الكبير أو الأوسع، والصومعة هي مكان للأفراد ينقطعون فيه للعبادة، والبيعة مثل المسجد، بمنزلة المسجد لهؤلاء، والعلم عند الله -عز وجل-، قال وحكى ابن جرير عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود، وهذا لا يعارض قول من قال: إنها أكبر من البيع لكن هي اليهود أو النصارى أو كل هؤلاء يسمونها بيعة هذا قد لا يؤثر كثيراً، والمقصود أن هذه الأماكن جميعاً هي أماكن العبادة.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "قال تعالى: **{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا}** [سورة الحج:٤٠]، قال الزجاج: تأويل هذا لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدم في كل شريعة نبي المكان الذي يصلى فيه"[1].

قد يقول قائل: وهل المحافظة على هذه الأماكن مطلب بحيث إن الله -عز وجل- قرنها مع المساجد؟ فهذا القول يبين أن المراد بذلك زمن كل نبي من المدافعة، في زمن موسى **{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ}** لو لم توجد لهدمت أماكن التعبد، وأماكن التعبد في ذلك الوقت البِيعة مثلاً، أو الصلوات، وهكذا في زمن عيسى -عليه الصلاة والسلام-، وفي الإسلام لهدمت المساجد، هذا المراد بهذا القول، كل زمن نبي تُهدم أماكن العبادة، ليس معنى ذلك أن هذه الأماكن شرعية في زماننا بعد بعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان المسلمون لا يهدمون في حروبهم أماكن العبادة، ولا يقتلون العابدين، لكن يمنعون من تجديدها، ويمنعون من إحداث الجديد في هذه الأماكن التي يُعبد الله -عز وجل- فيها على الضلال والكفر بعدما حرفت أديان الأنبياء، ونسخت شرائعهم.

---

١ - أحكام أهل الذمة، لابن القيم (١١٦٨/٣).

وقال -رحمه الله-: " فَلَوْلَا الدَّفْعُ لَهُدِّمَ فِي زَمَنِ مُوسَى الْكَنَائِسُ الَّتِي كَانَ يُصَلَّى فِيهَا فِي شَرِيعَتِهِ، وَفِي زَمَنِ عِيسَى الصَّوَامِعُ وَالْبِيَعُ، وَفِي زَمَنِ مُحَمَّدٍ الْمَسَاجِدُ.

وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ: أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَوْلَا دَفْعُهُ بَعْضَ النَّاسِ عَنِ الْفَسَادِ بِبَعْضِهِمْ لَهُدِّمَتْ مُتَعَبَّدَاتُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْ أَهْلِ دِينِهِ وَطَاعَتِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، فَبَدَأَ بِذِكْرِ الصَّوَامِعِ وَالْبِيَعِ؛ لِأَنَّ صَلَوَاتِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَصْحَابِهِمْ كَانَتْ فِيهَا قَبْلَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَأُخِّرَتِ الْمَسَاجِدُ؛ لِأَنَّهَا حَدَثَتْ بَعْدَهُمْ"[٢].

يعني تنقطع الصلوات وهذا خلاف الظاهر؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ}** فالعطف على ما قبله، ولا يحتاج هذا إلى تقدير لهدمت صوامع وبيع وتعطلت صلوات؛ لأن الأصل خلاف التقدير، فالأصل في الكلام الاستقلال وليس الإضمار.

وقال -رحمه الله-: "وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الصَّلَوَاتُ: صَلَوَاتُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ تَنْقَطِعُ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ.

قَالَ الْأَخْفَشُ: وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ: الصَّلَوَاتُ لَا تُهْدَمُ وَلَكِنْ تَحِلُّ مَحَلَّ فِعْلٍ آخَرَ، كَأَنَّهُ قَالَ: تُرِكَتْ صَلَوَاتٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَعْنِي مَوَاضِعَ الصَّلَوَاتِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: يُدْفَعُ عَنْ مُصَلَّيَاتِ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالْمُؤْمِنِينَ"[٣].

هذا القول بأن المقصود هدمت صوامع وبيع إلى آخره حيث يكون هؤلاء أهل الذمة فيدفع عنهم المسلمون، **{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ}** ولكن هذا بعض ما يدخل في معنى الآية إذا وسعنا مدلولها، وعلى ما قبله يكون المراد بذلك في زمن كل نبي، فرق بين هذا وهذا.

وقال -رحمه الله-: "وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ لَا يُحْتَاجُ إِلَى التَّقْدِيرِ الَّذِي قَدَّرَهُ أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، وَهَذَا ظَاهِرُ اللَّفْظِ وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ بِوَجْهٍ، فَإِنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى الْوَاقِعِ، لَمْ تَدُلَّ عَلَى كَوْنِ هَذِهِ الْأَمْكِنَةِ -غَيْرَ الْمَسَاجِدِ- مَحْبُوبَةً مَرْضِيَّةً لَهُ، لَكِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْلَا دَفْعُهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ هَذِهِ الْأَمْكِنَةُ الَّتِي كَانَتْ مَحْبُوبَةً لَهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَأَقَرَّ مِنْهَا مَا أَقَرَّ بَعْدَهُ، وَإِنْ كَانَتْ مَسْخُوطَةً لَهُ، كَمَا أَقَرَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ، وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُهُمْ وَيَمْقُتُهُمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ بِالْمُسْلِمِينَ مَعَ بُغْضِهِ لَهُمْ.

وَهَكَذَا يَدْفَعُ عَنْ مَوَاضِعِ مُتَعَبَّدَاتِهِمْ بِالْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُهَا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَدْفَعُ عَنْ مُتَعَبَّدَاتِهِمُ الَّتِي أُقِرُّوا عَلَيْهَا شَرْعًا وَقَدَرًا، فَهُوَ يُحِبُّ الدَّفْعَ عَنْهَا وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُهَا، كَمَا يُحِبُّ الدَّفْعَ عَنْ أَرْبَابِهَا وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُهُمْ.

وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الرَّاجِحُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ مَذْهَبُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ"[٤].

ابن القيم -رحمه الله- لم يحملها على أن المقصود بذلك في زمن كل نبي، وإنما ذلك جاء بحسب ما هو واقع، فالواقع أن الله -عز وجل- يدفع الناس بعضهم ببعض فتبقى لهم متعبداتهم، ولا شك أن أهل الذمة تسلم لهم متعبداتهم في بلاد المسلمين إذا أقروا بما يجب، والإسلام لم يهدم هذه الأماكن هدماً حسياً كالإغارة عليها، والمسلمون كانوا لا يقصدون هؤلاء ولا تلك الأماكن فإن دفعوا الجزية توفر لهم الحماية من قبل المسلمين فلا يتعدى عليهم أحد، ويبقى لهم تعبدهم وإن كانوا على باطل بحسب الشروط التي جرت بينهم وبين المسلمين،

---

٢ - أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٣/١١٦٨-١١٦٩).

٣ - المرجع السابق (٣/١١٦٩).

٤ - المرجع السابق (٣/١١٦٩-١١٧٠).

فابن القيم -رحمه الله- يبين أن مثل هذا لا يعني أن الله يحب هذه الأماكن، أو أنها أماكن شرعية، ولا يتوهم أحد أن متعبدات اليهود والنصارى حق، وأن الله أقرها، وذكرها في سياق واحد مع المساجد ليس هذا هو المراد، وإنما المراد الإخبار عن الواقع وإلا فقد جاءت النصوص الصريحة في بيان كفر هؤلاء وعداوتهم، فالله -عز وجل- يقول: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ} [سورة المائدة:٧٣] وقال: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [سورة المائدة:٧٨]، وذكر أشياء كثيرة من كفر اليهود {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ} [سورة التوبة:٣٠]، وقال: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً} [سورة المائدة:٨٢] كل هذه الأشياء ذكرها الله وذكر غيرها، والحديث عن هؤلاء كثير في القرآن، فلا يجوز لأحد أن يرتاب في كفرهم وظلالهم، وأنهم أعداء لله -عز وجل- ولأهل الإيمان، وأن هذه الأماكن التي يتعبدون بها هي أماكن باطلة، يُعبد الله -عز وجل- فيها على الظلال، ولكن لا يجوز لأحد أن يتعدى عليها، ولا يجوز لهم أن يفتحوا شيئاً منها في بلاد المسلمين على سبيل الاستحداث، ولكن ما وُجد لا يُهدم، ولا يُرعى أو يرمم أو يعاد تشييده من جديد، فتبقى إلى أن تتلاشى.

وقال -رحمه الله-: " قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ -هُوَ ابْنُ مُوسَى- عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنِ السُّدِّيِّ، عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما-: {لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ} [سورة الحج:٤٠] قَالَ: الصَّوَامِعُ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الرُّهْبَانُ، وَالْبِيَعُ مَسَاجِدُ الْيَهُودِ، وَالصَّلَوَاتُ كَنَائِسُ النَّصَارَى، وَالْمَسَاجِدُ مَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَأَخْبَرَنَا الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: {لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ} قَالَ: صَوَامِعُ وَإِنْ كَانَ يُشْرَكُ بِهِ! وَفِي لَفْظٍ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُذْكَرَ وَلَوْ مِنْ كَافِرٍ.

وَفِي تَفْسِيرِ شَيْبَانَ، عَنْ قَتَادَةَ: الصَّوَامِعُ لِلصَّابِئِينَ، وَالْبِيَعُ لِلنَّصَارَى، وَالصَّلَوَاتُ لِلْيَهُودِ، وَالْمَسَاجِدُ لِلْمُسْلِمِينَ"[٥].

من أهل العلم من يقول بأن ذلك في زمن كل نبي، وهذا القول له وجه، وقاله جماعة من أهل العلم وذكره الزجاج من المفسرين، وقال به ابن عطية في التحرير -المحرر الوجيز-، والقول الآخر بأن هذا بحسب الواقع، ولا يعني ذلك أن الله يحبها.

وقوله: {وَصَلَوَاتٌ}: قال العوفي، عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس، وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقتادة: إنها كنائس اليهود، وهم يسمونها صلوات.

وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق، وأما المساجد فهي للمسلمين.

هذا يرجع فيه إلى الواقع، وكون هؤلاء يختلفون في زمن كانت هذه الأشياء فيه موجودة في البلاد المفتوحة وفي غيرها فيبدو -والله أعلم- أن هذا يشبه الاختلاف في غيره لقوله -تبارك وتعالى-: {مَا جَعَلَ اللّهُ مِن

---

٥ - أحكام أهل الذمة (١١٧٠/٣).

بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ} [سورة المائدة:١٠٣]، وسبق الكلام على هذا، وكثرة الأقوال فيه، وأن المفسرين وأهل اللغة لم يتفقوا فيه على شيء حتى قال ابن جرير -رحمه الله- بأن هذه الأشياء كانت تصرفات لهم في هذه البهائم بغير حجة ولا برهان من الله -تبارك تعالى-، ولم يرَ الدخول في التفصيل لكثرة الاختلاف فيه، وهكذا مثل هذه الأماكن بعضهم يقول: بأن الصلوات كلمة في أصلها معربة، هكذا يقول بعضهم: صارت معربة، ومثل هذا الأصل أن يقال: يرجع فيه إلى ما هو موجود والواقع، ولكن الذي يبدو أن هذا الواقع يصعب أن يحدد من خلاله المعنى لكل واحدة تحديداً دقيقاً قاطعاً وإلا لم يختلف هؤلاء الأئمة في تفسير ذلك.

وقوله: {يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} فقد قيل: الضمير في قوله: {يُذْكَرَ فِيهَا} عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات.

هنا ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن المستفيض أن الصوامع للرهبان، هذا المستفيض عندنا، لكن المستفيض عندنا لا يحدد المعنى، كما تعرفون تغير كثير من الأشياء، ويقول: إن البِيع للنصارى والصلوات لليهود وهي كنائسهم، والمساجد للمسلمين، وابن جرير يرى بأن المستفيض هو أن الصوامع للرهبان، والبِيع للنصارى، والصلوات لليهود.

وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا.

وقال ابن جرير: الصوابُ: لهدمت صوامع الرهبان وبِيعُ النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب.

المعنى الأول: يذكر فيها اسم الله كثيراً أن هذا الوصف عائد إلى الجميع، ومن أهل العلم من قال -كما سبق-: إن ذلك في زمن كل نبي فهذا لا إشكال فيه، فهي أماكن لذكر الله -عز وجل- كثيراً، ومن قال: إن ذلك إنما هو بحسب الواقع، فابن جرير -رحمه الله- قال: ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً، فيكون الذكر الكثير في المساجد، فإذا قيل بأن ذلك بحسب الواقع فهل معابد اليهود ومعابد النصارى يذكر فيها اسم الله تعالى كثيراً؟ فكنائسهم مكان للرقص والشرك ومحادة الله -عز وجل-، فإذا قلنا: في زمن كل نبي، فهذا يعود إليها جميعا، والله أعلم.

وقال بعض العلماء: هذا تَرَقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد، وهي أكثر عُمَّارا وأكثر عُباداً، وهم ذوو القصد الصحيح.

يعني تبقى الصومعة للراهب يتعبد وينقطع بها، ثم بعد ذلك البيعة، ثم بعد ذلك الصلوات ثم المساجد على هذا القول.

وقوله: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [سورة محمد:٧ -٨].

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} وَصَف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه، ومن كان القويّ العزيز ناصرَه فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ

الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [سورة الصافات:١٧١-١٧٣] **وقال تعالى:** {كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [سورة المجادلة:٢١].

نعم هذا التعقيب لقوله: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ} بعد أن قال: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ} في غاية المناسبة وذلك أنه بين -تبارك وتعالى- سنته الجارية في المدافعة بين الناس، وبين الحق والباطل، والخير والشر، ثم بعد ذلك بين أن معونته ونصره وتأييده يكون لمن نصرَه، ونصرُه -تبارك وتعالى- إنما يكون بنصر دينه الصحيح، فالصراع قائم وهو مستمر إلى أن يصير الناس في آخر الزمان إلى الحال التي وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبر حينما تأتي الريح الطيبة بعد عيسى -صلى الله عليه وسلم- بزمان، ثم تأخذ أرواح المؤمنين، وعند ذلك لا يبقى في الأرض من يقول: الله، الله، فما قبل هذا يبقى هذا الصراع والتدافع، فالمؤمن يختار أن يكون في ركاب أهل الإيمان، ويكون آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ناصراً لدين الله -عز وجل-، وهؤلاء هم الذين وعدهم الله بالنصر، ويبقى آخرون يجلبونهم من خيل الشيطان ورجِله، فكل راكب في معصية فهو من خيله، وكل ماشٍ إلى ضلاله فهو من رجله، {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} [سورة الإسراء:٦٤]، والإنسان حارث وهمام، فعنده الهم يهم بالشيء، والإرادة، وعنده أيضا العمل: ((أصدق الأسماء حارث وهمام))[٦]، وإن كان فيه ضعف، لكن المقصود أن هذا المعنى يصدق على الإنسان ويصور حاله وواقعه، فإما أن تكون إرادته وعمله وسعيه في نصر دين الله -عز وجل-، وإما أن يصرف هذه الطاقة في معصيته، وهكذا الكاتب يصرف قلمه في الدعوة والذب عن الحق، أو قد يسلط كتابته وقلمه في السخرية من أهل الإيمان، ومن شرائع الله -عز وجل-، وإلى ما يسخط ربه -تبارك وتعالى- فيكون حرباً على الإسلام والمسلمين سواء كان صاحبه من المنافقين أو من غيرهم.

{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} [سورة الحج:٤١].

وروى ابن أبي حاتم عن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- قال: فينا نزلت: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ}، فأُخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: "ربنا الله"، ثم مُكنّا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي.

القول بأن هذه الآية نزلت في كذا، أو نزلت هذه الآية فينا المقصود بذلك غالباً التفسير، وليس سبب النزول، بمعنى أن هذا ما تصدق عليه الآية، وتنطبق عليه، وهذا صحيح، لا إشكال أن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أولى الناس دخولاً في هذه الآية، لكن ذلك لا يختص بهم دون غيرهم، وإنما هو وعد أو وصف لكل من كان بهذه المثابة في أي زمان، وفي أي مكان، فهذا كأنه بيان وتفصيل لما قبله من قوله: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ} مَن هؤلاء الذين ينصرهم وهم ناصروه؟، قال: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ}، فكان من كان بهذه المثابة، فهؤلاء هم أولياء وهو

---

٦ - رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، برقم (٤٩٥٠)، وأحمد في المسند، برقم (١٩٠٣٢)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف لجهالة عقيل بن شبيب"، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٩٧٧).

ناصرهم ومؤيدهم سواء كان ذلك في ميدان القتال، أو كان ذلك في مقام الحجة والبيان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى إن ابن عباس -رضي الله عنه- يقول عن الآية: {إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ} [سورة الأنفال:٦٥] ثم بعد ذلك لما نسخ هذا قال الله -عز وجل-: {فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ} [سورة الأنفال:٦٦] قال: أرى أن ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعني أنه داخل فيه كما أنه في القتال، وكذلك أيضاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيدفع الله بهؤلاء -وإن كانوا قلة- شراً كثيراً.

وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم.

وقال الصباح بن سوادة الكندي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ} الآية، ثم قال: إلا إنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولَّى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكرهة، ولا المخالف سرها علانيتها.

وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ} [سورة النور:٥٥].

وقوله: {وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}، كقوله تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة القصص:٨٣].

وقال زيد بن أسلم: {وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}: وعند الله ثواب ما صنعوا.

هي وصف لهذه الطائفة التي ينصرها الله -عز وجل-: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ}، {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ} فبالنسبة لمن بسط الله يده يكون ذلك بإقرار ذلك بالناس وبحملهم عليه، وبفعله بنفسه، ويكون ذلك وصفاً للجماعة المؤمنة، تكون بهذه المثابة تقيم الصلاة وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤتي الزكاة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ} ابن جرير -رحمه الله- يربط هذا الجزء أو هذه الآية بقوله -تبارك وتعالى- قبله: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [سورة الحج:٣٩]، وهنا قال: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} وقيل: إن ذلك يرتبط بما قبله مباشرة {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ}، وعلى قول ابن جرير -رحمه الله- يمكن أن تتوجه الأقوال التي مضت عن بعض السلف من أن ذلك في أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه قال: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} هذه الأوصاف المحددة لقوم أُذن لهم بالقتال بأنهم ظلموا، وحمل الآية على ما هو أعم من هذا قد يكون أولى، والله أعلم.

{وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى

عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [سورة الحج:٤٢-٤٦].

يقول تعالى مسليا نبيَّه محمدا -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب من خالفه من قومه: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} إلى أن قال: {وَكُذِّبَ مُوسَى} أي: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

قوله تعالى: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ}، ثم قال: {وَكُذِّبَ مُوسَى} قوم موسى الأصل هم بنو إسرائيل، فهل كذب بنو إسرائيل موسى -صلى الله عليه وسلم-؟ الجواب: لا، فهنا جاء الفعل مبنياً للمجهول، فبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يقول: إن ذلك من أجل أن الذين كذبوه هم القبط، فقومه وهم الإسرائيليون لم يكذبوه، فقال: {وَكُذِّبَ مُوسَى} بني الفعل للمجهول.

{فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ} أي: أنظرتهم وأخرتهم، {ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟!

نكير اسم مصدر بمعنى الإنكار، أي فكيف كان إنكاري وأخذي لهم؟!.

وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه))، ثم قرأ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}[٧] [سورة هود:١٠٢].

ثم قال تعالى: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} أي: كم من قرية أهلكتها {وَهِيَ ظَالِمَةٌ} أي: مكذبة لرسولها، {فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} قال الضحاك: سقوفها.

العرش يعني السقف، خاوية على عروشها، جنات معروشات يعني وضُع لها سقوف خشب مثل الأعناب يوضع لها سقوف، فهي خاوية على عروشها أي على سقوفها.

أي: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها.

خاوية على عروشها يعنى أنها صارت متهدمة قد سقطت حيطانها على سقوفها، فالعروش هي السقوف، {خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} يعني متهدمة هذا من حيث ظاهر المعنى أخذاً من ظاهر اللفظ، ومثل هذا يعبر به عما هو أوسع من ذلك، يعبر به عن الخراب بمعناه الأعم، {خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} بمعنى أنها قد هُجرت وتركت وعطلت فلا ينتفع بها، وليس فيها ساكن، خاوية على عروشها بعد أن كانت عامرة بأهلها مزدهرة، تركت وهجرت ولم يعد ينتفع بها أحد {خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} ظاهر اللفظ أنها على سقوفها، والمعنى الأوسع من هذا أن يكون المراد أنها قد هجرت وتركت ليس فيها أحد، أو قد هلك أهلها فصارت خراباً.

{وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ} أي: لا يستقى منها، ولا يَرِدُها أحد بعد كثرة وارديها، والازدحام عليها.

{وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} قال عكرمة: يعني المُبَيّض بالجص.

---

٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة هود، برقم (٤٤٠٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٨٣).

قوله: {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ} **أي لا يستقي منها ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها، والازدحام عليها** يعني المدينة التي أهلكت أو القرية قد خلت من أهلها وتهدمت تساقط بنيانها وتلك البئر التي كانوا يزدحمون عليها لم يعد يرِدها أحد، ويحتمل أن يكون المعنى كما قال طائفة من أهل العلم: إن الله -عز وجل- يصور أحوال الأمم المهلَكة، وما حل بهم فذكر القرى التي أنزل بها بأسه فهي خاوية على عروشها قد هلك أهلها وتهدم بنيانها، ثم ذكر حالة أخرى مثل بئر ليست بهذه المدينة على وجه الخصوص، وإنما بئر أخرى قد عذب أهلها فهلكوا فبعد أن كانوا يرِدون هذه البئر ويستقون منها ويزدحمون عليها صارت معطلة، {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} فيكون كأنه يقول: فكأين من بئر، فيكون معطوفاً على قرية، {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ} يعني يكون معطوفاً على قرية، فكأين من قرية، وكأين من بئر، فتكون حالات منفصلة، قرية نزل بها العذاب فحل بها الدمار وخلت من أهلها، وكم من بئر كان يردها واردون كثيراً، فلما نزل بهم بأس الله -عز وجل- صارت تلك البئر معطلة لا يستقي منها أحد، ويحتمل أن يكون هذا مرتبطاً بالمعنى الذي ذكر قبله، {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ}.

{وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} **قال عكرمة: يعني المُبَيّض بالجص.**

الجص مثل النُّورة، الأسمنت الأبيض معروف، الأسمنت الأبيض جص، والمنازل كانت تطلى به إلى عهد قريب جداً، ويوجد إلى الآن لكن بصورة أكثر تطوراً، فالبيوت التي تكون من الطين عادة تطلى بالجص، فبحسب حال هذه البيوت وحال أهلها من اليسار، فقد يكون الطلاء بالجص فقط أقل من متر بالأسفل من الداخل، وأعالي البنيان؛ ليكون ذلك أولاً للزينة، وأحفظ له من أجل أن يتماسك إذا نزل عليه المطر، وإذا كان الناس هؤلاء عندهم إمكانية أكثر فإن هؤلاء قد يطلونه على الأقل من الداخل، يطلون جميع الجدران بالجص، وقد يكون هؤلاء بصورة أكثر عناية فيضعون على السقوف من أسفل يعني بدلاً من أن يوضع الآن الجبس أو السقف المستعار كما يقال كانوا يضعون مثل الشراع خرقاً تغطي السقف الذي هو من خشب، وهذا موجود إلى عهد قريب، ولعل بقاياه ما زالت موجودة، فالحاصل أن هذا يكون في البيوت حينما تنمق وتزين، والقصر يقال لِمَا كان مبنياً من الحجارة، فالقصر المشيد كلمة مشيد يقال ذلك لِمَا شيد بالجص، والنهي عن تشييد المساجد اختلف العلماء في المراد به فبعضهم حمله على هذا التشييد على الجدران، ويحتمل أن يكون ذلك برفع البنيان، بناء مشيد أي مرتفع، فيحتمل هذا وهذا، قصر مشيد يعني الذي قد ارتفع، أو الذي قد وضع فيه الجص أو زين به قال: **يعني المبيَّض بالجص.**

وروي عن علي بن أبي طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبي المَلِيح، والضحاك، نحو ذلك.

وقال آخرون: هو المَنيف المرتفع.

وقال آخرون: المشيد المنيع الحصين.

وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يَحْمِ أهلَه شدةُ بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [سورة النساء:٧٨].

قال ابن جرير -رحمه الله تعالى-: " القول في تأويل قوله تعالى: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ}.

يقول تعالى ذكره: وكم يا محمد من قرية أهلكت أهلها وهم ظالمون؛ يقول: وهم يعبدون غير من ينبغي أن يُعبد، ويعصون من لا ينبغي لهم أن يعصوه، وقوله: {فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} يقول: فباد أهلها وخلت، وخوت من سكانها، فخربت وتداعت وتساقطت على عروشها; يعني على بنائها وسقوفها"[٨].

وقال -رحمه الله-: "وقوله: {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ}، يقول تعالى: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} ومن بئر عطلناها بإفناء أهلها وهلاك وارديها، فاندفنت وتعطلت، فلا واردة لها ولا شاربة منها، ومن {وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} رفيع بالصخور والجصّ[٩].

يعني تكون هذه حالة ثالثة.

وقال -رحمه الله-: " قد خلا من سكانه، بما أذقنا أهله من عذابنا بسوء فعالهم، فبادوا وبقيت قصورهم المشيدة خالية منهم"[١٠].

قال محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أهلك كثيراً من القرى في حال كونها ظالمة أي: بسبب ذلك الظلم، وهو الكفر بالله وتكذيب رسله، فصارت بسبب الإهلاك والتدمير ديارها متهدمة وآبارها معطلة، لا يسقي منها شيء لإهلاك أهلها الذين كانوا يستقون منها.

وهذا المعنى الذي ذكره تعالى في هذه الآية جاء موضحا في آيات كثيرة"[١١].

والشنقيطي -رحمه الله- يرى أن قوله: {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ} معطوف على قرية كما سبق، {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} وكم من بئر عطلناها بإهلاك أهلها، وكم من قصر مشيد أخليناه هكذا.

وقال الشنقيطي -رحمه الله-: "والظاهر أن قوله: وبئر معطلة معطوف على قرية أي: وكأين من قرية أهلكناها، وكم من بئر عطلناها بإهلاك أهلها، وكم من قصر مشيد أخليناه من ساكنيه، وأهلكناهم لما كفروا وكذبوا الرسل، وفي هذه الآية وأمثالها تهديد لكفار قريش الذين كذبوه -صلى الله عليه وسلم"[١٢].

وقوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ} أي: بأبدانهم وبفكرهم أيضا، وذلك كاف، كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار:

قال بعض الحكماء: أحْيِ قلبك بالمواعظ، ونَوِّره بالفِكْر، ومَوِّته بالزهد، وقَوِّه باليقين، وذَلِّلْهُ بالموت، وقرِّره بالفناء، وبَصِّره فجائع الدنيا، وحَذِّره صولةَ الدهر وفحش تَقَلُّب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من كان قبله، وسِرْ في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حَلُّوا، وعَمَّ انقلبوا.

---

٨ - جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام الطبري (١٨/ ٦٥٢).

٩ - المصدر السابق (١٨/ ٦٥٢).

١٠ - المصدر السابق (١٨/ ٦٥٤).

١١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٥/ ٢٦٩).

١٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ الشنقيطي (٥/٢٧٠).

أي: فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال.

السير في الأرض يشمل هذا وهذا، ولهذا يقول الله -عز وجل- في سورة السجدة {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} [سورة السجدة:٢٧]، وقال: {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ} [سورة السجدة:٢٦]، فذكر السمع هنا {أَفَلَا يَسْمَعُونَ}؛ لأن مثل هذا تُتلقى أخباره فيه بما قص الله -عز وجل-، أو بما يتناقله الناس جيلاً بعد جيل، وأما آثار المطر فهي أشياء مشاهدة بالنسبة إليهم، فالسير في الأرض يكون بالتفكير والاعتبار، سير القلب والنظر بما حل بهؤلاء المكذبين، ويكون بالبدن بحيث يبصر الإنسان بعينه آثارهم كما قال الله -عز وجل-: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ} [سورة الصافات:١٣٧-١٣٨].

{فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} أي: **فيعتبرون بها**، {فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} أي: **ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر، وما أحسن ما قاله أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة الأندلسي الشَّنْتَريني، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:**

يا مَن يُصيخُ إلى دَاعي الشَقَاء، وقَد * نَادَى به الناعيَان الشيبُ والكِبَرُ**

إن كُنتَ لا تَسْمَع الذكْرَى، ففيم تُرَى * في رَأسك الوَاعيان السمعُ والبَصَرُ**

ليسَ الأصَمُّ ولا الأعمَى سوَى رَجُل * لم يَهْده الهَاديان العَينُ والأثَرُ**

لا الدّهر يَبْقَى وَلا الدنيا وَلا الفَلَك الـــ * أعلى ولا النَّيِّران الشَّمْسُ وَالقَمَرُ**

لَيَرْحَلَنّ عَن الدنيا، وَإن كَرِهـــا * فرَاقَها، الثاويان البَدْوُ والحَضَرُ.**

لا شك أن العمى الحقيقي هو عمى البصائر كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما-:

إنْ يأخذِ اللهُ مِن عينيَّ نورهَما *** ففي فؤادي وقلبي منهما نورُ

وكما قال الآخر:

إذا أبصرَ المرءُ المروءةَ والتُّقى *** فإنّ عمى العينينِ ليس يضيرُ

فالعمى هو عمى القلب سواء كان ذلك العمى بالعمى عن الحق والهدى، فيكون شغله وعمله وكدحه فيما يرديه، ويضره، أو كان ذلك بأخذ نور القلب فيكون الإنسان مثل البهيمة، يعني إذا ارتفع عنه العقل يكون مثل البهيمة فيقع على الحية ويقع على البئر، ويقع على النار، ولا يميز مع أن له بصراً في عينه لكنه لا ينفعه، وقد تجد الإنسان الذي قد ذهب بصر عينه يرجع ذلك إلى قلبه فيكون ذلك سببا للقوة في الإدراك والفهم والحفظ، فيحصل له من العلم الشيء الكثير ويكون عنده من المعرفة بمصالحه، بل حتى في مشيه وتقبله لربما يكون كالمبصر، وهو يمشي ويجتنب الحفرة، وأشياء عجيبة تقع من هؤلاء مع أن بصره مفقود.

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ} [سورة الحج:٤٧-٤٨].

يقول تعالى لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه-: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} أي: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال:٣٢]، {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [سورة ص:١٦].

وقوله: {وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} أي: الذي قد وَعَد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه.

يعني هنا الله -عز وجل- يقول {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} وعده بإقامة الساعة مثلاً، وتعذيب الكفار، والإنعام على أهل الإيمان، ويحتمل أن يكون {وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} هو ما وعدهم يعني أن العذاب الذي يستعجلونه هنا {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} يعني الدنيوي {فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} [سورة فصلت:١٣]، وهم يقولون: أين هذا العذاب الذي تعدنا؟ {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} يعني الذي وُعدوا به في الدنيا، {وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} يعني من تعذيبهم مثلاً، ويحتمل أن يكون العذاب الذي استعجلوه هو العذاب الأخروي {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا} [سورة ص:١٦] يعني نصيبنا من العذاب، {وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} بإقامة الساعة، وتعذيبهم، وذلك حاصل لا محالة، وهم استعجلوا العذاب الأخروي، واستعجلوا العذاب الدنيوي {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال:٣٢] استعجلوا بعذاب الدنيا، واستعجلوا بعذاب الآخرة، {وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} يعني أن ذلك سيحصل ويقع في الوقت الذي حدده الله -عز وجل.

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يرى أن العذاب الذي يستعجلون به هو العذاب الدنيوي.

وقوله: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} أي: هو تعالى لا يَعْجَل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإنْ أجَّلَ وأنظَرَ وأملى.

يعني هذا يتطاول بالنسبة للمخلوقين يطول ويتناهى صبرهم وينقضي في مدد قصيرة يعني إذا حصل لهم كرب وشدة أو غلبة من قبل أعدائهم لربما ظنوا أن هذا هو نهاية المطاف، وأن هذه الكربة ليس لها من الله كاشفة، وإنما المسألة مسألة وقت هذا يستمر مائة سنة، وقد يستمر أكثر، ولكن كل شيء له نهاية، فالله -عز وجل- يختلف عنده الحساب والمقادير عن الحساب والمقادير عند المخلوقين، ففي زمن فرعون من كان يظن أن فرعون وما كان له من القوة والغلبة والتسلط والجبروت أن هذا سيكون خبراً بعد عين؟، من كان يظن في ذلك الزمان؟، والله -عز وجل- قال: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} [سورة يونس:٩٢]، كأن هؤلاء الناس لن يصدقوا، يعني بقي النساء والخدم، وهذا يقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات:٢٤] فهؤلاء سيصدقون أنه فعلاً هلك، تركه لهم من أجل أن يشاهدوه ويتحققوا من أنه كيف كان صاغراً ذليلاً، وأنه مخلوق مربوب لله -عز وجل-، وهذا لا يعني ما يزعمه اليوم من يقول: إن المراد أن هذا المحنط هو فرعون موسى الذي غرق، وهذا معنى {لِتَكُونَ لِمَنْ

خَلْفَكَ آيَةً} ولكن أين هذه القرون من بعد الإغراق؟ في التابوت في الهرم لماذا لم يره الناس؟ ويكون آية لهم طول هذه القرون الطويلة، وحينما نزلت الآيات أين كان؟ هذا المقصود أن مثل هذه الأشياء لا نصدقها ولا نحمل كلام الله -عز وجل- فيها، فالحاصل أن الإنسان إذا نظر إلى مثل هذه الأمور يعتبر، فالحروب الصليبية لما جاءت استمرت وقتاً، ثم بعد ذلك التتر لما جاءوا بحملاتهم المتتابعة الناس الذين كانوا يعيشون في ذاك الوقت لربما يظنون أن هذا هو نهاية كل شيء، فالخليفة ذبح، وبغداد خربت، ولم يبق أمامهم إلا جند الشام ومصر، اكتسحوا، مذابح من بخارى وتلك البلاد، وسمرقند، يحصرون بين جبلين سبعين ألفاً من الجند ويقتلونهم، ولكن أين التتر الآن؟ وأين هولاكو؟ وأين تيمورلنك؟ وقل مثل ذلك في بريطانيا التي لا تغيب عنها الشمس إلى الهند إلى البلاد الشاسعة الواسعة إلى جزرهم في أوروبا قبضة وتلاشت ورجعت إلى حجمها الحقيقي، وهذا العصر أقول: مَن خلَفَهم من الأمريكان بهذا الانهيار الذي نشاهد أوائله الآن، وروسيا في نحو سبعين سنة إذا كنتم رأيتم بعض الصور للمذابح التي قاموا بها، تحمل الجثث بالجرافات، شحن ضخم ملايين من البشر قتلوهم، وشهد ذلك الجيل نهايتها، وحل بهم ما حل، وهذا {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}، ولذلك انظر الآن حتى المقاييس بالنسبة للنائم أو الميت، النائم يمضي عليه ثلاثمائة سنة أو نحو هذا كأصحاب الكهف ثلاثمائة وتسع سنوات، فلما استيقظوا قالوا: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} [سورة المؤمنون:١١٣]، {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [سورة البقرة:٢٥٩]، فالشاهد أن الله أماته مائة عام ثم بعثه قال: كم لبثت؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم، والإنسان إذا أراد أن يقضي الوقت بسبب العطش أو الجوع أو الصيام أو الحزن أو غير ذلك ينام، فيمضي اليوم الكامل الذي تتطاول ساعاته كأنه لحظة، وهكذا أهل القبور يكون ذلك بالنسبة إليهم وقتاً يسيراً.

ولهذا قال بعد هذا: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ}

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام))[١٣].

ورواه الترمذي والنسائي، من حديث الثوري، عن محمد بن عمرو، به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إني لأرجو ألا تَعْجِزَ أمتي عند ربها، أن يؤخرهم نصف يوم))، **قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة**[١٤].

---

١٣ - رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، برقم (٢٣٥٣)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب منزلة الفقراء، برقم (٤١٢٢)، وأحمد في المسند، برقم (٩٨٢٣)، وقال محققوه:"حديث صحيح، وهذا إسناد حسن"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٣١٨٩).

١٤ - رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب قيام الساعة، برقم (٤٣٥٠)، وأحمد في المسند، برقم (١٤٦٥)، وقال محققوه: "حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف"، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٢٤٦).

قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله-: " بيّن -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن اليوم عنده -جل وعلا- كألف سنة مما يعده خلقه، وما ذكره هنا من كون اليوم عنده كألف سنة، أشار إليه في سورة السجدة بقوله: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [سورة السجدة:٥]، وذكر في سورة المعارج أن مقدار اليوم خمسون ألف سنة، وذلك في قوله: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [سورة المعارج:٤]، فآية الحج، وآية السجدة متوافقتان تصدق كل واحدة منهما الأخرى، وتماثلها في المعنى، وآية المعارج تخالف ظاهرهما لزيادتها عليهما بخمسين ضعفا، وقد ذكرنا وجه الجمع بين هذه الآيات في كتابنا: "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب"، وسنذكره إن شاء الله هنا ملخصاً مختصراً، ونزيد عليه بعض ما تدعو الحاجة إليه.

فقد ذكرنا ما ملخصه: أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة أنه حضر كُلًّا من ابن عباس، وسعيد بن المسيب، سئل عن هذه الآيات: فلم يدرِ ما يقوله فيها، ويقول: لا أدري، ثم ذكرنا أن للجمع بينهما وجهين: الأول: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سماك، عن عكرمة عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج: هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض، ويوم الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى ويوم الخمسين ألفا هو يوم القيامة.

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها يوم القيامة، وأن اختلاف زمن اليوم إنما هو باعتبار حال المؤمن، وحال الكافر; لأن يوم القيامة أخف على المؤمن منه على الكافر كما قال تعالى: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} [سورة المدثر:٩-١٠] اهـ، ذكر هذين الوجهين صاحب الإتقان.

وذكرنا أيضا في كتابنا: "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [سورة الفرقان:٢٤] ما ملخصه: أن آية الفرقان هذه تدل على انقضاء الحساب في نصف نهار؛ لأن المقيل القيلولة أو مكانها -وهي الاستراحة- نصف النهار في الحر، وممن قال بانقضاء الحساب في نصف نهار: ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة وابن جبير لدلالة هذه الآية على ذلك، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره.

وفي تفسير الجلالين ما نصه: وأخذ من ذلك انقضاء الحساب في نصف نهار، كما ورد في حديث "انتهى منه"، مع أنه تعالى ذكر أن مقدار يوم القيامة خمسون ألف سنة في قوله تعالى: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} وهو يوم القيامة بلا خلاف في ذلك.

والظاهر في الجواب: أن يوم القيامة يطول على الكفار ويقصر على المؤمنين، ويشير لهذا قوله تعالى بعد هذا بقليل {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [سورة الفرقان:٢٦]، فتخصيصه عسر ذلك اليوم بالكافرين يدل على أن المؤمنين ليسوا كذلك، وقوله تعالى: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} يدل بمفهوم مخالفته على أنه يسير على المؤمنين غير عسير كما دل عليه قوله تعالى: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [سورة القمر:٨]"[١٥].

---

١٥ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/ ٢٧٧-٢٧٩).

لو حُسب من آدم -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا ما تبلغ عُشر ألف سنة، وربما لا تصل إلى ثُمن ألف، ويوم القيامة خمسون ألف سنة.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (١٥)

من قوله تعالى"قل يأيها الناس" الآية ٤٩ إلى قوله تعالى"إن الله لعفو غفور" الآية ٦٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

يقول الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم- حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [(٤٩) سورة الحج] أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم {بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سورة سبأ(٤٦)] وليس إليّ من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب [الرعد: ٤١].

{إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [سورة الحج(٥٠)] أي: آمنت قلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم {لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سورة الحج(٥٠)] أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم.

قال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: "ورزق كريم" فهو الجنة.

{لَهُم مَّغْفِرَةٌ} [سورة الحج(٥٠)] يعني: للذنوب، وستر للعيوب {وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سورة الحج(٥٠)] يعني: الجنة، وما فيها من الملذات، والرزق الكريم هو الذي لا يكون معه شيء من الكدر والتنغيص، فهو الطيب الحلال الذي لا يسبقه أذى ولا ما يكدره، ولا يكون معه ما ينغصه، ولا يعقبه شيء من ذلك، هذا هو الرزق الكريم.

ثم قال: **{وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} [سورة الحج(٥١)] قال مجاهد: يثبطون الناس عن متابعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين.**

وقال ابن عباس: {مُعَاجِزِينَ} مراغمين.

وهكذا قول من قال: "معاجزين" أي: ظانين أن يعجزوا الله فيفوتوه فلا يعذبهم، وهكذا قول من قال: "معاجزين" يعني: معاندين، وحمل ابن جرير -رحمه الله- قول من فسره بمثبطين على قراءة من قرأ: (معجزين)، أي مثبطين، والمقصود أن هؤلاء سعوا في آيات الله معاجزين، السعي يكون في الخير كما يكون أيضاً في الشر، الله -عز وجل- يقول: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [سورة الإسراء (١٩)] فهذا سعي في الخير، وطاعة الله، وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم .

{وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [سورة الإسراء (١٩)] هذا في الخير، {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} [سورة الحج (٥١)] هذا في الشر.

السعي: الإسراع في المشي، وأما قوله -تبارك وتعالى- في الجمعة: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [سورة الجمعة(٩)] المقصود به العمل على حضور الجمعة، والتطهر والانصراف إليها، وترك الاشتغال عنها، والعمل على حضورها.

فالسعي يكون في الخير، ويكون في الشر، ويكون في العمل المباح في الدنيا والكسب والرعاية، وما أشبه ذلك، والساعي على الأرملة واليتيم يعني الذي يقوم على شئونهما.

والمقصود بالسعي في قوله –سبحانه-: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} [سورة الحـــج (٥١)] السعي في الشر، فهم بفعلهم هذا وبسعيهم هذا يطلبون العجز، (معاجزين) أي: يطلبون أن يعجزوا الله -عز وجل-، بمعنى أنهم يثبطون عن دينه، ويصدون عن سبيله، ويكذبون رسوله -صلى الله عليه وسلم- بما يلقون من الشبهات، وما يحصل منهم من التعويق والتثبيط والأذى لمن آمن، فهذا كله داخل في "معاجزين"، بهذا قال الزجاج: ظانين أن يعجزوا الله فيفوتوه، ولا يعذبهم، وهذا قد يدخل في عموم المعنى "معاجزين" فهم يثبطون، ويطلبون إبطال هذا الدين، وتكذيب الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وقد يدخل فيه ما ذكره الزجاج، أي: أنهم يظنون أنهم يفوتون الله فلا يجازيهم، ولا يحاسبهم.

{أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [سورة الحـــج(٥١)] **وهي النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها -أجارنا الله منها-، قال الله تعالى:** {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} [النحل: ٨٨].

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة الحـــج (٥٢-٥٤)] **قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم.**

الغرانيق المقصود بها طيور بيضاء، وهؤلاء يقولون أو يزعمون بأن أصنامهم -وهذه المعبودات الباطلة من دون الله -عز وجل- تطير إلى السماء على هيئة هذه الطيور البيض، فتشفع لهم عند الله -عز وجل-، على كل حال جاءت قصة الغرانيق هذه بروايات متعددة، ولكن لا يصح منها شيء، بل قال ابن خزيمة: إنها من وضع الزنادقة، وهذه خلاصتها أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ سورة النجم على جمع من المسلمين والمشركين بمكة، فيقولون: إنه قرأ فيما قرأ: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتها لترتجي، ففرح المشركون بذلك، ورأوا أنه قد ذكر آلهتهم بخير، فلما بلغ السجدة التي في آخر سورة النجم سجد النبي -صلى الله عليه وسلم- وسجد من حضره من المسلمين والمشركين، فبلغ ذلك أهل الحبشة من المسلمين، وطار في الناس أن قريشاً قد أسلمت، فرجع بعضهم إلى مكة.

الحاصل أن هذه الحكاية قد تكلم عليها العلماء -رحمهم الله- كثيراً، وبينوا ضعفها، وصنف فيها بعضهم كتاباً مستقلاً.

الشيخ الألباني -رحمه الله– كتب كتابا بعنوان: نصب المنجنيق في نسف قصة الغرانيق، وضعفها ابن كثير، والشوكاني وجماعة من أهل العلم، فهي لا تصح، وإن كان الحافظ ابن حجر -رحمه الله- قواها ببعض طرقها، وخالف بذلك عامة أهل العلم، بل قال ابن خزيمة: هي من وضع الزنادقة، وفي الآية ما يبطل ذلك

ويرده، وذلك أن الله -عز وجل- في سورة النجم **قال: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم}** [سورة النجم(٢٣)] فكيف يذكر قصة الغرانيق ثم بعدها مباشرة يصف تلك الآلهة بهذا الوصف "إنها مجرد أسماء لا حقيقة لها، وليس لها نصيب من الإلهية" فهذا تناقض.

وعلى كل حال يبقى الكلام أيضاً في عصمة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإن عصمته تأبى ذلك، والله -عز وجل- يقول: **{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ}** [سورة الحاقة (٤٤-٤٦)] وقد عصمه الله -عز وجل- في أمر البلاغ، والرسالة، فكيف يُجري ذلك على لسانه -عليه الصلاة والسلام- فيذكر هذه الآلهة التي تعبد من دون الله -عز وجل- بخير؟، وكيف يسلط الشيطان عليه هذا التسليط؟! والله -عز وجل- يقول: **{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}** [سورة النحل(٩٩)] كيف يتسلط هذا التسلط في قضية تتعلق بالبلاغ، والوحي؟! فهي قصة لا عبرة بها، ولا يلتفت إليها.

قال البخاري: قال ابن عباس: {فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـــج(٥٢)] إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان، ويحكم الله آياته.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـــج(٥٢)] يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه.

وقال مجاهد: {إِذَا تَمَنَّى} يعني: إذا قال.

ويقال: {أُمْنِيَّتِهِ} قراءته، {إِلا أَمَانِيَّ} [البقرة: ٧٨] يقولون ولا يكتبون.

قال البغوي: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: {تَمَنَّى} أي: تلا وقرأ كتاب الله {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِـــهِ} أي: في تلاوته، وقال الضحاك: {إِذَا تَمَنَّى} إذا تلا.

قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

الآن (إذا تمنى) مجمل المعاني التي ذكرت تمنى: حدث، قال، تلا، ومثل: تلا، قرأ، لا فرق، فهذه متقاربة وإن لم تكن ترجع إلى معنى واحد، فيكون معنى: تمنى أي: قرأ، أو حدث، أو قال، أو تكلم، فألقي الشيطان في تلاوته أو قراءته أو في حديثه، فيكون تفسير (تمنى) قرأ أو حدث، ومن هذا قول حسان -رضي الله عنه- يمدح عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه-:

تمنّى كتابَ اللهِ أوّل ليلِهِ

وقول الآخر:

تمنّى كتابَ اللهِ أولَ ليلِهِ *** تمنّي داودَ الزبورَ على رِسْلِ

يقول حسان:

تمنى كتابَ اللهِ أولَ ليلِهِ *** وآخرَه لاقى حِمامَ المقادرِ

هذا البيت الأول، فكل واحد من هذين البيتين عبر فيه قائله بهذه اللفظة (تمنى) عن القراءة، تمنى أي: قرأ، وهذا معنى صحيح، معروف في كلام العرب، وهو أحد الوجهين في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: **{لاَ**

يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ} [سورة البقرة(٧٨)] ولهذا انظروا هنا قال: ويقال: أمنيّته قراءته، إلا أمانيّ: يقولون ولا يكتبون، يقولون يعني: يقرءون، ومنهم أميون يعني: جهلة، لا يعلمون الكتاب، لا يعلمون إلا أماني، ما معنى أماني؟ على أحد الوجهين: إلا قراءة، يعني يقرءون ولا يفهمون، ما يعرفون معاني الكتاب.

والمعنى الثاني: في الآية (إلا أماني) يعني: أماني من الأمْنية، يعني: يتمنون {وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} [سورة البقرة(٨٠)] {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} [سورة البقرة(١١١)] فهذا المعنى الثاني في الآية الأخرى {أُمِّيُّونَ} [سورة البقرة (٧٨)]. في هذه الآية في سورة الحج: {إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحــج(٥٢)] توجيه ذلك وتفسيره بالقراءة أقوى من تفسيره بالمعنى الثاني وهو الأمنية، الشيء الذي يتمناه الإنسان ويؤمل حصوله، فهذا هو القول الثاني في الآية، فالألفاظ الأولى متقاربة وإن لم تكن ترجع إلى معنى واحد تماماً، لكنها متقاربة، تمنى بمعنى قرأ وحدّث أو قال، ألقى الشيطان في قراءته أو في حديثه، هذا المعنى الأول بصرف النظر عن العبارات التي عبر عنه بها.

المعنى الثاني: تمنى من الأمنية، بعضهم يقول: تمنى هداية قومه، بمعنى ألقى الشيطان في قلوب الناس من الوساوس والخواطر والشبهات ما يصدهم به عن سلوك طريق الهداية، فلم يقع ما تمناه النبي -عليه الصلاة والسلام- من هدايتهم {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحــج (٥٢)] ألقى ما يحول أو يمنع من تحققها، وبعضهم يقول: {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} أي: جمحت هذه الأمنية، فالله -عز وجل- قد كتب {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف (١٠٣)] وأن أكثر الناس يتبعون الشيطان، والشيطان قد قال: {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [سورة الأعراف (١٧)] وقال تعالى: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [سورة الأنعام(١١٦)] فتكون أمنية النبي أن يهتدي هؤلاء الناس بهذا الحق والنور المبين، فتكون هذه الأمنية متجاوزة متعدية ما كتبه الله -عز وجل- لهم، فلم تأت على وزان ما كتبه الله لقومه، بل جمحت، لكن هذا التفسير فيه بُعد؛ لأن الله قال: {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحــج (٥٢)] فكونه جمحت أمنيته، وتجاوزت الحد الذي كتبه الله -عز وجل- أمر بعيد.

فالإنسان يتمنى الخير دائماً لنفسه والناس، وليس ذلك من الشيطان، فيبقى الذي قبله أقرب منه، تفسير تمنى من التمني المعروف، وهو رجاء ما يبعد أو يستحيل وقوعه هذا الفرق بينه وبين الرجاء، الرجاء الشيء قريب المنال والطمع كذلك، أما التمني فمثاله: "فيا ليت الشبابَ يعود يوماً" هو الشيء المستحيل أو بعيد المنال، فإذا فسرت بالتمني المعروف فتفسيرها بمعنى {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحــج(٥٢)] يعني: ألقى في نفوس الناس ما يصدهم ويصرفهم عن تحقق ما تمناه لهم نبيهم من الهداية.

فـــ "تمنى" بمعنى حدث، لكن في آية البقرة: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ} [سورة البقرة (٧٨)] تفسيرها بالأمنية -أي يتمنون على الله -عز وجل- من غير عمل ولا إيمان صحيح- أقرب من تفسيرها بمجرد القراءة، وإن كانت الآية تحتمل المعنيين، فالراجح في هذه الآية هنا في الحج عكس ما هو الراجح في آية البقرة.

وإذا فسرنا هذه الآية هنا بالتمني المعروف فقد ذكرت لكم وجهه، بما هو أرجح منه، وعليه عامة المفسرين من السلف والخلف، بمعنى قرأ أو قال أو حدث، فإذا فسر بقول عامة المفسرين تمنى بمعنى قرأ: {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـــج (٥٢)] فبعضهم يقول: جرى ذلك على لسانه، وذلك من إلقاء الشيطان، فأبطله الله -عز وجل-، ويذكرون في ذلك روايات لا تصح -كقصة الغرانيق- وهذا باطل كيف يجري على لسانه والله قد عصمه؟! هذا مستبعد.

وبعضهم يقول: {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـــج (٥٢)] يعني في قراءته، لكن ما وجه ذلك؟ كيف؟ فيقال: ألقى ذلك في أسماع المشركين ولم يجر على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يعبر بعبارة أصرح وأوضح فيقول: النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ فسكت، فالشيطان حاكى صوته فقال: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتها لترتجي، وهذه القصة باطلة، فلا داعي لحمل التفسير عليها، حتى لو قلنا: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- سكت فحاكاه الشيطان، ما عندنا دليل أصلاً، وبعضهم يوجه ذلك فيقول: {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـــج(٥٢)] يعني في قراءته، يلقي في قلوب السامعين من الشكوك والشبه والوساوس ما يجعلهم يرتابون، ولا تنقاد قلوبهم له، وهذا القول له وجه.

{أَلْقَى الشَّيْطَانُ} [سورة الحـــج(٥٢)] ما عندنا دليل على أن الشيطان تكلم، وحاكى قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحاشا أن يكون ذلك قد جرى على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا باطل، ولا يدل عليه إلا قصة الغرانيق وهي باطلة، إذاً إذا أردنا أن نفسر تمنى بمعنى قرأ {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـــج(٥٢)] في قراءته، فيكون المعني: ألقى في قلوب السامعين من الشبهات والوساوس ما يصدهم به عن الإيمان، وهذا لله فيه حكمة، كما قال الله -عز وجل-: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [سورة الأنعام(١١٢ - ١١٣)] لله حكمة في هذا كله، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فيكون هذا الإلقاء في القلوب هو من إلقاء الوساوس والشبهات والخواطر السيئة، فيكون ذلك صارفاً لهم وصادًّا لهم عن الإيمان.

وبعضهم يقول -مثل الفراء والكسائي-: {إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحـــج(٥٢)] إذا حدث نفسه ألقى الشيطان يعني تكلم به وألقاه على مسامع الناس دون أن يجري ذلك على لسانه، وهذا الكلام ما عليه دليل، يعني: لو أردنا أن نوجه هذا القول للكسائي والفراء، يقولون: يحدث نفسه يعني: لو نزل شيء لا يستفز مشاعر المشركين، ولا يثير ردود أفعال سلبية عندهم، من أجل أن ينقادوا وأن يقبلوا وأن يذعنوا، فكان يحدث نفسه بشيء، أو لو نزل عليه شيء لربما يستميل قلوب الكفار، فهو يحدث نفسه بهذا، فيجريه الشيطان على لسانه، فيلقيه في مسامع هؤلاء الكفار، وهذا كله رجوع إلى قصة الغرانيق، يعني الشيء الذي يحدث به نفسه يجريه الشيطان على لسانه، فقال: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتها لترتجي، وهذا كله لا دليل عليه، كما تلاحظون أن جملة من هذه الأقوال هي ترجع إلى قصة الغرانيق، لكنهم يحاولون أن يوجهوا ذلك.

والخلاصة: يقال: تمنى أي قرأ {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحج (٥٢)] أي: في قراءته، فيلقي في قلوب هؤلاء الناس ما قد يكون صارفاً لهم عن الإيمان به، والانقياد والإذعان والتصديق بهذا القرآن، والله المستعان، هذه هي الخلاصة من كلام أهل العلم في هذه الآية.

ويقول هنا: قال الضحاك: (إذ تمنى) إذا تلا، قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام، يعني ابن جرير يميل إلى أنها بمعنى تلا، وهذا قول أكثر المفسرين، لكن على كل حال الكلام في هذا كثير، ويمكن أن نقرأ في الأضواء تفسير الآية.

وقد تكلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي عليها كلاماً جيداً كثيراً في الأضواء وفي دفع إيهام الاضطراب وفي رحلته إلى الحج، وأبطل قصة الغرانيق سنداً ومتناً.

قال رحمه الله: "معنى قوله تمنى في هذه الآية الكريمة فيه للعلماء وجهان من التفسير معروفان:

الأول: أن تمنى بمعنى: قرأ وتلا، ومنه قول حسان في عثمان بن عفان -رضي الله عنه-:

تمنى كتاب الله أولَ ليلِه *** وآخرَه لاقى حمام المقادر

وقول الآخر:

تمنى كتاب الله آخر ليلِه *** تمنِّي داودَ الزبور على رِسلِ

فمعنى تمنى في البيتين: قرأ وتلا.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال: إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، وكون تمنى بمعنى: قرأ وتلا هو قول أكثر المفسرين.

القول الثاني: أن تمنى في الآية من التمني المعروف، وهو تمنيه إسلام أمته وطاعتهم لله ولرسله، ومفعول (ألقى) محذوف، فعلى أن تمنى بمعنى: أحب إيمان أمته، وعلق أمله بذلك، فمفعول (ألقى) يظهر أنه من جنس الوساوس، والصد عن دين الله حتى لا يتم للنبي -صلى الله عليه وسلم- أو الرسول ما تمنى.

ومعنى كون الإلقاء في أمنيته على هذا الوجه: أن الشيطان يلقي وساوسه وشبهه ليصدّ بها عما تمناه الرسول أو النَّبي، فصار الإلقاء كأنه واقع فيها بالصد عن تمامها والحيلولة دون ذلك.

وهَبْ أن تمنى بمعنى: قرأ، ففي مفعول (ألقى) تقديران:

أحدهما: من جنس الأول: أي ألقى الشيطان في قراءة الرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو النَّبي الشبه والوساوس ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه، ويتلوه الرسول أو النَّبي،

وعلى هذا التقدير فلا إشكال.

وأما التقدير الثاني: فهو ألقى الشيطان في أمنيته أي قراءته ما ليس منها ليظن الكفار أنه منها.

وقوله: {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [سورة الحج (٥٢)] يستأنس به لهذا التقدير.

وقد ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية قصة الغرانيق، قالوا: سبب نزول هذه الآية الكريمة أن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ سورة النجم بمكة..."[1].

---

[1] - أضواء البيان (٥/٢٨٥).

يستأنس بهذا التفسير: يعني ألقى في قراءته شيئاً سمعوه، فينسخ، والنسخ هو الإزالة والإبطال، فهذا شيء سُمع، فهذه قرينة يحتج بها من يقول: إنه ألقى في مسامعه، سواء جرى على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو الشيطان حاكاه أو نحو ذلك فجاء {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [سورة الحج(٥٢)] أي: يبطله، ولهذا فسر بالخواطر، وكيف يكون ذلك؟ بإبطال الشبهات، وبيان الحق.

وقال: "فلما بلغ: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى} [النجم:١٩-٢٠] ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، فلما بلغ آخر السورة سجد وسجد معه المشركون والمسلمون، وقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، وشاع في الناس أن أهل مكة أسلموا بسبب سجودهم مع النَّبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى رجع المهاجرون من الحبشة ظناً منهم أن قومهم أسلموا، فوجدوهم على كفرهم.

وقد قدمنا في هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، ومثلنا لذلك بأمثلة متعددة، وهذا القول الذي زعمه كثير من المفسرين: وهو أن الشيطان ألقى على لسان النَّبي -صلى الله عليه وسلم- هذا الشرك الأكبر، والكفر البواح الذي هو قولهم: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، يعنون: اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، الذي لا شك في بطلانه في نفس سياق آيات النجم التي تخللها إلقاء الشيطان المزعوم قرينة قرآنية واضحة على بطلان هذا القول؛ لأن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ بعد موضع الإلقاء المزعوم بقليل قوله تعالى في اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [النجم:٢٣] وليس من المعقول أن النَّبي -صلى الله عليه وسلم- يسب آلهتهم هذا السب العظيم في سورة النجم متأخراً عن ذكره لها بالخير المزعوم إلا وغضبوا ولم يسجدوا؛ لأن العبرة بالكلام الأخير، مع أنه قد دلت آيات قرآنية على بطلان هذا القول، وهي الآيات الدالة على أن الله لم يجعل للشيطان سلطاناً على النَّبي -صلى الله عليه وسلم-، وإخوانه من الرسل، وأتباعهم المخلصين، كقوله تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل:٩٩-١٠٠] وقوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الحجر:١٤٢] وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ} [سبأ:٢١] وقوله: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ من سُلْطَانٍ} [إبراهيم:٢٢] وعلى القول المزعوم أن الشيطان ألقى على لسانه -صلى الله عليه وسلم- ذلك الكفر البواح، فأي سلطان له أكبر من ذلك؟

ومن الآيات الدالة على بطلان ذلك القول المزعوم قوله تعالى في النَّبي -صلى الله عليه وسلم-: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى} [النجم:٣-٤] وقوله: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} [الشعراء:٢٢١-٢٢٢] وقوله في القرآن العظيم: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر:٩] وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:٤١-٤٢] فهذه الآيات القرآنية تدل على بطلان القول المزعوم.

مسألة:

اعلم: أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعاً، ودلالة القرآن على بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج.

والحاصل: أن القرآن دل على بطلانها، ولم تثبت من جهة النقل، مع استحالة الإلقاء على لسانه -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر شرعاً، ومن أثبتها نسب التلفظ بذلك الكفر للشيطان، فتبين أن نطق النَّبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك الكفر، ولو سهواً مستحيل شرعاً، وقد دل القرآن على بطلانه، وهو باطل قطعاً على كل حال، والغرانيق: الطير البيض المعروفة واحدها: غرنوق كزنبور وفردوس، وفيه لغات غير ذلك، يزعمون أن الأصنام ترتفع إلى الله كالطير البيض، فتشفع عنده لعابديها -قبحهم الله ما أكفرهم-، ونحن وإن ذكرنا أن قوله: {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [سورة الحج(٥٢)] يستأنس به لقول من قال: إن مفعول الإلقاء المحذوف تقديره: ألقى الشيطان في قراءته ما ليس منها؛ لأن النسخ هنا هو النسخ اللغوي، ومعناه الإبطال والإزالة من قولهم: نسخت الشمسُ الظل، ونسخت الريح الأثر، وهذا كأنه يدل على أن الله ينسخ شيئاً ألقاه الشيطان، ليس مما يقرؤه الرسول أو النَّبي، فالذي يظهر لنا أنه الصواب، وأن القرآن يدل عليه دلالة واضحة، وإن لم ينتبه له من تكلم على الآية من المفسرين: هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النَّبي: الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر، أو أساطير الأولين، وأنها مفتراة على الله ليست منزلة من عنده.

والدليل على هذا المعنى: أن الله بين أن الحكمة في الإلقاء المذكور امتحان الخلق؛ لأنه قال: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [الحج:٥٣] ثم قال: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ} [الحج:٥٤] فقوله: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ} [سورة الحج(٥٤)] يدل على أن الشيطان يلقي عليهم أن الذي يقرأه النَّبي ليس بحق، فيصدقه الأشقياء، ويكون ذلك فتنة لهم، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم، ويعلمون أنه الحق لا الكذب كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه، فهذا الامتحان لا يناسب شيئاً زاده الشيطان من نفسه في القراءة والعلم عند الله تعالى.

وعلى هذا القول، فمعنى نسخ ما يلقى الشيطان: إزالته وإبطاله، وعدم تأثيره في المؤمنين الذين أوتوا العلم.

ومعنى يحكم آياته: يتقنها بالإحكام، فيظهر أنها وحي منزل منه بحق، ولا يؤثر في ذلك محاولة الشيطان صد الناس عنها بإلقائه المذكور، وما ذكره هنا من أنه يسلط الشيطان فيلقى في قراءة الرسول والنَّبي فتنة للناس ليظهر مؤمنهم من كافرهم بذلك الامتحان، جاء موضحاً في آيات كثيرة.

وقوله: {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [سورة الحج(٥٢)] حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي فيبطل الله -سبحانه وتعالى- ما ألقى الشيطان[٢].

---

٢ - أضواء البيان (٥ / ٢٨٦- ٢٨٨).

على كل حال النسخ في اللغة: يأتي بمعنى الإزالة والإبطال، مثلما يقال: نسخت الريح الأثر، ونسخت الشمس الظل بمعنى إزالته.

ويأتي بمعنى النقل، فحينما يقال مثلاً: تناسخ المواريث بمعنى النقل، وما يقال من تناسخ الأرواح وهي عقيدة باطلة، يعني أن الروح تنتقل، وتقول: نسخت الكتاب أي نقلته، وهذا النقل على نوعين:

نقل بحيث لا يبقى في الأصل شيء، وهذا يصلح أن يفسر به: نسخت الشمس الظل، كما أنهم يقولون: أبطلتْه ويمكن أن يقال: نقلته إلى الناحية الثانية.

أما نسخ الكتاب فإن الأصل يبقى أليس كذلك؟ وأما قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الجاثية(٢٩)] فالنسخ هنا بمعنى الكتابة، تقول: آلة ناسخة، فالكتابة يقال لها: نسخ.

فالنسخ يأتي في اللغة ليس لمجرد معنى الإبطال، إنما يأتي بمعنى آخر مثل النقل، فإنه يقال له: نسخ، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ} [سورة الجاثية(٢٩)] يمكن أن يكون له ارتباط بهذا المعنى -معنى النقل- وذلك أنها تُنقل إلى ديوان الأعمال، تكتب فيه، ففيه معنى النقل، لكن هنا بمعنى الإبطال {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [سورة الحـــج(٥٢)] أي: يبطله.

وقوله: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ} أي: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية، {حَكِيمٌ} أي: فـــي تقـــديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} [سورة الحـــج(٥٣)] أي: شك وشرك وكفر ونفاق.

قال ابن جريج: {لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} هم: المنافقون {وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ} المشركون.

للذين في قلوبهم مرض أي: شك وشرك وكفر ونفاق، المرض في القرآن جاء بمعنيين، ويحتمل أنه جاء بمعنى ثالث أيضاً.

المعنى الأول: بمعنى النفاق {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً} [سورة البقرة (١٠)] هذا مرض النفاق.

والمعنى الثاني: هو الميل المحرم إلى النساء، رجل صاحب شهوات وقلبه يميل إلى النساء ميلاً محرماً، كما قال الله -عز وجل-: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب (٣٢)] ليس معناه المنافق، وإنما الذي يميل إلى النساء ميلاً محرماً، قلبه مريض بالشهوات.

ويحتمل معنى ثالث: وهو ضعف الإيمان، فالله -عز وجل- يقول: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} [سورة الأحزاب (١٢)] الأصل في العطف التغاير بين المتعاطفات -أنها متغايرة- مع أنه يحتمل أن يكون هذا من باب عطف الصفات على بعض، يعني يحتمل أن يكون الذين في قلوبهم فئة أخرى، وهم ضعفاء الإيمان، ويحتمل أن يكون هذا من باب عطف الصفات، فيكون الذين في قلوبهم مرض هذه صفة من صفات المنافقين، والأوصاف قد تذكر تباعاً بالعطف وبالإسقاط، إسقاط العاطف، وقد ذكرت هذا المعنى في بعض المناسبات سابقاً.

ومن أمثلته: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [سورة الأعلى (١-٢)] هذه صفته من غير ذكر حرف العطف {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} وذكر العاطف فقال: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى (٣-٤)] هذا كله عطف صفات، ويحتمل أن يكون {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} [سورة

الأحزاب (١٢)] أن يكون هذا من باب عطف الصفات، فهم طائفة واحدة، منافقون وفي قلوبهم مرض، فهذا من صفاتهم، ويحتمل أن تكون فئة أخرى وهم بعض ضعفاء الإيمان.

{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [سورة الأحزاب (١٢)].

فهنا قال: {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} [سورة الحج (٥٢)] إلى أن قال: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} [سورة الحج (٥٣)] أي: شك وشرك وكفر ونفاق، ولا يفسر هنا بالذي عنده ميل محرم إلى النساء؛ لأن تفسيره بمرض الشك والنفاق أقرب؛ لأن هذا من باب الشبهات، ومعلوم أن الضلال له طريقان وبابان، الأول: هو الشبهات، والثاني: الشهوات.

فهنا مسألة إلقاء الشيطان الشبه وما أشبه ذلك هذا باب الشبهات -وليس باب الشهوات- يشككهم فيما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم.

قال: {وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ} [سورة الحج (٥٣)] هم المشركون، وعلى كل حال الذين لا تلين قلوبهم بذكر الله -عز وجل-: {وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [سورة الحديد (١٦)] وهذه ليست من صفات أهل الإيمان.

{وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [سورة الحج (٥٣)] أي: في ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أي: من الحق والصواب.

يفسر الشقاق بالعناد، وأصل ذلك أن يكون هذا في شق وهذا في شق، يعني هذا في ناحية وهذا في ناحية، يعني أنهم مضادون معاندون لله -عز وجل-، محادون، كأن هذا في حد وهذا في حد، معادون هذا في عدوة وهذا في عدوة، والعدوة جانب الوادي {إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى} [سورة الأنفال (٤٢)] عدوة الوادي الدنيا أقرب إلى المدينة في بدر، وهم بالعدوة القصوى، يعني مما يلي مكة، فيقال: عداوة، هذا كأنه في عدوة وهذا في عدوة، محادة هذا كأنه في حد وهذا في حد، مشاقة: كأن هذا في شق وهذا في شق.

{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ} [سورة الحج (٥٤)] أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك، الذي أنزله بعلمه وحفظه، وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤٢].

وقوله: {فَيُؤْمِنُوا بِهِ} أي: يصدقوه وينقادوا له {فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ} أي: تخضع وتذل.

الإخبات يفسر بالخضوع كما سبق، والإخبات كما يقول بعض أهل اللغة مشتق من الخبت وهو المكان المنخفض، فالمتواضع متطامن، والمتكبر مترفع متعالٍ.

وكل مخبت متواضع، فيظهر ذلك بسكون الجوارح على وجه التواضع، والخشوع لله -عز وجل-، {فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ} أي: تخضع.

{وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

على كل حال يمكن أن يراجع كلام ابن القيم -رحمه الله- في تفسير هذه الآية، فقد تكلم كلاماً جيداً مفيداً على أنواع القلوب التي ذُكرت فيها، فذكر الله -عز وجل- القلوب القاسية، وذكر القلوب المريضة، وذكر القلوب المخبتة والمطمئنة، وهذه أنواع من القلوب من حيث الصحة والمرض، فالقلوب تنقسم إلى هذه الأقسام، وبعضهم يذكر غير ذلك، فيمكن أن يراجع كلامه هناك.

قال تعالى: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [سورة الحج(٥٥- ٥٧)] **يقول تعالى مخبرًا عن الكفار: أنهم لا يزالون في مرية، أي: في شك وريب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير.**

{حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً} **قال مجاهد: فجأة.**

وقال قتادة: {بَغْتَةً} **بغتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون.**

الآن في قوله - تبارك وتعالى -: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ} [سورة الحج (٥٥)] (منه) الضمير يرجع إلى ماذا؟ إلى ما يلقيه الشيطان، أو إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ أو إلى القرآن؟ الأقرب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره الحافظ ابن كثير هنا (في مرية منه) يعني من هذا القرآن، وهذا الذي عليه عامة المحققين، أن الضمير يرجع إلى القرآن.

وقوله: {أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ} **قال مجاهد: قال أبي بن كعب: هو يوم بدر.**

وقال عكرمة ومجاهد -في رواية عنهما-: هو يوم القيامة لا ليلة له، وكذا قال الضحاك والحسن البصري؛ ولهذا قال: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} **كقوله:** {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤] **وقوله:** {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [الفرقان: ٢٦].

الآن هذان قولان في قوله: {يَوْمٍ عَقِيمٍ} [سورة الحج (٥٥)] القول الأول: أنه يوم بدر فهو يوم عقيم لأنه لا خير لهم فيه، قتل فيه سراتهم وأشرافهم، وأسر من أسر منهم، قتل سبعون، وأسر سبعون, وولوا مدبرين، لا يلوون على شيء، فهو يوم عقيم بالنسبة إليهم، هذا القول الذي قال به أبيّ بن كعب أنه يوم بدر هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله.

وهذا القول قد يؤيده ما قد يظهر من الأصول التي يبني عليها التفسير والقواعد، أن الأصل حينما يقول الله -عز وجل-: {حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ} [سورة الحج (٥٥)] فإذا كان عذاب (يوم عقيم) هو نفس يوم القيامة فصار من قبيل التكرار، والأصل خلاف ذلك (تأتيهم الساعة بغتةً أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) يعني عذاب القيامة، فإذاً المعنى تكرر، كرره بصيغتين أو بلفظتين، والأصل أن الجملة الجديدة تؤسس معنى جديداً، فهذا توجيه لقول من قال بأنه يوم بدر.

والقول الثاني: أن المراد به يوم القيامة، وهذا تقويه قرينة في نفس الآية، وهي قوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة الحج (٥٦ -٥٧)] هل هذا يوم بدر؟ (يومئذٍ) أي: يوم بدر؟ الملك لله في كل وقت، لكن هل في يوم بدر الذين آمنوا وعملوا الصالحات في

جنات النعيم، والذين كفروا في النار؛ لأن هذا تفسير لقوله: {يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} الملك يومئذٍ: في ذلك الحين، في ذلك اليوم لله -عز وجل- يحكم بينهم، ما هذا الحكم؟ (الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا) يكونون في النار، هذا هو الحكم، يحكم بينهم، فهذه قرينة في الآية ترجح أن المراد بقوله: {أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ} [سورة الحـــج(٥٥)] أنه عذاب يوم القيامة، فأحياناً المعنى يتنازعه أكثر من أصل، أو أكثر من قاعدة، أو أكثر من مرجح.

فالقول الأول: المرجِّح فيه أن العذاب العقيم هذا إذا فسر بيوم القيامة كأنه تكرار، وكون اللفظ يؤسس معنى جديداً أولى.

والقول الثاني: تؤيده قرينة في الآية، والآية قد يكون فيها قولان، أو تحتمل معنيين، ويوجد فيها قرينة تؤيد أحد القولين، فقوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} [سورة الحـــج(٥٦)] قد يقول قائل: هذا يوم بدر، الملك لله يحكم بينهم بهزيمة الكفار ونصر المؤمنين، لكنه قال: {فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة الحـــج(٥٦ -٥٧)] إذاً هذا يوم القيامة وليس يوم بدر.

هنا قال: يوم القيامة لأنه لا ليل له، وهذا قول لبعضهم، يقال: فلان عقيم لا عقب له، ولكن من قال من أهل العلم: إن "يوم عقيم" هو يوم القيامة، يعني: لأنه لا خير لهم فيه، كما قال الله -عز وجل- في الريح التي أرسلها {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [سورة الذاريات (٤١)] يعني التي لا خير فيها، لا تأتي بالمطر، ولا تلقح الزرع، والشنقيطي -رحمه الله- رجح أيضاً هذا القول أن (يوم عقيم) هو يوم القيامة بناءً على القرينة هذه.

ولهذا قال: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} كقوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤] وقوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَــقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [الفرقان: ٢٦].

{فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علمــوا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم.

{فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} أي: لهم النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} أي: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا بــه، وكــذبوا بــه، وخــالفوا الرســل، واستكبروا عن اتباعهم {فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} أي: في مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقولــه تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠] أي: صاغرين.

{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْــرُ الــرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ * ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْــصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [سورة الحــج (٥٨-٦٠)] يخبر تعالى عمن خرج مهــاجرًا فــي ســبيل الله ابتغــاء مرضاته، وطلباً لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلان، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونــصرة لــدين الله {ثُمَّ قُتِلُوا} أي: في الجهاد {أَوْ مَاتُوا} أي: حتف أنفهم، أي: من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل.

قوله: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة الحـــج (٥٨)] المعنى المتبادر للهجرة: الانتقال من البلد التي لا يستطيع أن يقيم دينه فيها إلى بلاد يستطيع أن يقيم دينه فيها، هذا معنى الهجرة، ولا يشترط أن تكون الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام؛ لأن المسلمين انتقلوا في البداية من مكة وكانت بلد كفر إلى الحبشة وهي بلد كفر أيضاً، فهو ينتقل من بلد لا يستطيع إقامة الدين فيها إلى بلد يأمن على نفسه، ويستطيع أن يقيم دينه وعبادته وشعائره في تلك البلاد، هذه الهجرة، فهذا هو المعنى المتبادر {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سورة الحـــج (٥٨)] انتقلوا من بلادهم إلى بلاد أخرى لإقامة دينهم.

والآية تحتمل أيضاً معنى أوسع من هذا، وهو كل من ترك بلده وموطنه في مرضاة الله -عز وجل- وفي سبيله؛ ولهذا جاءت بعض الآثار عن بعض الصحابة في هذا المعنى، في الذين خرجوا غازين فحصل لهم موت أو قتل، فهذا وإن كان لا يتبادر إلى الذهن من معنى قوله: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا} [سورة الحـــج (٥٨)] أنه من خرج غازياً، لكن من الصحابة من حمل الآية على هذا؛ ولهذا فإن من أهل العلم من يفسرها بهذا المعنى الواسع، فيقول: إن (هاجروا في سبيل الله) أولى ما يدخل فيها الانتقال، انتقل من موطنه انتقالاً نهائياً، انتقال هجرة.

ويدخل فيها كل من خرج من موطنه ولو خروجاً مؤقتاً لإعزاز الدين، خرج في سبيل الله، ما معنى خرج في سبيل الله؟ خرج لإعزاز الدين، ويمكن أن يقال: للدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- فهي داخلة في هذا، ولا أقصد ما يصطلح عليه بعضهم من تقنين ذلك بمدد معينة يسمونها الخروج، كـــ أربعة أشهر، أو شهر، أو أربعين يوماً أو ثلاثة أيام، أو أربعة أيام، هذا ما أنزل الله به من سلطان، لا أقصد هذا، حتى لا يفهم الكلام على غير وجهه، وإنما خرج في سبيل الله، خرج غازياً أو مهاجراً أو داعياً إلى الله -عز وجل- فمات بهذا الطريق أو قتل، فإن الله -عز وجل- قال: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سورة الحـــج(٥٨)] إذاً المعنى المتبادر هو الانتقال من موطنه إلى موطن آخر، بمعنى الهجرة المعروفة، هل يدخل فيها ما وراء ذلك؟ كل خروج وانتقال من بلدة ولو مؤقت لإعزاز الدين يحتمل الدخول؟ بعض الصحابة فسروا بمثل هذا، والشوكاني كان يرى الحمل على المعنيين.

كما قال تعالى {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَـــى اللَّـــهِ} [النساء: ١٠٠].

وقوله: {لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا} **أي: ليُجْرِيَن عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعيـــنهم** {وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلا يَرْضَوْنَهُ}

هنا الرزق الحسن هو الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، وبعضهم يقول: الغنائم التي يحصلون عليها حينما يقاتلون أعداء الله -عز وجل-، وبعضهم يفسر ذلك بالعلم النافع، والفهم الصحيح، وشعيب -صلى الله عليه وسلم- يقول: "ورزقني منه رزقاً حسناً" {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [سورة هود(٨٨)] ففسر الرزق

الحسن بالعلم والفهم، ولكن الأقرب هنا في تفسيره -والله أعلم- هو الجنة؛ لأنه قال: {لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ} [سورة الحـج(٥٩)] وهذا المدخل هو الجنة.

{لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ} [سورة الحـج (٥٩)] أي: الجنة، كما قال تعالى: {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ} [الواقعة: ٨٨ ، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم، كما قال هاهنا: {لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا} ثم قال: {لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ} أي: بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك {حَلِيمٌ} أي: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه، فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فإنه حي عند ربه يرزق، كما قال تعالى: {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩] والأحاديث في هذا كثيرة كما تقدم.

هذا يفسر أيضاً {لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا} وكذلك أيضاً في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ} [سورة النساء(١٠٠)] هذا كله تفسره هذه الآية.

وأما من تُوفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

روى ابن أبي حاتم عن شُرَحْبِيل بن السِّمْط، قال: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمر بي سلمان -يعني: الفارسي رضي الله عنه-، فقال: إني سمعت رسول الله يقول: ((من مات مرابطًا أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن من الفتّانين, واقرءوا إن شئتم: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} [سورة الحـج(٥٨ - ٥٩)]))[٣].

وروي أيضاً عن عبد الرحمن بن جَحْدَم الخولاني حدثه: أنه حضر فضالة بن عبيد في البحر مع جنازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق، والآخر توفي، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أي حفرتيهما بعثتُ، إن الله يقول: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا} [سورة الحـج(٥٨)] الآيتين، فما تبتغي أيها العبد إذا أدخلت مدخلاً ترضاه، ورزقت رزقًا حسنًا؟، والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت.

وقوله: {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ} [سورة الحـج(٦٠)] الآية، ذكر مقاتل بن حيان وابن جريج أنها نزلت في سرية من الصحابة، لقوا جمعًا من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم، وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم.

---

[٣] - تفسير ابن أبي حاتم (ج٩/ص٣٩١) (١٤٨٤٢).

على كل حال مثل هذا من رواية مقاتل، ومقاتل متوفى سنة مائة وخمسين، فهذا الذي يسميه بعضهم المعضل، وبعضهم يتوسع فيسميه المرسل، ومنهم من يقول بأن المرسل هو ما يرويه غير الصحابي مطلقاً، فلا يقيد ذلك بالتابعي.

على كل حال قوله: **{ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ}** [سورة الحـــج(٦٠)] ابن جرير -رحمه الله- يقول: أي هذا النصر الذي أنصره لمن بُغي عليه على الباغي لأني قادر، ثم قال: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}** [(٦١) سورة الحـــج].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج من آية ٦٠ إلى آية ٧٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله، وبعد.

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سورة الحج: ٦١-٦٢]، **يقول تعالى منبها على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال:** {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [سورة آل عمران: ٢٦-٢٧]، **ومعنى إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل: إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما وعد الله –تبارك وتعالى- بالنصر في قوله: {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [سورة الحج:٦٠]، قال بعدها: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} فكأنه يقول: لأني قادر، {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ} فذلك النصر الذي نصرناه لأنني قادر على ذلك، فلهذا قال: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} ومن كان بهذه المثابة فله القدرة التامة، وإنما ينصر من كان قادراً على النصر، ثم قال: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ}، فكأنه يقول: هذا الفعل الذي فعلت من إيلاجي لما قال في الآية التي قبلها: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} قال: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} ذلك الذي فعلته من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، لأني أنا الحق، فذلك الفعل لأني أنا الحق.

معنى إيلاج الليل في النهار: يعني في المُضِيِّ، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: "**ومعنى إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر في الليل**"، بمعنى أن الليل يمتد فيأخذ من النهار، فيتقاصر النهار، وتقل ساعاته، ويكون ذلك منصرفاً إلى الليل، وعكسه، فيكون إدخال هذا في هذا لهذا الاعتبار، ويحتمل معنى آخر من إدخال النور في الظلمة، وهذا عكسه، ويمكن أن ينظر لكلام ابن القيم -رحمه الله- في هذا المعنى، حيث قال -رحمه الله-: قال الله تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} وفيه قولان:

أحدهما: أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

القول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، فما ينقص منه يلج في الآخر، لا يذهب جملة، وعلى

هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة، فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان، ولا يتكون فيه النبات، وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات؛ لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب، وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة ويكون فيها اعتدالان خريفين وربيعين"[1].

وقال الإمام الشنقيطي -رحمه الله-: "قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} ذكر غير واحد من المفسرين: أن الإشارة في قوله: "ذلك" راجعة إلى نصرة من ظُلم من عباده المؤمنين المذكور قبله في قوله: {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ} الآية"[2].

وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-.

ثم قال -رحمه الله-: "أي: ذلك النصر المذكور كائن بسبب أنه قادر لا يعجز عن نصرة من شاء نصرته، ومن علامات قدرته الباهرة: أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل أو بسبب أنه خالق الليل والنهار، ومصرفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والانتصار، وأنه سميع لما يقولون، بصير بما يفعلون أي: وذلك الوصف بخلق النهار والليل والإحاطة بما يجري فيهما، والإحاطة بكل قول وفعل بسبب أن الله هو الحق أي: الثابت الإلهية والاستحقاق للعبادة وحده، وأن كل ما يُدعى إلهاً غيره باطل وكفر، ووبال على صاحبه، وأنه -جل وعلا- هو العلي الكبير، الذي هو أعلى من كل شيء وأعظم وأكبر، سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

وقد أشار تعالى لأول ما ذكرنا بقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ} الآية، ولآخره بقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ}.

والأظهر عندي: أن الإشارة في قوله "ذلك": راجعة إلى ما هو أعم من نصرة المظلوم، وأنها ترجع لقوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} [سورة الحج: ٥٦]، إلى ما ذكره من نصرة المظلوم أي: ذلك المذكور من كون الملك له وحده يوم القيامة، وأنه الحاكم وحده بين خلقه، وأنه المُدخِل الصالحين جنات النعيم، والمعذب الذين كفروا العذاب المهين، والناصر مَن بُغي عليه من عباده المؤمنين، بسبب أنه القادر على كل شيء، ومن أدلة ذلك: أنه يولج الليل في النهار إلى آخر ما ذكرنا...

ثم استدل على قدرته على الخلق والبعث، فقال: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ

---

١ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢٠٩/١-٢١٠).

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للإمام الشنقيطي (٢٩٣/٥).

مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سورة لقمان:٢٩-٣٠]، فهذه الصفات الدالة على كمال قدرته، استدل بها على قدرته في "الحج"، وفي "لقمان"، وإيلاج كل من الليل والنهار في الآخر فيه معنيان:

الأول -وهو قول الأكثر-: هو أن إيلاج كل واحد منهما في الآخر، إنما هو بإدخال جزء منه فيه، وبذلك يطول النهار في الصيف; لأنه أُولج فيه شيء من الليل، ويطول الليل في الشتاء; لأنه أُولج فيه شيء من النهار، وهذا من أدلة قدرته الكاملة.

المعنى الثاني: هو أن إيلاج أحدهما في الآخر، هو تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، بغيبوبة الشمس، وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا كما يضيء البيت المغلق بالسراج، ويظلم بفقده، ذكر هذا الوجه الزمخشري، وكأنه يميل إليه، والأول أظهر، وأكثر قائلا، والعلم عند الله تعالى"[٣].

وقوله: {وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} أي: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

ولما بين أنه المتصرف في الوجود، الحاكم الذي لا معقب لحكمه، قال: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه، {وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضرًا ولا نفعًا.

وقوله: {وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}، كما قال: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [سورة البقرة:٢٥٥]، وقال: { الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [سورة الرعد:٩] فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، وعز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} [سورة الحج:٦٣-٦٦].

وهذا أيضا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل الرياح، فتثير سحابا، فيمطر على الأرض الجُرُز التي لا نبات فيها، وهي هامدة يابسة سوداء قحلة، {فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [سورة الحج:٥].

وقوله: {فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً}، الفاء هاهنا للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه، كما قال: {خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [سورة المؤمنون:١٤].

وقد ثبت في الصحيحين: "أن بين كل شيئين أربعين يوما" ومع هذا هو معقب بالفاء، وهكذا هاهنا قال: {فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً} أي: خضراء بعد يبسها ومُحُولها.

---

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/٢٩٣-٢٩٤).

وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز: أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} هذا الاستفهام للتقرير، أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة، والفاء للتعقيب المباشر، فلما لاحظ بعض أهل العلم هذا المعنى في "الفاء" حمله على معنى غير خضرة النبات، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه، وبعضهم خص ذلك بمكة، ولربما يوجد بعض العناصر من المعادن التي تتأثر بالماء، فيميل لون الأرض إلى الخضرة إذا وقع عليها الماء، عنصر النحاس، فإذا نزل الماء اخضر المكان، فجبال مكة مثلاً إذا نزل عليها الماء رأيت فيها اخضراراً ليس من النبات، فبعضهم حملها على هذا، لكن هذا المعنى متجه وهذا الشيء هو الذي أراد الله -عز وجل- أن يدلل به على قدرته وعلى عظمته.

وجانب القدرة والعظمة حينما يتغير لون الجبل ويميل إلى الاخضرار بسبب عنصر من العناصر المعدنية كالنحاس، والذي يتكرر في القرآن ليدلل الله -عز وجل- به على قدرته، لاسيما على إحياء الموتى هو إحياء الأرض بعد موتها باخضرار النبات، فهذا الذي دل عليه القرآن في جميع المواضع "والفاء" للتعقيب المباشر ولكن ذلك في كل شيء بحسبه، وذكر شاهداً على هذا وهو قوله - تبارك وتعالى-: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [سورة المؤمنون:١٤] مع أن بين كل طور من هذه الأطوار أربعين يوماً، وعقب بالفاء، وهذا له نظائر في القرآن ولا إشكال فيه، فكل شيء بحسبه.

وقال الإمام الشنقيطي -رحمه الله-: "فإن قيل: كيف قال: فتصبح مع أن اخضرار الأرض قد يتأخر عن صبيحة المطر.

فالجواب: أنه على قول من قال: فتصبح الأرض مخضرة أي: تصير مخضرة فالأمر واضح، والعرب تقول: أصبح فلان غنيا مثلا بمعنى صار، وذكر أبو حيان عن بعض أهل العلم: أن بعض البلاد تصبح فيه الأرض مخضرة في نفس صبيحة المطر.

وذكر عكرمة وابن عطية، وعلي هذا فلا إشكال، وقال بعضهم: إن الفاء للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه كقوله: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [سورة المؤمنون:١٤] مع أن بين ذلك أربعين يوما كما في الحديث، قاله ابن كثير"[٤].

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} أي: عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحَب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [سورة لقمان:١٦]، وقال: {أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [سورة النمل:٢٥]، وقال تعالى: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة الأنعام:٥٩]، وقال: {وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة يونس:٦١].

---

٤ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/٢٩٦).

قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قد يتضمن المعنيين المذكورين، حيث قال في معنى اللطيف : "**أي عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر ولا يخفي عليه خافية فيوصل إلى كل منهم قسطه من الماء فينبته به**"، فالمعنى الأول: هو الذي يعلم خفايا الأمور -الأشياء الخفية- هذا الخبير.

والمعنى الثاني: اللطيف من اللطف وهو قد يعبر عنه بأنه قريب من الرفق، أو أخص من الرفق، أو نحو ذلك.

وليس معنى: "اللهم الطف بنا" اعلم بخفايانا وبدقائقها، ومعلوم أن أسماء الله -عز وجل-، قد يدل الاسم على عدة معانٍ، فالرب مثلاً له نحو سبعة معانٍ، وهكذا اللطيف: يعلم دقائق الأشياء، وهو أيضاً له معنى آخر قريب من الرفق إلا أنه أخص منه، وهذا كأنه يشير إليه كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء**، فهذا من اللطف، من معاني اللطيف، فإذا قلنا: اللطيف يعلم دقائق الأشياء، فالخبير يعلم الخفايا، فيرجع ذلك جميعاً إلى العلم.

وقوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [سورة الحج:٦٤] **أي: ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبد لديه.**

أي ملكه، والاستفهام في {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً} تقريري، والرؤية هنا يمكن أن تكون رؤية بصرية؛ لأن هذا شيء يشاهد.

وقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ} [سورة الحج:٦٥] **أي: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار. كما قال**: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} [سورة الجاثية:١٣] **أي: من إحسانه وفضله وامتنانه.**

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ} "ما" هذه للعموم تعم الحيوانات والجمادات والزروع والثمار، كما قال: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ}؛ لأن ذلك صادر منه، وهذه الآية يرد فيها على النصارى، الذين يلبسون، ويشبهون، حيث يقولون: إن قوله -تبارك وتعالى- عن المسيح -عليه الصلاة والسلام- "وروح منه" أنه ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، فيقولون: إنه روح غير مخلوقة، {وَرُوحٌ مِّنْهُ} [سورة النساء:١٧١]، ونقول فما تقولون في قوله -تبارك وتعالى-: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ} هل كل شيء هو صادر من الله، بمعنى أنه جزء من الله -عز وجل- أم أن ذلك تبرأ منه، خلقه وأوجده وأنعم به وتفضل؟!.

{وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ} **أي: بتسخيره وتسييره أي: في البحر العَجَاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه،** {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ} **أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛**

ولهذا قال: {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} أي: مع ظلمهم، كما قال في الآية الأخرى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة الرعد:٦].

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ} رد على أهل الفلك من المعاصرين الذين يزعمون أن السماء ليست بسقف ولا لها جرم، وإنما يقولون: هذا الفضاء بما فيه من غازات ونحو ذلك هو السماء، ولا يوجد هناك سقف، والله -عز وجل- يقول: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا} [سورة الأنبياء:٣٢]، ويقول {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ}.

وقوله: {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} [سورة الحج:٦٦]**، كقوله: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** [سورة البقرة:٢٨]**، وقوله: {قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ}** [سورة الجاثية:٢٦]**، وقوله: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}** [سورة غافر:١١] **ومعنى الكلام: كيف تجعلون لله أندادا وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف؟، {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ}** أي: **خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا يذكر، فأوجدكم {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}** أي: **يوم القيامة، {إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ}** أي: **جحود.**

قوله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ}** حينما يكون الإنسان نطفة فهو ميت، فأحياه الله -عز وجل- ونفخت فيه الروح **{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}** [سورة الروم:١٩]، فيشمل المعنيين، المعنى الذي ذكره في الهدى والضلال، وكذلك المعنى المتبادر وهو الفرخ من البيضة، ويخرج الإنسان من النطفة، ولا يقولن قائل: إن النطفة فيها الحيوان المنوي، وإنه حي، وإنما يقال: نطفة ميتة، إنما الحياة ما كان فيها الروح، هذا هو المقصود، ولا عبرة بالاصطلاحات الحادثة، والذي لم تنفخ فيه الروح هذا يقال له: ميت.

قال تعالى: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [سورة الحج:٦٧-٦٩].

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكا.

قال ابن جرير: يعني: لكل أمةٍ نبيٍّ منسكا، قال: وأصل المنسك في كلام العرب: هو الموضع الذي يعتاده الإنسان، ويتردد إليه، إما لخير أو شر، قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها.

فإن كان كما قال من أن المراد لكل أمةٍ نبيٍّ جعلنا منسكا فيكون المراد بقوله: {فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ} أي: **هؤلاء المشركون، وإن كان المراد: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} جعلا قدريا -كما قال: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}-** [سورة البقرة:١٤٨] **ولهذا قال هاهنا: {هُمْ نَاسِكُوهُ}** أي: **فاعلوه، فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أي: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: {وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ}، أي: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود.**

قوله -تبارك وتعالى-: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ} المنسك فيها لغتان "منسِك" و"منسَك"، وفيها قراءتان متواترتان –أيضاً- فالمنسِك هذه لغة أهل الحجاز، والمنسَك هذه لغة لبعض العرب -لغة أسد-، وبالكسر قرأ بها حمزة والكسائي، وقراءة الجمهور بالفتح، كما نقرأ "منسَك"، وهذه اللفظة تطلق بإطلاق أخص، وتطلق بإطلاق أعم، وتطلق على معانٍ بين بين، فأخص إطلاقات هذه اللفظة أن المنسَك بمعنى الذبيحة، وإذا فسر بالمكان فيكون مكان الذبح خاصة، مكان للقرابين، مكان للذبائح، تقول: هذه نسيكة يعني الأضحية والهدي، ما يذبح للتقرب، وعلى سبيل التعبد يقال له ذلك وهذا المعنى صحيح لا إشكال فيه أنه يطلق على هذا المعنى الخاص، ويطلق على معنى أعم وهو التعبد، فيقال: فلان متنسك، فلان ناسِك، فهذا معنى عام، والنسك يطلق على العبادة بإطلاق لا يختص بنوع منها، كما أنه يطلق على معنى بين بين وهو أعمال الحج أو العمرة بما فيها الهدي، فيقال: أحكام المناسك، وقوله -تبارك وتعالى-: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} من أهل العلم من فسره بالمكان فقال: أي متعبَّداً، تفسيراً له بالمعنى الأعم، يعني أنهم يقصدونه ويتعبدون فيه، ومن فسره بالمعنى الأخص بالذبح قال: منسك أي: مكان يتقربون به إلى الله بالذبائح، ومن قال: إنه مصدر لا اسم مكان فسره بالشريعة {لِكُلِّ أُمَّةٍ} أي: لكل قبيلة من الناس، أو جيل، أو طائفة جعلنا منسكاً يعني شريعة، فالذين كانوا في زمن موسى -صلى الله عليه وسلم- كان ذلك بالنسبة إليهم هو التوراة، ثم بعد ذلك بعث الله عيسى -عليه الصلاة والسلام- فكان الإنجيل مع تعبدهم بالتوراة، ثم بعث محمداً -صلى الله عليه وسلم- فكان منسكهم هو القرآن، فهذا معنى ذكره بعض أهل العلم تفسيراً له بالمصدر لا أنه اسم مكان، واحتجوا بأنه قال: {جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ} ولم يقل: ناسكوه فيه، ولو كان اسم مكان لقال: هم ناسكون فيه، وإنما قال: {هُمْ نَاسِكُوهُ} أي: جعلنا لهم شريعة، و{هُمْ نَاسِكُوهُ} أي: متعبدون فيها، وبعضهم فسره بالعيد وهذا لا يعارض بعض ما سبق؛ لأن المكان الذي يعتاده الناس بخصوصه، ويترددون عليه من أجل التقرب فيه بلون من العبادة سواء الذبح أو الحج إليه أو نحو هذا يقال له: عيد، ولهذا سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك الرجل الذي نذر أن يذبح إبلاً في بوانة فسأله: ((هل كان فيها عيد من أعيادهم؟))[٥]، ولهذا يقال: إن عرفة عيد مكاني، يجتمع فيه الحجاج في مكان معين، فالأعياد منها ما هو مكاني، ومنها ما هو زماني، مثل عيد الفطر لا يختص بمكان فهو عيد زماني، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- نقل كلام ابن جرير، وابن جرير له كلام قبل هذا، ونقل الحافظ ابن كثير بعض كلامه بمعناه، وليس بحروفه، والأصل أن يكون النقل بالحرف إلا أن ينبه على أن هذا معنى كلام ابن جرير، قال ابن جرير -رحمه الله-: "وقوله: {فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ} يقول -تعالى ذكره-: فلا ينازعنك هؤلاء المشركون بالله يا محمد في ذبحك ومنسكك

---

٥ - رواه أبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب ما يؤمر به من الوفاء عن النذر، رقم (٣٣١٣)، وأحمد في المسند، برقم (١٥٤٥٦)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف، أبو الحويرث حفص من رجال "التعجيل" انفرد بالرواية عنه عبد الصمد بن عبد الوارث، ولم يؤثر توثيقه عن أحد، لكنه قد توبع، وعبدالله بن عبدالرحمن بن يعلى بن كعب: وهو الطائفي، مختلف فيه، قيل: لم يسمع من ميمونة، بينهما يزيد بن مقسم الثقفي، وقال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧٤/٦) برقم (٢٨٧٢): "و إسناده صحيح رجاله رجال الشيخين".

بقولهم: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله؟ فإنك أولى بالحق منهم، لأنك محق، وهم مبطلون"[٦].

وقال رحمه الله: "وقوله: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} يقول: لكل جماعةِ قومٍ هي خلت من قبلك جعلنا مألفا يألفونه ومكانا يعتادونه لعبادتي فيه، وقضاء فرائضي، وعملا يلزمونه، وأصل المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شر، يقال: إن لفلان منسكا يعتاده: يراد مكانا يغشاه ويألفه لخير أو شر. وإنما سميت مناسك الحجّ بذلك، لتردّد الناس إلى الأماكن التي تُعمل فيها أعمال الحجّ والعُمرة، وفيه لغتان: "مَنْسِك" بكسر السين وفتح الميم، وذلك من لغة أهل الحجاز، و "مَنْسَك" بفتح الميم والسين جميعا، وذلك من لغة أسد، وقد قرئ باللغتين جميعا.

وقد اختلف أهل التأويل في المعنيّ بقوله: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} أيّ المناسك عَنى به؟ فقال بعضهم: عنى به: عيدهم الذي يعتادونه.

وقال آخرون: عَنى به ذبحا يذبحونه، ودما يُهريقونه.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: عني بذلك إراقة الدم أيام النحر بمِنى، لأن المناسك التي كان المشركون جادلوا فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كانت إراقة الدم في هذه الأيام، على أنهم قد كانوا جادلوه في إراقة الدماء التي هي دماء ذبائح الأنعام بما قد أخبر الله عنهم في سورة الأنعام، غير أن تلك لم تكن مناسك، فأما التي هي مناسك فإنما هي هدايا أو ضحايا، ولذلك قلنا: عَنى بالمنسك في هذا الموضع الذبح الذي هو بالصفة التي وصفنا"[٧].

وقال: "وقوله: {فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ} يقول -تعالى ذكره-: فلا ينازعنك هؤلاء المشركون بالله يا محمد في ذبحك ومنسكك بقولهم: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله؟ فإنك أولى بالحقّ منهم، لأنك محقّ وهم مبطلون"[٨].

وقال الشنقيطي -رحمه الله-: "قوله تعالى: {لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ} الأظهر في معنى قوله: {مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ} أي متعبداً هم متعبدون فيه، لأن أصل النسك التعبد، وقد بين تعالى أن منسك كل أمة فيه التقرب إلى الله بالذبح، فهو فرد من أفراد النسك، صرح القرآن بدخوله في عمومه، وذلك من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك.

والآية التي بين الله فيها ذلك هي قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا} [سورة الحج:٣٤]، وقوله: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً} في الموضعين قرأه حمزة والكسائي بكسر السين، والباقون بفتحها"[٩].

---

٦ - جامع البيان في تأويل القرآن (١٨/٦٨٠).

٧ - جامع البيان في تأويل القرآن (١٨/٦٧٩).

٨ - جامع البيان في تأويل القرآن (١٨/٦٨٠).

٩ - أضواء البيان (٥/٢٩٨).

فابن جرير حملها على المعنى الأخص، والشنقيطي حملها على المعنى الأعم، وجعل التقرب بالذبح أحد الأنواع الداخلة تحته.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **ولهذا قال:** {وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ} **أي: طريق واضح مستقيم، موصل إلى المقصود.**

وهذه كقوله: {وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ} [سورة القصص:٨٧].

وقوله: {وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ}، **كقوله:** {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة يونس:٤١].

وقوله: {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} **تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله:** {هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [سورة الأحقاف:٨]؛ **ولهذا قال:** {اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}، **وهذه كقوله:** {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ} **الآية** [سورة الشورى:١٥].

قوله تعالى: {وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} هذا فيه تهديد ووعيد، باعتبار أنه فيه تهديد مبطن غير صريح، فلم يقل: فإن جادلوك فموعدهم النار مثلاً، وإنما قال: {فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} فإذا كان أعلم بما تعملون ففي ضمنه التهديد أنه سيجازيكم، ويحاسبكم، ويعاقبكم؛ فهو لا يخفى عليه من أعمالكم ومن تكذيبكم ومن مجادلتكم شيء، فيجزي كل عامل بعمله، فهذا يقال له: تهديد مبطن يعني غير صريح، وهذه الآيات التي ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره قال: {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} هذا في الإعراض؛ لأن الآية تضمنت التهديد غير الصريح، وتضمنت الأمر بالإعراض عن مجادلتهم؛ لأنهم لا يريدون الحق بهذه المجادلة، فهذا فيه تعليم من الشارع فيما يتصل بمجادلة من كان مبطلاً ألّا يجادل ولا يخاطب، وإنما يعرض عنه، وأمره بالإعراض فقال: {فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} كما في قوله: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} ما رد عليهم بمعنى أنه أبطل قولهم أو احتج عليهم أو نحو ذلك، وإنما فيه الإعراض عن مجادلتهم إذا كان المجادل لا يريد الحق، والتهديد: يقول: كقوله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}.

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة الحج:٧٠].

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء))[١٠].

---

١٠ - رواه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى -عليهما السلام-، برقم (٢٦٥٣).

وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة))[11].

ولهذا قال تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

قوله {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} "ذلك" الإشارة ترجع إلى شيء، يحتمل أن ترجع إلى ما قبلها مباشرة وهو الأقرب، فيكون المعنى أنّ جعْل ذلك في كتاب أو أن كتابة ذلك -يعني في اللوح المحفوظ- على كثرته يسير على الله -تبارك وتعالى-، وهذا هو المتبادر، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ويحتمل معنى آخر وهو أنه -تبارك وتعالى- قال: {اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [سورة الحج:٦٩] يعني أن الحكم بينكم يوم القيامة على كثرة الناس، وعلى كثرة اختلافهم وتفرق آرائهم ومذاهبهم وأديانهم واعتقاداتهم يسير على الله -عز وجل- هكذا حمله بعض أهل العلم: {إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة الحج:٧٠] يعني الحكم بين الخلائق، لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن المراد به ما قبله وهو أن الله قد كتب ذلك جميعاً في كتاب، وهو اللوح المحفوظ.

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [سورة الحج:٧١-٧٢].

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، يعني: حجة وبرهانا، كقوله: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [سورة المؤمنون:١١٧]، **ولهذا قال هاهنا:** {مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ} **أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه وأفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سوّل لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله:** {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} **أي: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.**

ثم قال: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ} **أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق،** {يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} **أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء،** {قُلْ} **أي: يا محمد لهؤلاء،** {أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} **أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم.**

---

١١ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، برقم: (٤٧٠٠)، والترمذي، كتاب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ١٧، برقم (٢١٥٥)، وأحمد في المسند، برقم: (٢٢٧٠٥)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠١٧).

وقوله: {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} أي: وبئس النار منزلا ومقيلا ومرجعا وموئلا ومقاما، {إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [سورة الفرقان:٦٦].

بعض أهل العلم يقول في المراد بقوله: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ}: تعرف في وجوههم ما يُنكر من العبوس، ودلائل الغضب، وأمارات الشر التي تظهر على وجوههم مما يدل على حنقهم، وشدة تغيظهم على هذا الذي يتلو عليهم آيات الله -عز وجل- البينات، فيكون {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ} أي: ما يُنكر من هذه الأمارات الظاهرة على هذه الوجوه الغاضبة.

وبعضهم يقول: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ} يعني الإنكار عليك، أو أن هذه الوجوه منكرة لهذا الذي سمعتْه أو ما قرأه من التوحيد، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له وما شابه ذلك، وبعضهم يقول: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ} يعني الترفع، والتكبر، والتعالي وما أشبه ذلك، وهذا يرجع إلى أصل المعنى وإن كان يختلف عنه في توجيهه، فالمقصود أنك تعرف في وجوه هؤلاء أمراً مستنكراً، فيكون المنكر هو ما يُنكر مما يظهر على هذه الوجوه إما من تكبر، وترفع، أو غضب، وحنق، وعبوس، واشمئزاز وما أشبه ذلك، ويمكن أن يقال: إن الآية تفسر بما هو أقرب من هذا كله {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ} أي تعرف في وجوههم ما يدل على التوثب، والحنق، وفسره بما بعده وهو قوله: {يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} [سورة الحج:٧٢] فأنت تعرف في وجوههم المنكر بالدلائل والأمارات التي تدل على شدة توثب هذه النفوس، وتغيظها، وحنقها، حيث تريد البطش وإيصال السوء بمن تلا عليهم الآيات، ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} يقول: **أي النار وعذابها، ونكالها أشد، وأشق، وأطم، وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا**، بمعنى أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال بأن معنى {أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ} يعني أنتم تريدون إيقاع المكروه بهؤلاء الذين يتلون عليكم آيات الله -عز وجل-، وهناك ما هو أعظم من هذا وهو ما ينتظركم من عذاب الله -عز وجل-، فالنار أشد من هذا الذي تريدون إيصاله من الأذى إلى هؤلاء الذين يتلون عليكم آيات الله، فهذا الذي مشي عليه ابن كثير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: بِشَرٍّ من هذا الذي ظهرت أمارته من الحنق والغضب في نفوسكم النار التي تصيرون إليها، وابن جرير -رحمه الله- ذهب به إلى معنى آخر {أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ} يعني: بأكره أو بما هو أشد كراهية من هذا الذي سمعتموه، أو من هذه الكراهية الشديدة حينما سمعتم آيات الله -عز وجل- هناك ما هو أشد إيلاماً لنفوسكم وهو النار التي تنتظركم، هذا أشد وأعظم من هذا التكره الذي حصل لكم حينما سمعتم الآيات تتلى، كرهوا سماع هذه الآيات، فالله يقول: هناك ما هو أشد كراهة في نفوسكم، وأعظم وقعاً وهو ما ينتظركم من العذاب في الآخرة.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [سورة الحج:٧٣-٧٤].

يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ} أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، {فَاسْتَمِعُوا لَهُ} أي: أنصتوا وتفهموا، {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ

يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ} أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك.

قوله تعالى: {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} الإشكال الذي عند الكثيرين في معنى المثل، وكثرة الاضطراب الذي تجده في كلام كثير من أهل العلم هو الذي جعل الكثيرين منهم في تفسير هذه الآية يقول بأقوال مخالفة تماماً لأقوال بعض السلف في الآية، والمثل له معنى في اللغة، وله معنى عند الأدباء، وله معنى عند البيانيين، والمثل الذي نردده ونقول مثلاً: قال المثل، كما في المثل غير مراد في كتاب الله -عز وجل-، ولا يوجد شيء من هذه الأمثال بالمعنى الذي عند الأدباء مثل: مَن عَزّ بَزّ، من غلب استلب وما شابه ذلك من العبارة المختصرة الوجيزة المعبرة التي قيلت في مناسبة، ثم صارت تذكر فيما شابهها، هذا غير موجود في القرآن؛ لأن الله لا يتمثل بكلام أحد من الناس؛ فالله أعظم وأجل شأناً، فالمراد بالمثل في القرآن بعض أهل العلم يُرجع ذلك في جميع استعمالاته إلى أنه يعود إلى معنى الشبه -متصل بمعنى الشبه-، ولهذا يقولون: قياس التمثيل إلحاق فرع بأصل، وقياس الفقهاء في حكم لعلةٍ جامعةٍ بينهما فيه شبه، ولكن هذا لا يتأتى في كل المواضع التي ذكر فيها لفظ المثل، فالمثل يأتي بمعنى الشبه ويأتي بمعنى الصفة، نقول: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [سورة محمد:١٥] يعني صفة الجنة، وهذا عبر به كثير من السلف وأئمة التفسير، ولا حاجة للتحمل والتكلف في إرجاع ذلك إلى الشبه، فالمثل أحياناً يطلق على معنى فيه شيء من المقايسة، وهذا له تعلق بموضوع الشبه، وهكذا حينما يقال: تصوير المعنى بصورة محسوسة، وإبراز المعنى المعقول بصورة حسية {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [سورة البقرة:١٧]، هذا حال المنافق وتردده {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ} [سورة البقرة:١٩] إبراز المعاني المعقولة بصورة محسوسة يقربها إلى الإفهام هذا يقال له: مثل، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يوسع ذلك جميعاً، والواقع أن هذا من صنيع شيخ الإسلام، وإذا استُبعدت المقدرات الذهنية عندنا في معنى المثل فهو الذي يمكن أن يشمل المواضع المذكورة في القرآن، وشيخ الإسلام يرى أن المثل يطلق على كل ما يحصل به الاتعاظ، والاعتبار من إبراز معنى المعقول، أو ذكر القصص، والأخبار، وكل هذه الأشياء هي أمثال، ولهذا يقول الله -عز وجل-: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ} [سورة العنكبوت:٤٣]، ويكون في الأمور التي يحصل بها التشبه {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [سورة البقرة:١٧]، {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ} [سورة الأعراف:١٧٦] وأحياناً لا يذكر لفظ المثل أصلاً {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ} [سورة الرعد:١٧] ثم قال: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ} [سورة الرعد:١٧]، فشيخ الإسلام يرى أن قصص الأنبياء هذه من قبيل الأمثال، فإذا قيل أمثال القرآن: يدخل فيها كل هذه الأمور، والمعاني التي يحصل بها الاتعاظ، والاعتبار، ويدخل فيها ما يذكر من الأوصاف، كصفة الجنة ونحو هذا، فوسعه جداً، أوسع الإطلاقات، أو التفسيرات للمثل هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وهذا يُحل به إشكالات، والذين استشكلوا لفظة المثل أن تذكر في غير المعاني التي تسبق إلى أذهانهم قالوا: ما فيه مثل هنا {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} ذكر صفة الآلهة المعبودة من دون الله -عز وجل-، ولهذا فإن بعضهم قال: {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ} إن الكفار ضربوا لله - عز وجل- مثلاً بهذه الآلهة المعبودة فجعلوا لها شأنا، وأضفوا عليها من صفات الآلهة -وهي جمادات لا تنفع ولا تضر- فوُجد نوع من

المشابهة بإعطاء هذه المعبودات أوصافاً أكبر مما تستحق، وجعلوا لها أوصاف الإلهية، شبهوها بالخالق، فهم يريدون أن يرجعوه إلى الشبه، هذا الذي حمل بعض المفسرين على أن يقول في {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ}: إن الكفار ضربوا لله مثلاً بجعل آلهة مزعومة تعبد من دونه -تبارك وتعالى- أضفوا عليها أوصاف الإلهية شبهوها بالخالق، الله يقول: {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} معناه أن ما سيأتي بعده هو المثل، وهؤلاء قالوا: {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} ضُرب مثل: أن الكفار ضربوا لله المثل، فأبطل الله ذلك بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ} لكن هذا تفكيك للكلام ولا يدل عليه السياق، ولهذا فإن المثل المضروب هو الذي ذكر الله -عز وجل-، والتشبيه فيه، إذا قلنا: إن المثل دائماً يرجع إلى معنى التشبيه، ومن وقف عند هذه القضية وقال: المثل لابد فيه من تشبيه حاول أن يوجد نوعاً من الارتباط بين التشبيه، أقول: لا حاجة لمثل هذا التكلف، فالمثل يطلق على الصفة، فهذه حال وصفة هذه المعبودات من دون الله -تبارك وتعالى-، والمثل كما يقول ابن قتيبة: من عبد آلهة لم تستطيع أن تخلق ذباباً وإن يسلبها الذباب شيئاً لا تستطيع أن تستنقذه منه، ولهذا يعبر بعضهم كالنحاس فيقول: ضرب الله مثلاً للآلهة المعبودة من دون الله -عز وجل-؛ لأنها بهذه المثابة لا تستطيع أن تخلق أحقر الأشياء، ولا تستطيع أن تستعيد ما أخذه هذا المخلوق الضعيف منها، فهو مثل لهذه الآلهة المُدّعاة.

كما قال الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعا قال: ((ومن أظلم ممن خلق خلقا كخلقي؟ فليخلقوا مثل خلقي ذَرّة، أو ذبابة، أو حَبَّة))[١٢].

وأخرجه صاحبا الصحيح، من طريق عُمَارة، عن أبي زُرْعةَ، عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله -عز وجل-: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة))[١٣].

ثم قال تعالى أيضا: {وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ} أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئًا من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}.

قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق، وقال السدي وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها، {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء،

---

١٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (٩٠٨٢)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف من أجل شريك النخعي.

١٣ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [سورة الصافات:٩٦]، برقم (٧١٢٠)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه، وأن الملائكة -عليهم السلام- لا يدخلون بيتا فيه صورة ولا كلب، برقم (٢١١١).

{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم:٢٧]، {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} [سورة البروج:١٢-١٣]، {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [سورة الذاريات:٥٨].

وقوله: {عَزِيزٌ} أي: قد عز كل شيء فقهره وغلبه، فلا يمانَع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

قوله: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} الأقرب -والله تعالى أعلم- عند الترجيح بين الأقوال هو ما ذكر ابن جرير -رحمه الله- بمعنى أن الله -عز وجل- قال: {وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ} [سورة الحج:٧٣] فهي تطلب خلاصه واسترجاعه، قال: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} فالصنم يريد أن يسترجع هذا الشيء الذي أُخذ فهو طالب، والذباب مطلوب، والمقصود أن الله -تبارك وتعالى- بيّن حال هذه الآلهة المعبودة من جهة عجزها عن خلق أضعف الأشياء قدراً وهو الذباب، بأنها لا تستطيع أن تخلق ذباباً، لا تستطيع أن تستخلص ما سلبه الذباب منها مما يوضع عليها من طيب ونحو ذلك، ولا حاجة لتفخيم ما حقره الله -عز وجل-، أو ذُكر على سبيل بيان حقارته فيفخم كما يذكر بعض من تكلم في الإعجاز العلمي، فإذا سمعتَهم يتكلمون عن الذباب تجد أنهم يذكرون كيف أنه إذا امتص شيئاً فإنه يتحول إلى شيء آخر لا يمكن للبشر أن يرجعوه إلى طبيعته السابقة. أنتم الآن تضخمون الموضوع، والله -تبارك وتعالى- تكلم عن الأصنام هذه أنها لا تستطيع أن تستخلص هذا الذي أخذه الذباب منها، صاحب التفسير العلمي هذا الذي يتكلم الآن في هذه القضية يقول: إن البشر لا يستطيعون إرجاع هذا الشيء الذي امتصه الذباب؛ لأنه يفرز عليه إفرازات معينة ويتحول إلى مادة أخرى تماماً لا يمكن إرجاعه إلى حالته السابقة، ليس الكلام في تعظيم شأن الذباب، وكيف أن الذباب عنده هذه القدرة القوية التي أودعها الله -عز وجل-، فيحول هذه الأشياء إلى مواد أخرى، لو اجتمع البشر جميعاً على أن يرجعوها إلى حالها السابقة لا يستطيعون، فأنت بهذا الكلام جعلت الذباب شيئاً هائلاً، وليس المقصود هذا، وليس المقصود أن الناس بمختبراتهم ومعاملهم لا يستطيعون استرجاع ما أخذه الذباب، فالكلام في هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر وما تستطيع أن تأخذ هذا الشيء من الذباب بعد أن سلبه منها، فهي جمادات لا نفع فيها ولا ضر، هذا المخلوق الحقير لا تدفعه عن نفسها، ولا تستطيع خلقه، ولا إرجاع ما استلبه منها، ومثلما يقولون في البعوضة أيضاً: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً} [سورة البقرة:٢٦] ذكر الشيء الصغير الحقير يضرب به المثل فيأتون ويتكلمون عن البعوضة أنها مخلوق هائل، ويذكرون فيها من الخراطيم والأشياء والقدرات العجيبة، تفرز مادة وكذا، ويذكرون أشياء إذا قرأتها تخيل لك أن هذه البعوضة طيارة أباتشي، فالله ذكر هذه البعوضة على أنها مخلوق بسيط صغير لا يستحيي –تبارك وتعالى- أن يضرب به المثل للدلالة على معنى من المعاني، وهؤلاء يضخمون موضوع البعوضة جداً وهذا خلاف مقصود القرآن، ولكن هؤلاء كثير منهم يتكلم بلا علم، فيأتون بهذه الأمور المخالفة لمقصود الشارع من سياق هذه الآيات وتقريرها، الله يريد أن يحقرها وهم يأتون ويعظمونها.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله- في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ...} الآية: "حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه؛ وذلك أن المعبود

أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه فكيف ما هو أكبر منه؟!، ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟!، وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلهيّة التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات وأن يُصعَد إلى الرب في جميع الحاجات وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات وإجابة الدعوات فأعطوها صورا وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الآلهة الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه.

وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء الإلهيّة عنهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا عليه، ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: **{ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}** قيل الطالب: العابد، والمطلوب: المعبود، فهو عاجز متعلق بعاجز وقيل: هو تسوية بين السالب والمسلوب، وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز، وعلى هذا فقيل: الطالب: الإله الباطل، والمطلوب: الذباب يطلب منه ما استلبه منه، وقيل الطالب: الذباب والمطلوب: الإله، فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه، والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد والمعبود والمستلِب والمستلَب، فمن جعل هذا إلها مع القوي العزيز فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه"[١٤].

وقال ابن جرير الطبري -رحمه الله-: "يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الناس جُعل لله مثل وذكر، ومعنى ضُرب في هذا الموضع: جُعل من قولهم: ضَرب السلطان على الناس البعث، بمعنى: جَعل عليهم، وضرب الجزية على النصارى، بمعنى جعل ذلك عليهم; والمَثَل: الشَّبَه، يقول جلّ ثناؤه: جُعل لي شبه أيها الناس، يعني بالشَّبَه والمَثَل: الآلهة، يقول: جعل لي المشركون الأصنامَ شبها، فعبدوها معي، وأشركوها في عبادتي. فاستمعوا له: يقول: فاستمعوا حال ما مثلوه وجعلوه لي في عبادتهم إياه شبها، وصفته: **{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا}** يقول: إن جميع ما تعبدون من دون الله من الآلهة والأصنام لو جمعت لم يخلقوا ذبابا في صغره وقلته، لأنها لا تقدر على ذلك ولا تطيقه، ولو اجتمع لخلقه جميعها، والذباب واحد، وجمعه في القلة أَذِبّة وفي الكثير ذِبَّان، غُراب، يجمع في القلة أَغْرِبَة، وفي الكثرة غِرْبان.

وقوله: **{وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا}** يقول: وإن يسلب الآلهةَ والأوثانَ الذبابُ شيئا مما عليها من طيب وما أشبهه من شيء لا يستنقذوه منه: يقول: لا تقدر الآلهة أن تستنقذ ذلك منه.

---

١٤ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، للإمام ابن القيم (٢١٤/١).

واختلف في معنى قوله: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} فقال بعضهم: عَني بالطالب: الآلهة، وبالمطلوب: الذباب"[١٥].

تم بحمد الله وفضله.

١٥ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٦٨٥/١٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الحج (١٧)

من قوله تعالى"الله يصطفي" الآية ٧٥ إلى قوله تعالى"ونعم النصير" إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

قال الله تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} [سورة الحج: (٧٥- ٧٦)].

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدَره، ومن الناس لإبلاغ رسالته، {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}، **أي: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال:** {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [سورة الأنعام: (١٢٤)]، **وقوله:** {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} [سورة الحج: (٧٦)]، **أي: يعلم ما يفعل رسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، كما قال:** {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} **إلى قوله:** {وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} [سورة الجن: (٢٦- ٢٨)] **فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم** {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [سورة المائدة: (٦٧)]**الآية.**

قوله -تبارك وتعالى-: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [سورة الحج: (٧٥)] يصطفى من الملائكة، أي: يختار من يكلفهم برسالاته، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ} [سورة فاطر: (١)]، وهكذا أيضاً {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} فهؤلاء يبلغون رسالات الله -تبارك وتعالى- إلى أنبيائه ورسله، كما أنه أيضاً قد يرسل رسلاً ويكلفهم بما شاء، كما قال الله -جل جلاله-: {وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً} [سورة الأنعام: (٦١)]، والضمير كما هو ظاهر في قوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} [سورة الحج(٧٦)] يرجع للمذكور قبله وهم الرسل، والله -عز وجل- يعلم أحوال خلقه لا يخفى عليه خافية {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} [سورة البقرة: (٢٥٥)]، هذا في عموم الخلق، وهذه الآية في الرسل -عليهم الصلاة والسلام- الذين يرسلهم من الملائكة، ومن الآدميين {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} أي: يعلم أحوالهم وما يقولون وما يجيبهم به أقوامهم، وهو يحفظهم ويكلؤهم ويرعاهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} **[سورة الحج: (٧٧-٧٨)].**

عن عقبة بن عامر عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فُضلت سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما))[1].

وقوله: {وَجَاهِدُوا فِي اللّهِ حَقّ جِهَادِهِ}، أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}.

حديث عقبة بن عامر مرفوعاً فيه ضعف، والسجود كما هو معلوم لا يجب، ومن ترك سجود التلاوة فلا حرج عليه.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَاهِدُوا فِي اللّهِ حَقّ جِهَادِهِ} قال: أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [سورة آل عمران: (١٠٢)]، بمعنى: أن ذلك مقيد بالاستطاعة {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا} [سورة التغابن: (١٦)] فقوله -تبارك وتعالى-: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} أو {وَجَاهِدُوا فِي اللّهِ حَقّ جِهَادِهِ} ليست بمنسوخة وإنما هي محكمة، ولكن ذلك مقيد بالاستطاعة، حيث إن الآية الأخرى توضحها {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا} [سورة التغابن: (١٦)]، ومن أهل العلم من أطلق النسخ وقد يريد به التقييد أو التخصيص، كما هو معلوم أن السلف يطلقون النسخ كثيراً، ويقصدون به ما يعرض للنص العام من تخصيص وللمطلق من تقييد بل وللمجمل من بيان، فكل يقال له نسخ، إضافة إلى ما عرف عند المتأخرين على سبيل التحديد بالنسخ وهو الرفع، فكل ذلك يقال له نسخ في لغتهم، وعلى كل حال بعض المتقدمين أطلق النسخ هنا وقصد به معنى الرفع، وهو معنى لا ينكر، والأقرب أن الآية ليست بمنسوخة، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [سورة آل عمران: (١٠٢)] بمعنى بحسب قدرتكم واستطاعتكم.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله فيكون كله لله وبالله لا لنفسه ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ومعصية أمره وارتكاب نهيه، فإنه يعِد الأماني ويمنِّي الغرور، ويعد الفقر ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى والعفة والصبر وأخلاق الإيمان كلها، فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان وعُدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله لتكون كلمة الله هي العليا، واختلفت عبارات السلف في حق الجهاد فقال ابن عباس: هو استفراغ الطاقة فيه وألا يخاف في الله لومة لائم، وقال مقاتل: اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته، وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى، ولم يصب من قال إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق، وحق تقاته وحق جهاده هو ما يطيقه كل عبد في نفسه وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز والعلم والجهل، فحق التقوى وحق

---

[1] - رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، باب التأمين (٣٤٣/١)، برقم: (٨٠٥).

الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء، وتأمل كيف عقب الأمر بذلك بقوله: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [سورة الحـــج: (٧٨)]"[٢].

وقوله: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ} أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدّينِ مِنْ حَرَجٍ}.

أي ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعاً، وفي السفر تقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث

هذا ما جاء في عدد من الأحاديث، بعض هذه مخرج في الصحيحين، وسبق الكلام على هذا في التعليق على هذا الكتاب، وكذلك أيضاً في الكلام على الفقه -شرح كتاب المقنع- بصورة أوسع.

وعلى كل حال ظاهر بعض الأحاديث أن صلاة الخوف يمكن أن تقصر إلى ركعة واحدة، بل ذهب بعض الأئمة إلى أكثر من هذا، والمسألة فيها خلاف معروف، والمقصود هنا التمثيل، وليس المقصود به التحقيق والكلام عن الفقه في هذا الموضع، وبيان ما يتعلق بصلاة الخوف، إنما هو مثال سواء قلنا: إنه تقصر الرباعية إلى ركعتين أو يمكن أن تكون ركعة واحدة، والتوسعة والتخفيف قد بنيت عليه هذه الشريعة كما قيل: قد أسس الفقه على رفع الضرر، والمشقة تجلب التيسير، فهذه إحدى القواعد الخمس الكبرى، وأدلة ذلك كثيرة جداً، فالله -تبارك وتعالى- رفع الأغلال والآصار، وهي التكاليف الثقيلة الشاقة التي كانت على الأمم أو على بعض الأمم السابقة، لاسيما على بني إسرائيل {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [سورة الأعراف: (١٥٧)]، وهذا في سائر الأبواب، التوبة المعروفة المشهورة في التاريخ التي كتبها الله -عز وجل- على بني إسرائيل لما عبدوا العجل، قال: {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ} [سورة البقرة: (٥٤)] فأمرهم بأن يقتل بعضهم بعضاً كانت تلك هي توبتهم، أما هذه الأمة فيكفي الإنسان أن يحقق في التوبة الشروط المعروفة، فيتوب الله -عز وجل- عليه.

وكانت اليهود إذا وقعت النجاسة على ثوب أحدهم فإنه يقطع الثوب، والمرأة الحائض لا تؤاكل ولا تجالس، وقل مثل ذلك في أمور كثيرة.

أما في شريعتنا فقد جاءت الرخص الكثيرة للمسلم، فالإنسان إذا كان مسافراً أو مريضا فله أن يفطر في رمضان، والصلاة تقصر للمسافر، ولم يكلف الله -عز وجل- هذه الأمة بما لا طاقة لها به في قوله - تبارك وتعالى-: {رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ} [سورة البقرة: (٢٨٦)] الشاهد أن الله قال: قد فعلت، ولهذا يقول الله -عز وجل-: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [سورة الحـــج: (٧٨)] فهذا شامل لسائر الأبواب لا يختص بباب، وما تجدونه في بعض كتب التفسير من أقوال السلف أو بعضهم -رضي الله عنهم- في ذكر بعض هذه الصور أو الاقتصار على واحدة منها إنما ذلك من قبيل التوضيح والتفسير بالمثال لا الحصر، لا يقصدون به الحصر فهو عام.

---

[٢] - زاد المعاد (٥/٣).

وتُصلَّى رجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط لعذر المرض، فيصليها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات، ولهذا قال -عليه السلام-: ((بعثت بالحنيفية السمحة))[٣].

هذا الحديث بهذا اللفظ فيه ضعف هو حديث مرسل، ولكن الحديث الآخر حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- وهو عند البخاري تعليقاً، وقد رواه الأمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قيل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أي الأديان أحب إلى الله ؟ قال: ((الحنيفية السمحة))[٤] يؤدي هذا المعنى تماماً.

وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن ((بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا))[٥]**، والأحاديث في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدّينِ مِنْ حَرَجٍ} يعني: من ضيق.**

أصل الحرج الضيق يقال هذا مكان حرج، وفلان في حرج، ويقال للشجر الكثيف الملتف حرجة، ولذلك يقال للمكان الذي يكمن فيه الأسد حرجة، وتجدون في السير في قصة غزوة بدر، قالوا: إن أبا الحكم -أي أبا جهل- كالحرجة، أي: أن حوله الرجال يحملون الرماح، فلكثرتهم حوله صار كالحرجة -الشجر الملتف- كما يقول كعب بن زهير في القصيدة المشهورة التي يمدح فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

مِنْ خادرٍ مِنْ لُيوثِ الأُسْدِ مَسْكَنُهُ *** مِنْ بَطْنِ عَثّرَ غِيلٌ دونَهُ غيلُ

فالغيل هو المكان الذي يكمن فيه الأسد، ويقال له حرجة، فقوله –تبارك وتعالى-: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدّينِ مِنْ حَرَجٍ} يعني: من ضيق، هذا تفسير له بالمعنى المباشر الذي تدل عليه اللغة، وما سبق إنما هو بيان للمقصود بالآية وتطبيقات ذلك من الشريعة.

وقوله: {مّلّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} قال ابن جرير: نصب على تقدير {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدّينِ مِنْ حَرَجٍ} أي: من ضيق بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم.

هذا أيضا قال به الفراء، أي: كملّة أبيكم إبراهيم، فيكون نُزع منه الخافض الذي هو حرف الجر "الكاف".

قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم.

ويكون منصوباً بفعل مقدر محذوف، أي: الزموا ملة أبيكم إبراهيم، ويمكن أن يكون النصب على الإغراء، وبعضهم يقول: إن النصب هنا على المصدرية بفعل دل عليه ما قبله، وسّع عليكم دينكم توْسعة {مّلّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} فليس فيها حرج، إنما الأغلال حصلت للإسرائيليين مثلاً بسبب جناياتهم وذنوبهم وعتوّهم على الله -تبارك وتعالى- كما قال الله -عز وجل-: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ

---

[٣] - رواه الإمام أحمد (٦٢٣/٣٦)، برقم: (٢٢٢٩١)، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف.

[٤] - رواه أحمد (١٨/٤)، برقم: (٢١٠٩).

[٥] - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل -رضي الله عنهما- إلى اليمن قبل حجة الوداع (١٥٧٨/٤)، برقم: (٤٠٨٦)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير (١٤١/٥)، برقم: (٤٦٢٣)، بلفظ: ((يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا)).

عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا} [سورة النساء: (١٦٠)]، وهكذا قال: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}[سورة الأنعام: (١٤٦)]، فهذا في غاية العسر، فحينما يأتون ويفحصون هذه الأشياء لاشك أن في هذا حرجاً كبيراً عليهم، وتجد هؤلاء لما ضاقوا بهذا الحرج ذهبوا وجملوها وباعوها وأكلوا ثمنها.

وبعضهم يقول: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} أي: اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم، إنما يذكر هذا؛ لأن الإعراب هنا متصل تماماً بالمعنى.

قلت: وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [سورة الأنعام: (١٦١)] الآية، وقوله: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ} وفي هذا قال الإمام عبد الله بن المبارك عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في قوله: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ} قال: الله -عز وجل-، وكذا قال مجاهد وعطاء والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة.

هذا الذي عليه أكثر السلف -رضي الله تعالى عنهم- والأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، فأقرب مذكور هو إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ولكن هناك قاعدة أخرى وهي أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، فكون الضمائر ترجع إلى شيء واحد أولى من أن تقول هذا يرجع إلى كذا، وهذا يرجع إلى كذا، فإذا نظرت من بداية سياق الآيات فقد قال -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ...} [سورة الحج: (٧٣)]، ثم قال تعالى: {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ...} [سورة الحج: (٧٤-٧٨)]، فكل الضمائر ترجع إلى الله -تبارك وتعالى- وكون الضمائر ترجع إلى واحد أولى من أن يقال هذا يرجع إلى كذا، وهذا يرجع إلى كذا، ومثلنا على هذا بأمثلة متنوعة كقوله -تبارك وتعالى-: {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [سورة الفتح: (٩)].

فمن أهل العلم من قال: الضمير في قوله: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- المذكور قبله، ومن أهل العلم من قال: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}، أي: الله، {وَتُسَبِّحُوهُ} أي: الله، فالضمائر كلها له، والله أعلم.

قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر، {وَفِي هَذَا} يعني القرآن، وكذا قال غيره.

قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر {وَفِي هَذَا} يعني: القرآن، وهذا أيضاً اختيار كبير المفسرين ابن جرير {هُوَ سَمَّاكُمُ} أي: الله، هذا الذي عليه عامة السلف، فالله هو الذي سمانا وليس إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهذا القول اختاره ابن كثير بناءً على القاعدة.

قال الشنقيطي -رحمه الله-: "قوله تعالى: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا}، اختلف في مرجع الضمير الذي هو لفظ "هو" من قوله: {هُوَ سَمَّاكُمُ} فقال بعضهم: الله هو الذي سماكم المسلمين من قبل وفي هذا، وهذا القول مروى عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وعطاء، والضحاك، والسدي، ومقاتل بن حيان، وقتادة، كما نقله عنهم ابن كثير.

وقال بعضهم: هو أي إبراهيم سماكم المسلمين، واستدل لهذا بقول إبراهيم وإسماعيل: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ} [البقرة:١٢٨] وبهذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كما نقله عنه ابن كثير.

وقد قدمنا أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً وتكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول، وجئنا بأمثلة كثيرة في الترجمة، وفيما مضى من الكتاب، وفي هذه الآيات قرينتان تدلان على أن قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم غير صواب.

إحداهما: أن الله قال: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا} أي: القرآن، ومعلوم أن إبراهيم لم يسمهم المسلمين في القرآن، لنزوله بعد وفاته بأزمان طويلة كما نبه على هذا ابن جرير.

القرينة الثانية: أن الأفعال كلها في السياق المذكور راجعة إلى الله، لا إلى إبراهيم، فقوله: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ} أي: الله، وما جعل عليكم في الدين من حرج: أي الله، هو سماكم المسلمين: أي الله.

فإن قيل: الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور للضمير المذكور: هو إبراهيم.

فالجواب: أن محل رجوع الضمير إلى أقرب مذكور محله ما لم يصرف عنه صارف، وهنا قد صرف عنه صارف، لأن قوله وفي هذا -يعني القرآن- دليل على أن المراد بالذي سماهم المسلمين فيه: هو الله لا إبراهيم، وكذلك سياق الجمل المذكورة قبله نحو {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج:٧٨]، يناسبه أن يكون هو سماكم -أي الله- المسلمين"[٦].

{هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [سورة الحج: (٧٨)]، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول -صلوات الله وسلامه عليه-، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوّه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يُتلى على الأحبار والرهبان، فقال: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ} [سورة الحج: (٧٨)]، أي: من قبل هذا القرآن {وَفِي هَذَا} روى النسائي عن الحارث الأشعري عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثِيّ جهنم))، قال رجل: يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال: ((نعم وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله))[٧].

قوله: {لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ} [سورة الحج: (٧٨)]، أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولا خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة {شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}

---

٦ - أضواء البيان (٥ / ٣٠٢- ٣٠٣).

٧ - سنن النسائي الكبرى (٥/٢٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم: (١٧٢٤).

لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك.

وقوله: {فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة التوبة.

أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها وأدوا حق الله، فالفاء هنا تدل على التعليل، والأصوليون يسمون هذا بدلالة الإيماء والتنبيه، بمعنى أن الله -عز وجل- يذكر شيئاً ثم يرتب عليه الفاء كهذا، يقول: إعطاؤه فشكره، فما علة الشكر؟ هو العطاء، ابتُلي فصبر، ما علة الصبر؟ البلاء، وضابط هذه الدلالة: أن يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً، سكر فهذى، لماذا هذى؟ لأنه سكر، فهنا {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} [سورة الحـــج: (٧٨)] إلى آخره، ثم قال: {فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} من أهل العلم من يقول خص الصلاة والزكاة بالحكم؛ لأن الصلاة والزكاة أشرف العبادات.

وقوله: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ}، أي: اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به {هُوَ مَوْلاكُمْ} أي: حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم {فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} يعني: نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ}، أي: اعتصموا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه، وهذا آخر تفسير سورة الحج، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وشرف وكرم، ورضي الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.